سبعة حجارة للخاطئة

فينوس خوري ـ غاتا



سبعة حجارة للخاطئة

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سحر مغنية

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سحر مغنية

فينوس خوري ـ غاتا

سبعة حجارة للخاطئة

ترجمة
سميرة بن عمو



إلى خالدة سعيد

أُهدي هذه الترجمة

سميرة

Vénus Khoury - Ghatta, *Sept pierres pour la femme adultère*

الطبعة العربية

الطبعة الأولى، 2014

ISBN 978-6-14425-735-7

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114—2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

فِراشٌ وقِدْرٌ ومِعْزاةْ.

وبلا حسرة، ستتخلّى عن كل ذلك لأهل "خَوفْ". همُّهَا الوحيدُ الحجارةُ التي كَوَّمُوها لها في الميدان... لها وحدها.

أيُّ حجرٍ من بين هذه الحجارة سيسبق إليها؟

أيُّ حجرٍ سيقضي عليها؟

الفِراش والقِدْر والمِعْزاة؛ ستحتفظ بكل ذلك حتى اللحظة الأخيرة. الشيخ وَعَدَ، وللشيخ كلمةٌ واحدةٌ، ولْيكنْ بعدها ما يكون.

الفِراش والقِدْر والمِعْزاة آيلةٌ لسواها، غير أنها تتساءل عمّا إذا كانت ساقاها قادرتين على حملها إلى كومة الحجارة، أو أنهم سيُضطرون إلى جرِّها على الدرب الذي تصبغه شمسُ الغروب بلونها الأحمر؛ فالرجم عادةً ما يكون في هذا الوقت.

فِراشٌ من صوف "المرينوس"، وقِدْرٌ حافلةٌ بسُخام القرون، ومِعْزاة هزيلةٌ؛ ذاك كلُّ ما ستُخلِّفه وراءها عندما يقتلعها عُنْوَةً رجالُ "خوفٍ" من خلف السياج ليدفعوا بها إلى الميدان أمام قارع الطبل الذي سيعلن عن تنفيذ حكم الإعدام فيها بضرباتٍ ثلاثٍ سريعةٍ كالشمس التي تتوارى على عَجَلٍ خلف الجبل.

ستشقُّ الحجارةُ الفضاءَ في الوقت الذي تنقضُّ النسوةُ على فِراشها وقِدْرها والمِعْزاة. الأولى يفترشنها للنوم، وتحت الثانية يوقِدْنَ النار، ويحلبن الأخيرة التي سترفس السياج وهي ترى صاحبتها تُقاد إلى

الميدان، وترى قارع الطبل والشمس الآيلة إلى المغيب.

الفتوى التي أثقلت كاهلها لم تُغيِّرْ شيئاً في حياتها حتى هذه اللحظة؛ فهي لا تزال تملك الفراش نفسه والقِدْر والمِعزاة. التغيُّرُ يطرأ عليها في أعماق نفسها كلما تَساءلت عن الشكل الذي سيأخذه الألم، وعمّا إذا كانت ستتألم بعد الموت. مسألةٌ تتجنّب التفكير فيها كي لا تُصاب بالرعب حين تحين الساعة.

أسئلةٌ يستدعي الواحدُ منها الآخر، ويبقى الأسف على شيءٍ واحدٍ؛ أنها لم تعرف أبداً لماذا يتناقص القمر ثم يكبر في الشهر نفسه، وتبقى الشمسُ على حالها.

الفصل الأول

عندما رحل أبناؤها وأدارت القرية لها ظهرها انقطعت الدورة الشهرية عن نور، وانقطعت هي عن واجبات تنظيف بيتها، وحتى عن الاستحمام. أرادت لنفسها المظهر الذي آل إليه بيتُها وقد أصابه الخرابُ وأصاب جدرانه التي تَتَفتَّتُ من قلّة الصيانة. وفي المساء، حين تخفُّ وطأة الرقابة عليها، تنادي: "زاهي"، "زاد"، "زين"؛ واثقةً من رجوعهم مع الصدى. "زاهي"، "زاد"، "زين"؛ أسماءٌ ثلاثةٌ، وما من طريقٍ تحملها. أسماءٌ ثلاثة ترجع إلى شفتيها قبل أن تتناثر على الأرض. ونور تُحسُّ أنها جفَّتْ كالأوراق الذابلة التي تلتصق بنعليها، كبئرها التي هجرها الماء. تتغذى بأقلِّ ما يمكن من الغذاء، ولا توقد ناراً لتدرأ البرد الذي تَكدَّس تحت بشرتها، وتحرص على ألاّ تُغيِّر شيئاً من حولها؛ ألاّ يُصَوِّتَ الكرسيُّ عندما تُحرِّكه، وأن تُرَسِّخ في ذاكرتها المكان الذي تفرش فيه سجادة الصلاة لتشعر أنها ليست وحيدةً وهم يسوقونها إلى الساحة في الساعة التي تتضاءل فيها الشمس، التي يَلْتَقِفُها الجبل، إلى حبَّة جوز. سيجيئون، والأطفال معهم، ومعهم الكلاب الجرباء تهاجم مِعْزاتها التي تصلح للوليمة التقليدية المنتظرة. وسوف يأكلون

بعد رميها بالسبعة "المخلِّصات"؛ سبعةِ الحجارة الأولى. استعادت الرقم "سبعة" وهي تَعُدُّ على أصابعها. سبعةٌ كأيام الأسبوع. سبعةٌ كالحَصَوات التي تُثبِّتُ سقف المستودع. سبعةُ حجارةٍ لِتَشُجَّ رأسها كرمانةٍ أنضجتها شمسُ الصيف.

ودون أن تنتظرهم حقاً سوف تنتظرهم، وتحاول ألا تتهالك عندما يبرزون فجأةً من خلف شجرة الصبّار، وألاَّ تحقد عليهم، هم الذين سيضعون حدًّا لحنينها وأشواقها إلى زاد وزيد وزاهي الذين لم تلمحهم قطُّ منذ أن توقّفتْ عن حساب الأيام. ومن عتبة بيتها، المشهد الوحيد الذي تُطلُّ عليه أرضٌ حمراء منذورةٌ للخصومات الدامية بين الريح والرمل في عراكهما من أجل نُتفةِ من عوسج، نُتْفَةٍ من لا شيء. رملٌ، وريحٌ، وحمرةٌ من لسان "الشيطّان" يصبغان بلونها كلَّ ما يطولان.

وَبَرُ مِعْزاتها أحمرُ رغم بياضها الأصليِّ. غطاءُ سريرها المنشورُ على السياج أحمرُ، وأحمرُ شَعرُها الذي يتكسّر تَكَسُّرَ أوراق الذرة اليابسة. رملٌ وريحٌ مثقلان بالوعيد مذ أُرغمتْ على ألاّ تجازف بارتياد "الدَوّار". كلُّ شيءٍ إلى وعيدٍ مذ صدرت الفتوى.

الضباب الذي يلفظه الجبل قطيعٌ من الذئاب الزاحفة صوبها على بطونها. وهدير الطائرة التي تُحلِّق فوق غفوة الصحراء موجةٌ عملاقةٌ بالرغم من أن البحر في الطرف الآخر من البلد، وبينهما سبع قرى. لم تكن أكثر من هلوسةٍ حين تهيّأ لها مرَّةً أنها من على سطح بيتها شاهدت الموجة. فالخطُّ المائل إلى الرمادي، وقد ظنّته موجةً، لم يكن غير طريق معبَّدةٍ بالإسفلت، هي الطريق الوحيدة التي تربط بين الساحل والصحراء.

الفتوى ضَيَّقَتْ حياتها فضلاً عن تضييق فضائها. "أربعون يوماً"؛ ذاك ما قرَّره الشيخ. أربعون، بدءاً من الليلة التي شَرَّعَتْ فيها نفسها للرجل الذي وطأها على مرأى من رياح "الخماسين" التي كانت تَصِرُّ في كل فُرجةٍ، وفي فرجتها، هي المرأة التي دنَّسها غريب.

وعبثاً سؤالها عمَّا إذا كان ذاك الرجل يحبُّها، لأنها ستجيب عن السؤال بسؤالٍ آخر: "وهل يُحبُّ المحراثُ الأخدود؟"

ثلاثةُ فصولٍ أو أكثر مضت عليها دون أن يمسَّها رجل. فعندما هجرها زوجها بصحبة ابنة أخيها ترك لها الأطفال، والجدران تُوصِدُ بعضهم على بعض كلما عضَّتْ ريح "الخماسين" بنواجذها أجسادهم الصغيرة، وعضَّتْ لُبابَ الصبَّار المكتنز. وبلهجة قاطعة تُجْمِل المرأة قولها أنْ لا جدوى من زجر الريح الصمَّاء. وغدتْ نظرتُها مرتابةً من بعد اطمئنان. هي ذي تتوخى الحذر، ويعتريها الشعور بالندم على بَوْحها بكل ما باحت به.

– ألكي تكتبي قصتي في كتابٍ، أنتِ تهتمين بي؟

وأدارت ظهرها، ثم انحنت فوق دست مملوءٍ بثيابٍ وسخة، وانكبَّتْ على الياقات والأكمام تدعكها في سُعار. جَلَسْتِ إلى جانبها القرفصاء، ومضيت تشرحين لها أنكِ هنا لمساعدتها على رفع الفتوى عنها. ولكنها لا تُصدِّقكِ. وبحركةٍ نَزِقَةٍ، وقد رأتكِ تُلحِّينَ، اندلق الماء الموحل على قدميكِ، فرمتْ لكِ من بياض الثياب بقطعة تُنشِّفين بها نفسكِ. مساحبُ الدم على بشرتك تقتلع صرخةً منكِ. تستردُّ المرأةُ الخرقةَ، تفرشها، وتتمتم بالدعاء وهي تُحدِّق بعينيها الباردتين في هذه الأخلاط الدامية.

ويهدأ غضبها فجأةً. إنها مدينةٌ لكِ بتفسيرٍ ما. فتشير بذقنها إلى إبرة الحياكة المعدنية. إبرةٌ لها توأمها الذي تتدلى منه خيوط الصوف الذي حِيكَ في صفوفٍ مرصوصة.

إبرتان لمنديلٍ تحوكه للشتاء، وإبرةٌ تفكُّ بها ما حاكته من الوليد الذي سيجيء بعد حين؛ همستِ في نفسكِ في رعبْ.

– لا تقولي لي إنكِ تريدين أن أحتفظ به. تعترض المرأة بحدَّة. من الأفضل أن يرحل قبل هذا. الحجارة لا قلب لها. الحجارة لا تُفرِّق بين الراشد والطفل.

– أنتِ حامل؟

– ربما نعم، وربما لا. لقد استبقتُ الأمور.

– ولكنكِ تُعرِّضين نفسكِ لخطر التجرثم في الدم؛ خطر التسمم والموت.

– هنيئاً للدجاجات، فإنّ حجارة الساحة سوف تطرد عنها كل الثعالب.

وتسألينها عن تاريخ اغتصابها، هل تتذكره.

– تُريدين أن تقولي متى وصل بي إلى النشوة؟

وتستغرق المرأة في التفكير، وهي تشير بسَبَّابتها إلى صدغها قبل أن تعلن أسفها بهزِّ الرأس. هي لم تعد تتذكر الليلة بالتحديد. هي لا تذكر إلا ريح "الخماسين"، والقطَّ الذي لم يَعُدْ إلى البيت، وكان زاهي وزاد وزين يطالبون به.

اللثام على وجهها. الدَوّارُ أمامها تتحرّاه في كل اتجاه. كانت تموء لكي يتعرّف على صوتها القطُّ الذي لم يكن له اسم. تموء وتمشي

بعكس الريح التي ما فتئت تُعيدها إلى الوراء، حتى إذا ما أَحَسَّتْ بالعياء راحت تتكئ على جدارٍ لمصنع الآجر، وكان يمكن ألا تبارحه، وهي تتجرَّع وخز البرد، لو لمْ تتوقَّف سيارة "جيب".

- أومأ إليَّ الرجل أن اصعدي.

- ثم اغتصبكِ؟

- ولج فيَّ كما لو أنني كنت امرأته، ثم أعادني إلى بيتي من دون القطّ. ورآه زاهي وزاد وزين فأخبروا "مُحا" بكل شيء.

كانت تجلس القرفصاء على ساقين نحيلتين تتفحَّص وجهكِ:

- قوليها، قولي إني "عاهرة".

"لا علم لي بشيءٍ من ذلك"، أجبتِ؛ وكنتِ تودِّين لو أنكِ قلتِ لها إنها مجرَّد حمقاء، لا بل ملكة الحمقاوات.

وعادت تقول إنّ مُحا استعاد أولاده، ولكنه ترك لها البيت الذي سوف يستردُّه بعد أن...

وهذه العبارة الصاعقة:

- "العاهرات" يُقتلن رمياً بالحجارة.

نور مصرّة، وتُوقِّع على أقوالها.

أتُراه صوتُ الشيخ هو ما يتكلم فيها، أم تُراه صوتُها الطالع من بطنها الذي أُشرِع للغريب؟

- "الرجال كلابٌ، الرجال كلابٌ". راحتْ تُردِّد وتؤرجح جذعها إلى الأمام والخلف.

- هل عاد في اليوم التالي؟

- إنه يعود في كل ليلةٍ يحلُّ فيها الليل؛ يعود في أحلامي. أسمع

مُواءه خلف الباب. أفتحُ. لا أحدْ.

أنتِ تُحدِّثينها عن الرجل، وهي تُحدِّثكِ عن القطّ. تريدين إنقاذ حياتها، وهي تستبسل لتثبت لكِ أنّ ما كان لم يكن اغتصاباً أبداً. تلك كانت إرادتها.

– الفرنسيون هم الذين أرسلوكِ؟ ترميكِ بلهجة حانقة. حفنةٌ من الماء على حجرٍ ملتهب. رطلٌ من الطحين، رطلٌ من السُكّرِ، وآخر من الأرُزِّ، ولحافٌ؛ عظمةٌ تُرمى لكلب. العاملون في حقل الإغاثة الإنسانية لم يَمُدُّوا أيديهم إلينا للمصافحة أبداً، و لم يغمسوا خبزهم في صحنٍ من صحوننا؛ لم يتزوّجوا واحدةً من بناتنا. إنهم يمرون سراعاً كما "الوقواق" الطائر الخسيس.

تستدير نحوكِ، تسألكِ هل أكلتِ في يوم من الأيام أوراق الصَبَّار مطبوخةً على البخار. لا تنتظر جوابكِ. تشرح لكِ أنه يكفي، كما في الفاصولياء، أن تُقَطَّعَ الأوراقُ إلى شرائح، ثم تُطبخَ مع الزيت والبصل، فتحصلين على طبقٍ يليق بالسلاطين.

كنتِ تتوقّعين أن تلتقي امرأةً يائسةً، مهمومةً بالحجارة التي تنتظرها، ولكنكِ تكتشفين أنكِ بإزاء واحدٍ من كبار الطباخين يحرص على أن يَخُصّكِ بأسرار مهنته.

– أنتم لا تفهمون شيئاً عن طعامنا، ولا تفهمون شيئاً من تقاليدنا –قالت في هياج– لقد خنتُ دمي، وعليّ أن أدفع الثمن. لا طائل من معاناتكِ معي، فلكل شيءٍ أوانُهْ. لن أُرمى بالحجارة قريباً، فالأرض التي قَسَّاها الجفاف تستعصي على الحَفْر الآن.

ورأتكِ في ضياعٍ، فهدأتْ سريرتُها، وبادرتْ فأخبرتْكِ بأنّ بقيَّةً

من أملٍ ما تزال هناك، وأنه قد لا يتمّ تنفيذ الفتوى. لا بدّ لواحدٍ أن يستبق الأمور، عمّاً أو ابنَ عمٍّ أو ابنَ أخٍ، لا بدّ من غسل العار الّذي لحق بالأسرة.

– وبعد موتي سأكون نقيةً كالآخرين، وما من حبّة غبارٍ واحدةً على نعلي، وسيكون من حقي أن تُقرأ "الفاتحة" عليَّ، وإن لم يكن لي حقٌّ في الشواهد التي يحتفظون بها للمؤمنين.

– الشواهدْ؟ ما الشواهدْ؟

وتندهش لجهلكِ بالشواهد، فتقوم بالشرح كمَنْ يستظهر درساً.

– إنهما الحجران الموجّهان باتجاه "مكّة"؛ الأول يُحدِّد موقع الرأس للميت والثاني يُحدِّد موقع القدمين. وليس للمرجومات حقٌّ فيهما رغم أنّ لهنَّ ما يتميَّزن به عن الأموات العاديين. فهنَّ قُطعْن عن هذه الدنيا دون سابق إنذارٍ. ودون سابق إنذارٍ تكون رجعتُهنَّ إلى مكان عذابهنَّ هائماتٍ يتلبَّسْنَ كلَّ ما خلَّفْنه وراءهنَّ: الطفلَ الصغير، وأصيصَ الحبق، وسجّادةَ الصلاة.

وتحكي لكِ عن زاهية التي، لغياب السواعد القادرة على الحَفْر عميقاً، دُفنت على وجه الأرض، وكيف عادت إلى بيتها لا يعوزها كسرُ قفلٍ أو صفقُ باب. عادت لتنسج السجادة التي توقفتْ عن نسجها بوصول الشيخ وقارع الطبل، وكيف غيّرتْ ألوان الخيوط نكايةً بهما وعلامةً على عودتها. أبدلت الأخضر بلونٍ من لون دمها الأحمر نفسه هو الذي لم يكن قد جفَّ في الساحة بعد. كان زوجها أوّلَ مَنْ لاحظ التغيير، ولا بدَّ أن يكون المرء أعمى كي لا يتبيَّن الفرق، أو لا يتبيَّن الرسمة الجديدة التي تجهلها "خوف". فالتنين الذي يبتلع

القمر وافدٌ من الصين التي لم تطأها قدما زاهية.

عندما رأى حارسُ المقبرة الشاهدتين على قبر المرأة المرجومة استنفر للدفاع عن المقدَّسات، إذ كيف تَمَكَّنَتْ ميتةٌ مثلها من نقل حجرين مغروزين في الأرض، ووضعهما عند رأسها وقدميها؟

ومنذ عشر سنواتٍ وقصة زاهية تُحْيي ليالي السهر.

بشيءٍ من الحسد تتحدث عنها نور متمنيةً أن يُقَدَّرَ لها قَدَرُها، لا لشيءٍ إلا لتنعم بما لا ينعم به إلا المؤمنون، وأن تعود إلى بيتها ما يكفي من الوقت لإطعام مِعْزاتها وسقاية الحبق. أما شجرة الصَبَّار فقد شبَّتْ عن الطوق، وفي وسعها أن تُداري نفسها بنفسها.

تنهضين استعداداً للذهاب، ولكنها تُمسك بكِ من طرف كُمِّكْ. فعلى شفتيها سؤالٌ تريد أن تُوجِّهه إليكِ، هو السؤال نفسه الذي وجَّهَتْه منذ قليل:

– أنتِ هنا لكي تكتبي كتاباً؟ لِمَ لا تكتبينه عن نفسكِ؟ لا أحد في "خوفَ" يعرفكِ. ما الذي ساقكِ إلى آخر قريةٍ في الدنيا، وقد كان بإمكانك أن تستقرِّي في بيتٍ حقيقيٍّ، في المدينة، أن تصادقي نساءَ يمتلكن قدوراً برّاقةً كالمرايا، لا قدوراً يُغطّيها السُخام؛ نساءَ لديهن آلاتٌ تقوم عنهنَّ بكلِّ أعمالهنَّ من غسيلٍ وكيٍّ وطبخٍ وحتى خياطة الأكفان.

لقد ثرثرتْ أكثر ممّا ينبغي. هي تَعي ذلك، ولذلك صمتتْ. نظرتُها المرتابة تتفحّصك بالتفصيل من الرأس إلى أخمص القدمين. وهذه العبارة التي تحتزُّ قلبكِ كالمنشار:

- مَنْ يدري؟ لعلكِ تكونين صديقة الشيخ والقاضي، ولعلهما يدفعان لكِ كي تنتزعي مني أسراري.

وفجأةً تُدركين أنكِ لا معرفة لكِ باسمها أكثر من المعرفة التي لها باسم القطِّ الذي ذهبتْ به ريحُ "الخماسين". "قومي بزيارة المرأة التي سيرجمونها، حاولي أن تُمُدِّي لها يد العون"، قال لكِ الدكتور بول الذي يدير المركز.

- نور. يُسَمُّونني نور.

قالتها بنَفَسٍ متّصلْ.

ومضيتِ تترجمين اسم "نور" إلى الفرنسية؛ أنتِ المولعةُ بالكلمات تُرحِّلينها بين لغتكِ الأم وبين الفرنسية التي تعلمتِها من الكتب؛ وتترجمين اسمها ولا تُقرِّين لها بأنكِ غير مدينةٍ في وجودكِ هنا لأيِّ معرفةٍ بالعمل الإغاثي، بل لرحيل الرجل الذي أحببتِ، وطَرَدَتْهُ زوجتُه من بيته بعد أن اكتشفت العلاقة التي بينكما، ولقِطٍّ دهسته عجلاتُ شاحنة القمامة. وتحت جنح الليل كنتِ تُمسكين بفأسٍ في يدكِ تحفرين حفرةً في حديقتكِ تُوارين فيها كرة الشعر الأبيض الصغيرة، وتُوارين معها دموعكِ؛ دموع المرأة التي هجرها حبيبها.

عندما أُوصِد البابُ خلفه وضعتِ على عينيكِ نظارتيه المنسيَّتين على الطاولة الصغيرة قرب السرير، يَحْدوكِ فضولٌ في اكتشاف الصورة التي كنتِ عليها في ناظريه. ليست الفتاة التي عكست المرآةُ صورتَها جميلةً ولا قبيحةً، ليست طويلةً ولا قصيرةً، ولا ممتلئةً ولا نحيلة. الـ"وسطُ" علامتُها في كل شيءٍ، لا شيء يستدعي الرسوب

- قلتِ لنفسكِ- ولا شيء يستدعي تهنئة لجنة التحكيم، وقلبتِ وجه المرآة إلى الجدار.

الخوف من الوحدة دفع بكِ إلى "مركز غوث البلدان المنكوبة"، وإلى الرحيل قبل الشتاء كي لا تُشاهدي المطر يُبلِّلُ القبر الصغير، وكي لا تستنشقي التبغ المُعَسَّل الذي تُضمِّخ رائحتُه أغطية سريركِ.

المتطوعون مرحَّبٌ بهم، وكان السفر في اليوم التالي.

الوجهة قريةٌ صغيرةٌ على مشارف الصحراء، لأنّ حياتكِ قاحلة. البلد جائعٌ، لأنكِ لم يكن في وسعكِ أن تبتلعي أيَّ شيء. والأرض مصابةٌ بالجفاف. أبسبب دموعكِ؟ سيكون عليكِ أن تُقنعي السكان المحليين بأنهم لن يموتوا من الجوع، ولا من العطش، ما دامت "فرنسا العون" مهتمّةً بأمرهم.

تذكرةِ السفر في يدكِ. حذارِ من التورّط في الحياة الخاصة للناس - قالوا لكِ- ومن التدخل في تقاليدهم القَبَلِيَّة والدينية.

وما إن وصلتِ إلى "خوف"، بعد يوم من السفر الذي أمضيته في الطائرة والباص، حتى اتّخذتِ قراركِ بعدم البوح بمشكلاتكِ لأحد، وها أنت ذي تبسطينها أمام امرأةٍ أحوجُ منكِ إلى الشفقة ألف مرّة، ولا تفهم إلاّ واحدةً من بين كلِ ثلاث كلماتٍ تقولينها. تَصفين لها أدقّ دقائق رعبكِ حين أحال الليلُ حديقتكِ إلى كتلة من العتمة، وتراءى لكِ من خلال الزجاج خيالُ حبيبكِ بقامته المديدة، وخيالُ قَطِّكِ المُكوَّرِ؛ الأول يشير إليكِ بأن تعالي، والثاني يموء لكي تسمحي له بالدخول، ولكن دخلت الريح والعتمة، وكنتِ تظنين أنّ ذَيْنِكِ يدخلان.

وتبكين أمامها؛ هي التي لا تعرف أن تبكي، وتعجن يديها خجلاً

من عجزها عن تقديم شيءٍ من العزاء، وببطءٍ تتكلم من دون أن ترفع نظرها إليكِ، فتخرج الكلمات من بين شفتيها السمراوين تصطفُّ كجنود من رصاص في لعبة من الألعاب.

يتعذَّر عليها أن تُصدِّق أنَّ النساء هنَّ مَنْ يُطلِّقن الرجالَ في بلدكِ، وأنَّ الرجال يُطْرَدُون من أسِرَّتهم ليُرْمى بهم في الشوارع، لا لوم في ذلك ولا تثريب.

– حمداً لله! ردَّدتْ وهي تَرْبِتُ بورع على صدرها. ربما كان رجالنا قذرين، كسالى، وزناةً، ولكنهم يسلكون سلوك الرجال. حقُّ الطلاق ملكُ يمينهم مذ كانت الدنيا الدنيا. حقُّهم، ولو انتهوا إلى استردادنا لاحقاً إذا ما رغبوا؛ على أن يتمَّ كل شيءٍ وفقاً للأعراف، حيث لا تعود المُطلَّقة إلى زوجها إلا بعد أن تمرَّ تحت زوجٍ آخر، فيكتب الشيخ في دفتره: من تحت أحمد إلى تحت عليٍّ، ومن جديدٍ إلى تحت أحمد، وتنتهي المشكلة. "يويويوووووووو"، وها هما من جديدٍ متزوجان كعهدهما من قبلْ.

– ولماذا تقولين: تحت أحمد وتحت علي؟

فتنفجر ضحكتُها من سؤالكِ رغماً عنها، ولا يبقى لها إلا أن تقول إنكِ "مهبولة". وبلهجة المُتَفَقِّهة تُفسِّر لك أنَّ في ممارسة الحبِّ يكون الرجل دائماً من فوق، وتكون المرأة دائماً من تحت.

– إنه يمتطيها.

– ولا عكس في هذا الأمر أبداً؟ تمتلكين الجرأة على السؤال.

– أبداً.

اللهجة حازمة.

احترام التقاليد أمرٌ لا مفرّ منه. كلُّ شيءٍ مُدَوَّنٌ في الكتب. فالخالق الذي خلق الأشياء لم يترك شيئاً للصدفة: الجبال للأعلى والصحارى للأسفل، النسرُ في الأعلى والحيَّة في الأسفل، السحابُ في الأعلى والضباب في الأسفل؛ هذا فضلاً عن الشيخ؛ عينِ الله على الدَوَّار، ولائحة المحرَّمات التي جاء بها، والتي سيرى مَنْ يُخالفها ما ينتظره يوم الحساب.

ورأتكِ تنهضين استعداداً للذهاب، فجالت بنظرة على كوخها. تَوَقَّفَتْ عند مغرفة عُلِّقتْ في مسمار. انتزعتْها من مكانها وقدَّمتْها لكِ. المغرفة هديتها لكِ برهاناً على صداقتها. أنتِ أشدُّ حاجةً منها إليها، فلقد توقَّفتْ عن الطبخ منذ أن سرق زوجُها أولادها الثلاثة. ودفعتْ بكِ إلى الخارج. فالآن، وقد أصبح لها صديقةٌ في الدَوَّار، سوف تعود إلى تنظيف بيتها. يجب أن يكون كلُّ شيءٍ مُرَتَّباً بعد رحيلها، وإلا فإن النسوة سوف يَغْتَبْنَها، وسوف تتعذب روحُها جرَّاء ذلك. سوف تكنس وتسقي أرضية البيت المدكوكةَ، ثم تجمع من حديقتها الأغصان المكسورة، وتوقد ناراً تُرى من كل جهات الصحراء، وسوف تنظِّف القفص، لأنها ما من دجاجة لها الآن، والديكُ استحوذ عليه زوجُها، وسوف تحلب المِعْزاة وتُوزِّع حليبها على الفقراء. فنور لم تَعُدْ قادرةً على ازدراد شيءٍ، أو ابتلاع شيءْ. ونور لا تريد أن تحتفظ بشيءٍ، ولا أن تترك خلفها من شيء.

عند عودتكِ إلى المركز رُحتِ تُحلِّقين بنظركِ فوق الأسقف المنخفضة التي بدت وكأنها تزحف ببطونها على الأرض، فتبدَّتْ

لكِ "خوفُ" محصورةً بين الجبل والصحراء. "خوفُ" نعشٌ ضَيِّقٌ أمغَرُ اللون؛ حيَّةٌ من رملٍ شَقَّق ظهرَها الجفافُ؛ حيَّةٌ مستغرقةٌ في خَدرٍ عميقْ.

الفصل الثاني

في الليل، في غرفتكِ المؤثثة بسريرٍ ضيِّقٍ وكرسيٍّ، تُفكِّرين في نور التي تنتظر هادئةً تنفيذ حكم الإعدام فيها المقرَّر أن يتمّ خلال الأربعين يوماً المقبلة. وكانت رُجمتْ لو لم تستعصِ الأرضُ التي قَسَّاها الجفافُ على الرفوش. الريح التي صارت جليديةً بدءاً من هذا المساء تبعث الأمل بالمطر، غير أنها تبدو كأنما تكتفي بنفسها؛ فما من غيمةٍ تُصاحبها. ريحٌ تنفخ في كل الاتجاهات، تحني النخيل حتى الأرضِ، وتدوس الأشجارَ المجردَّة من أيِّ أوراقٍ وأيِّ ثمار. أشجارٌ عقيمةٌ مثلكِ أنتِ التي كنت تتعمدين ألاّ تستعملي مانعاً عارفةً أنَّ الحَمْل سيدفع بحبيبكِ إلى الطلاق كي يعيش معك. تنتابكِ رغبةٌ فجائيةٌ في أن تلمسيه، أن تستنشقي بَشَرَتَهْ. يتفحَّص نظرُكِ الطريقَ المتعرِّجة التي توصل إلى الدَوَّار. سوف يظهر عمَّا قليل، بطنُكِ بانتظاره. تَشُدِّين عليه بكلتي يديكِ كي توقفي تشنّجاته. "إنَّ الريح الملول ليست موضعاً للثقة"، قالت لك أمينة وهي تغيِّر أغطية سريركْ. ريحٌ تُلهب الجسد وتوحي إلى النساء الوحيدات أنَّ رجلاً مثقلاً بالرغبة على وشك أن يطرق بابهن. ريحٌ تشبه "الخماسين" في كل شيءٍ سوى أنها استبدلت بلهيبِ تلك

صقيعَها هي. شرسةٌ وكريمةٌ في آنٍ، مفرطةٌ في كل شيءٍ، في الطيِّب كما في الخبيث، يمكنها أن تستمرَّ بين ثلاثة أيام وثلاثين يوماً. إنها "الريح ذات العجلات الأربع" كما يُسَمِّيها الجمَّالون؛ قويةٌ مثل ضربة قبضةٍ، أو ضربة مطرقةٍ يُلوِّح بها عملاق. ريحٌ تصقل الجبال وتعيدُ للصخور شبابها، ولكنها تُصيب بالشيخوخة السهوبَ والنساءْ.

عندما رحل الحبيبُ حاملاً معه حقيبته، وتأكد لكِ أنكِ لن تَرَيْه من جديد، أحسستِ فجأةً أنكِ عجوز. عجوزٌ ومسعورةٌ، وجاهزةٌ لأن تعضِّي الباب الذي أقفله خلفه، وكذلك كتل التربة التي رفعها رفشُك وهو يحفر قبراً بين المريمية والياسمين. رجلٌ وقطٌّ تعاقبا في سريركِ مدَّة سنة. عندما يغيب الأول كان الثاني يستولي على المكان ويُشغِّل آلة هَرِيرِهْ. كان الصوت ينبعث من خطمه الصغير شبيهاً بصوت النرجيلة. فتحلمين بقصرٍ عثمانيٍّ وبسلطان، وأنكِ محظيَّتُهْ.

"أنتِ لا تُحبِّين إلاّ ما هو زائلٌ؛ الرجالَ المتزوجين والقططَ الأصيلة – قالت تنتقدكِ إحدى الصديقات ذات يوم– ابحثي لكِ عن هجينٍ في المرة القادمة"؛ دون أن تُحدِّد ما إذا كانت تعني بذلك الرجلَ أو القطّ.

عندما رَدَمْتِ الحفرةَ بالتراب تُهيلينه على التراب لجأتِ إلى الفرار. كنتِ تُفضِّلين ألاَّ تنظري إلى مشكلتكِ وجهاً لوجهٍ، وأن تتركي للزمن أن يُصلح الزمن.

وجعٌ أنتِ، ولن تساعدي نوراً في شيءٍ؛ لا، ولا أهل "خَوْف". صباحٌ واحدٌ قضيْتِه تعملين في الاستقبال كان كافياً لكي تفهمي أنكِ

مُعْدَمَةٌ مثلهم. لقد زجرتِ جليلة العجوز لأنها تُفضِّل طحين القمح على طحين الذرة الذي لا تقوى معدتها على هضمه، وصَمَمْتِ أذنيكِ عن زعيق العملاق ذي الزوجات الثلاث والأطفال الاثني عشر؛ العملاق الذي كان يطالب بثلاثة أضعاف ما تُوزِّعينه من طحينٍ وسُكَّرٍ وأَرُزٍّ على الآخرين.

يثير إعجابَكِ صبرُ الدكتور بول الذي يدير المركز ويعالج المرضى ويستمع إلى اتهامات الساخطين دون أن ينتابه الغضب. لقد عاد طبيب القرى هذا إلى العمل في العمر الذي يهنأ فيه الآخرون بتقاعدٍ مريح. رجلٌ قدّيسٌ في أرضٍ أنزل الله عليها اللعنة. نظراته، وهو القصيرُ النظر، تأتلق بألوان قوس قزح إذا ما رأى طفلاً؛ أيَّ طفلٍ. الكسيحُ، والقذرُ، وذو البطن المنتفخ، وذو الجمجمة الضخمة على جسدٍ لم يبقَ منه غيرُ هيكلٍ عظميٍّ -أولئك كلهم جميلون في نظره؛ يفحصهم عندما يمرضون، يُمَسِّح جيئةً وذهاباً على شَعْرهم الأشعث الذي لا يغسلونه أبداً، يُعطيهم الأطعمة السائلة يتجرّعونها قبل أن يناولهم قطعة بسكويت أو لوحاً من الشوكولا، أو قطعةً من اللحم المسلوق عندما يقبل أحد الفلاحين أن يبيع بقرته للعاملين في حقل الإغاثة. الأمهاتُ يُلقِّبنه ب"الحكيم". أما الأطفال، بسيقانهم النحيلة التي لا تقوى على حملهم، فيجلسون على امتداد الحائط، يتبعونه بأعينهم أينما ذهب، ودون أن ترفَّ أجفانهم المرهقة يُحدِّقون عبره في مشهدٍ هجرته الطيور، وهجره حتى الجراد. ذاك أن الزواحف وحدها تجد ما تسدُّ به رمقها في هذه الأرض التي ما انفكَّتْ متخمةً حصىً وأشواكاً.

لن يُجديكِ أيُّ جهدٍ تبذلينه، فبؤسُ سكان "خوف" الحقيقيُّ

يعود بكِ إلى همومكِ الصغيرة. لقد انكمش قلبكِ بعد رحيل حبيبكِ وموت قطِّكِ. ولستِ جاهزةً لأن تعطي، لا بل أنتِ أقلُّ جاهزيةً لقبول العطاء. تُشيحين بوجهكِ عندما تشكركِ إحدى الأمهات، وتسحبين يدكِ عندما يحاول عجوزٌ أن يُقَبِّلها. فأكياسُ السُكَّرِ والأَرُزِّ والطحين التي تُوزعينها ليست من مالكِ أنتِ. ترفضين كلَّ شيءٍ دفعةً واحدةً؛ الكائنات والأمكنة. تتفادين المرور أمام المقبرة وقبورها التي ابتلعها الرمل. شواهدُها تعود بكِ إلى الحفرة التي حفرَتْها يداكِ في حديقتكِ.

إذا ما حضر إلى مركز الاستقبال زوجان يتلامس كتفاهما، أو حتى عندما يكون الرجل في المقدمة والمرأة وراءه، تتلقين مثل صفعةٍ فكرة "الاقتران" التي فشلتِ في تحقيقها. ساعاتٌ ثمانٍ في الطائرة، ومثْلُها في الباص، كل ذلك من أجل أن تُبادلي الحديثَ امرأةً واحدةً محكومةً بالموت تحت وابلٍ من حجارة قبيلتها. فأصبحتْ آلامُكِ الصغيرة تافهةً بإزاء محنتها الحقيقية، وأصبحتِ مستعدَّةً دوماً لمغادرة مكتبكِ كي تسرعي إلى بيتها تاركةً لأمينة أن تهتمّ بتوزيع الرزم البريدية وتسجيل الأسماء في حين أنها نصفُ أُمِّيَةْ.

تظنّين بهم الكذب والكسل وانعدام الخيال. فما كان عليهم إلا أن يزرعوا البرسيم عوضاً عن الذرة التي تتطلب الكثير من الماء، وأن يتزوجوا امرأةً واحدةً، هم العاجزون عن إطعام نصف زوجة، وأن يُنجبوا ولدين عوضاً عن ثلاثة، وأن يكتفوا ببستان خُضَرٍ صغيرٍ عوضاً عن هذه الحقول الممتدة حتى الصحراء، والتي تَحَوَّلَتْ إلى جرحٍ فاغرٍ، وقرحٍ منذورٍ للأشواك، وصحراء على مشارف الصحراء.

بضعُ ساعاتٍ كانت كافيةً لكي تفهمي أنكِ لن تكوني عوناً لهم في شيء. اقتراح أنْ تذهبي لزيارة المرأة التي ستُرْجَم سارعَ بكِ إلى الدرب الضيِّقة المُؤدِّية إلى بيتها، وقد صَمَّمْتِ على ألاّ تعودي إلى مكتبكِ إلا بعد أن ينفضَّ عنه المتسوِّلون.

الفصل الثالث

لوّحتْ أمينة، التي كانت تترقّب عودتكِ، بظرفٍ يحمل طابعاً بريدياً فرنسياً.

"رسالةٌ من حبيبكِ"، صاحتْ بك مضيفةً أنّ طلب الزواج وحده يمكن أن يكون ثقيلاً بهذا القدر.

كانت تتوقّع أن تراكِ تقفزين من شدة الفرح، لم تتوقّع رؤية هذا الوجه المغلق الأليم.

- أنت قادمةٌ من بيت المرجومة؟

شَعَرَتْ أنّ لسانها استبق أفكارها، فصحّحتْ قائلةً:

- منْ بيت التي ستُرجم عما قريب؟ نصيحتي: اتركيها لقدَرها. قتلُ خاطئة ليس خارجاً عن المألوف. هناك المئات من حالتها. ما عليكِ إلا أن تسألي القبور.

هل تخلط أمينة بين حَمّالة صدرها، تدسُّ فيها الظرف، وبين صندوق البريد؟ هي مستعدَّةٌ لتقديم كل ما تملكه من أجل أن تعرف ما الذي تنطوي عليه الرسالة.

خَفّضتْ من حجم مطالبها، وهي تشاهد نظرتكِ التي احتقنتْ

غضباً. ستكتفي بملخصٍ عن الرسالة.

صمتُكِ يُغيظها.

- إذاً، متى سيتم الزفاف لأشتري لنفسي فستاناً جديداً؟

قلتِ لها إنّ الأمر يتعلق، بالأحرى، برسالةِ قطيعة.

يتهيّأ لها أنها تُواسيكِ بحديثها عن ابنة عمها التي طلّقها زوجُها ثلاث مراتٍ خلال عشر سنواتٍ من الزواج، وأنه كان، رغم ذلك، يَستردّها في كل مرة.

"تحتَ محمد، ومن ثَمّ تحت حسن." ردّدتِ بنفس النبرة التي كانت لنور منذ أقلّ من ساعة.

- ها أنتِ تتكلمين مثلنا أيتها الغريبة. وعمّا قليلٍ تضعين الحجاب.

"تركتِني وحيداً في مواجهة المتكالبين عليّ - يقول حبيبُكِ متباكياً- عودتي إلى البيت لم تجلب الهدوء لزوجتي. إنها تطلب الطلاق، وقد ألّبَت الأولاد عليّ، وزجّ الأصدقاءُ بأنفسهم وادّعوا أني كنت على علاقةٍ بكِ. وسيكون لشهادتهم وزنٌ كبيرٌ عند تقاسم أملاكنا. ساعديني، اكتبي إلى زوجتي لتشرحي لها أنْ ما من شيء مريب كان بيننا نحن الاثنين؛ أنكِ صديقةٌ قديمةٌ. افعلي ذلك باسم حُبّنا".

الآن، وقد طويتِ ضغينتكِ، تُفضّلين فظاعة زوج نور على جُبْن حبيبِكِ السابق وتَباكيه. شعرتْ أمينة بحزنكِ فكفّت عن السعي إلى معرفة فحوى الرسالة. كأس الماء، وأُضيفتْ إليه خلاصةُ الورد،

جرَّعتكِ إياه دفعةً واحدةً، وكان له فعلُ قطرةٍ من المطر على حجرٍ سَخُنَتْ عليه الشمس. قطرةٌ سرعان ما تبخرت.

– ابكِ، – قالت لكِ آمرةً ثم جعلت تدور حولكِ كأنما لتُطوِّق ألمك. – ابكِ، وسوف تبطحين الجفاف أرضاً.

انتفخ صدرُها من الزهو للضحكة وهي تنفجر من خلال دموعكِ. لقد أطعتِها و لم يبقَ عليها إلا أن تُعلن عن ارتسام قوس قزح.

يويويويويويو

غليانٌ شديدٌ يحيط بكما. شريطٌ سينمائيٌّ سيُعرَضُ هذه الليلة في الساحة هديَّةً من فرنسا والفرنسيين.

هل ستصمد الملاءة البيضاء المشدودة إلى جذعي نخلتين في وجه الريح المحمَّلة بالرمل؟ هل سيعرف طالبُ الطب، الفتى كونزاكيس، الذي عُهد إليه بتشغيل الماكينة من دون خبرةٍ له بها، أن يلفَّ الشريط في الاتجاه الصحيح؟ وثمّة سؤالٌ أخير: هل سينال الشريطُ السينمائيُّ، هديةُ "الصليب الأحمر"، إعجابَ الجمهور الذي احتشد في الساحة منذ منتصف النهار، حيث النساء بمرافقهن والرجال بقبضاتهم؛ كلٌّ يتدافع لكي يضمن لنفسه مكاناً في الصف الأول.

الجميع ينتظر الشيخ ليبدأ العرض، فبركاته لا غنى عنها لانطلاق الشريط. تتّجه الأنظار كلها إلى الطريق الوحيدة للدَوّار فيما يقوم المكلَّفُ بتشغيل الماكينة ببعض التجارب التي يظهر عليها النجاح. ثم يأتي قرعُ الطبول ليُعلن عن مجيء الشيخ، فينحني الكبار والصغار عند مروره. وحدكِ تُديرين له ظهركِ. نظرُكِ يُنقِّب في الظلام بحثاً عن

كوخ نور. ضوءٌ ضئيلٌ من مصباحها بين ورقتي صَبَّار. لا بدَّ أنَّ قرع الطبل يُذكِّرها بحكم الإعدام الذي سيُنَفَّذ فيها حين يستدعيها الذين سيقتصّون منها من وراء السياج ويأمرونها باللحاق بهم إلى الخارج، فعتبة بيتها، هي الزانيةُ، حرامٌ على المؤمنين.

الأنظار كلها تُحدِّق في الشاشة التي جعَّدتها الريح. السجادة التي فُرشَتْ على الرمل مُخَصَّصَةٌ للشيخ والقاضي ورئيس البلدية. أما المؤذِّن فلا يحظى بأيِّ امتياز. تكرار أقوال الرسول لا يرقى به إلى مصافِّ الوجهاء. فتكريمه سيكون أشبه بتكريم ببغاء. تتحوَّل الثرثرة إلى همس عندما يُصفِّق كونزاكيس بيديه فلا يُسمع شيءٌ سوى صوت المولِّد الكهربائي الذي جيء به على ظهر حمار، وكان يهرُّ مثل قطٍّ سمين. كان الجميع في انتظار الصور، وإذا بالموسيقا تنفجر بنشيد "المارسييز" الذي كان على المسؤول عن الماكينة أن يقصَّه من الشريط لو كان ممن يتحسَّبون للأمور. وحدكِ مشغولة البال. الآخرون يسجدون. جباههم تلامس الأرض، وما يسمعونه ليس سوى كلمات التكبير يصدح بها مؤذِّنٌ فرنسيّ.

يصغون إليه بشغفٍ، ثم ينهضون من على الأرض عند ظهور شقراء نصف عارية.

– ملكةْ. هتفتْ ماضغاتُ "القات" بإعجاب.

– عروسْ. اعترضت الشاباتُ اللواتي أطلقن الزغاريد حتى النجوم.

– بغي. أَرْعَدَ الرجال.

الوجه السافر والفستان المقوَّرُ لا يمكن أن يكونا إلا لبغي. انطلقت

الصرخات العدوانية عندما ألقت الملكةُ العروسُ الشابّةُ البغيُّ على الأرض بالخاتم الذي قَدَّمَه لها الرجل المتين الكثّ الشاربين، وصَفَعَتْه. تلا ذلك هرْجٌ ومرْجٌ حيث كان الأطفال والنسوة يبحثون في الرمل عن الحليةِ، وكان الأزواج يقتلعون شاشة العرض ويدوسون عليها بالأقدام.

غادرت الخناجرُ الأحزمة. ضاع الهواء برائحة الكبريت. ولكنَّ عديمة الحياء اختفت باختفاء الشاشة فصبَّ الجميع غضبهم على كونزاكيس الذي أشبعوه ضرباً. فهو المسؤول، وعليه أن يدفع الثمن عوضاً عن المرأة السافرة، وأن يُعوِّض عن الخاتم الذي لم يعثر عليه أحدٌ، وعن إهانة العريس بشكلٍ خاص. فالرجل المُهان يتحول إلى أنثى، كما يقول المثل؛ لا هو بالرجلِ ولا هو بالمرأة، ينكمش عضوه الجنسي مثل ورقٍ معجونٍ، ثم ينتهي إلى غيابٍ، متحوِّلاً به إلى كائنٍ مستفردٍ، لا مكانَ له محسوباً في الجنة، ولا مكانَ له حتى في النار.

يتهيّأ للشيخ، وهو يضرب بعصاه على كل الرؤوس بلا استثناءٍ، أنه يعيد الهدوء؛ ولكنْ ما من أحدٍ يُصغي إليه.

تتوارين عن الأنظار مستفيدةً من الجلبة.

تسألكِ نور التي كانت تجلس على عتبة بيتها أن تروي لها الشريط السينمائي. أذناها لم تلتقطا إلا الأصوات. تُحدِّثينها عن المرأة، وعن الخاتم والصفعة.

– تريدين مني أن أصدِّق أنَّها صفعت زوجها؟

– قد لا يكون زوجها، ولكنها رغم ذلك صفعته.

– الغريب في الأمر أنه لم يقتلها، قالت متعجبةً.

– ربما يكون قد فعل وما من أحدٍ عرف بالأمر. فما من شريطٍ عُرض بعد الصفعة. لقد انهال الرجالُ ضرباً على المسؤول عن تشغيل الماكينة، وما زال الأطفال يبحثون عن الألماسة، أما الشيخ فقد غادر هو وعصاه.

تمَطّى من فمها تثاؤبٌ طويل.

– سيجده زاهي ابني. له عينا صقر.

تتمالكين نفسكِ عن الضحك كي لا تُخجليها.

اعترفتْ بأنها أمضت وقتاً ممتعاً. راقتْ لها الموسيقى، ورقصتْ في حين كانت تعتقد أنها لا تجيد الرقص.

– كنتُ أدور مثل دوَّامةٍ، ضاربةً بقدمَيَّ على الأرض، كأنني أطير.

من أيِّ طينةٍ جُبلتْ هذه المرأة التي حُرِمتْ من رؤية أطفالها فاكتفتْ بغسل ثيابهم؛ وحُرِمتْ من مشاركة القبيلة لَهْوَهَا فاكتفت بأصوات الطبول؟ نور التي نبذتها القرية تقيس الأيام بالظهورات الخمس للمؤذّن مُعَلَّقاً بين السماء والأرض. فالخيال الضئيل الذي ينتشر نشيدُه حتى الصحراء هو البديل لها عن الساعة الناطقة وعن الروزنامة. وهي تقول أنْ ليس في حالتها ما يستدعي الشفقة، وإنها ليست وحيدةً إلى الحدِّ الذي تتصورين. فالنسوة من الدَوَّار يُجازفن بالوصول إلى سياج بيتها، يضعن عنده صحوناً وبقايا وجباتٍ وأغطية أسِرَّةٍ وسخة.

"اغسليها مع ما تغسلين"، تصيح بها النسوة وقد غطَّتْ أحجبتُهنّ وجوهَهن، "سيكون ذلك عوناً لك على إضاعة الوقت".

الظلمة تُحَرِّرها، فتفتح لك نور قلبها، وهي تُحَدِّثُكِ عن مُحا كما

عرفته: كسولٌ وجبانٌ وكذّابٌ في أعماقه، وشجاعٌ نبيلٌ في الظاهر. لقد عرفت ذلك ليلة كانت عائدةً من عرس، وانقضَّ عليها كلبٌ كاد أن يفترسها. كان الخوف يخنقها وهي تئنُّ وتستنجد بمُحا.

"كُفِّي عن مناداتي باسمي"، كان يقول لها معنِّفاً وهو يلوذ بالجدار القصير، "إنه سينتهي إلى معرفة مكاني".

انصرف الكلبُ الذي لم يستطب نوراً مما سمح لمُحا بالخروج من مخبئه. كان يضرب الهواء بعصاً في يده، ويضرب الرمل، ويتوعّد الكلب الذي توارى بأنه سيُمزِّقه إرْباً إرْباً إذا ما تجرّأ على الاقتراب من زوجته.

نور تبكي وتضحك في آنٍ واحد. هل كان الضحك الشديد الذي انتابها هو ما اجتذب المِعْزاة؟ ترتمي نور على مِعْزاتها، تُقَيِّدُ سيقانها، ثم تُناولكِ إياها.

– ستكون أسْعَدَ عندكِ أيتها الغريبة. لقد أُصيبَتْ بالحزن مذ علمتْ بالفتوى.

تَرُدِّين بأنها ستُربكُكِ؛ أنها بحاجةٍ إلى حديقةٍ، ولكنّ نوراً، بإيماءةٍ من يدها، تكنس أقوالكِ.

– خبّئيها في خزانتكِ أو تحت فراشكِ، وإلا فاذبحيها، وبعظمها اطبخيها مأدبةً للفرنسويين الذين يعتقدون أنّ مجرد وجودهم في الدَوّار سيحمل لنا المطرْ.

الفصل الرابع

أنا أمينة، ابنةُ لا أحدَ، أغتنم فرصة غياب الغريبة التي ذهبت كعادتها إلى بيت نور لأفتّش في أشيائها وأعرف مَنْ تكون. تنورتان، قميصان، كتابان وصورةٌ لقطّ. لابد أنها لم تجئ من مكانٍ بعيدٍ لكي تكتفي بهذا القليل من الأشياء، وربما تكون قد جاءت من وراء الجبل، أو حتى من الجبل نفسه الذي قذف بها أمام باب "العاملين في حقل الإغاثة". يخطر لي أحياناً أنها جاءت من أجل نور؛ من أجلها هي وحسبُ، كي تبقى برفقتها، وتُغيظ الشيخ والقاضي. فهي لا تولي الآخرين اهتماماً. الجائعون والمرضى والذين يتسولون من أجل متعة أن يمدوا أيديهم لا يحظون بنظرةٍ واحدةٍ منها. إنها هنا من أجل نور، من أجلها هي وحسبْ. أما عيناها فإنهما، حسبما يقول مختارٌ، ليستا بالعينين، بل زجاج نافذتين يشاهد المرء عبر زرقتهما السماء. هي متكبرةٌ، ولست أرى سبباً لذلك، ولكنها بحرٌ من المعارف والعلم. فهي تتكلم وتكتب ثلاث لغات؛ ثلاثاً من دون نقصان. أمرٌ لم تشهده "خوفُ" أبداً، ولم يشهده الساحل حيث المدارس مدارس حقيقية لا مدرسةً دينية تتحوّل إلى مخزن للغلال في مواسم الحصاد. ثلاثُ لغاتٍ؛ هي التي لا تعرف

كيف تُمسك مكنسةً بشكلٍ صحيح، أو كيف تعصر ممسحةً بحركة واحدة. امرأةٌ من عدة طوابق، مثل بيوت المدينة. القسم العلويُّ منها لتوزيع الهواء، والأوسط بعيدٌ عن الأنظار، والسفليُّ للاستقبال. بعد أن انتهيتُ من تفتيش أمتعتها طرحتُ على نفسي سؤالاً بخصوص الأطفال في باريس؛ المدينة التي تدَّعي أنها جاءت منها، وهل هم قليلون إلى الحدّ الذي جعلها تتبنّى قطًّا لا يتجاوز وزنه كيلوغراماً واحداً؟ قطٌّ! في حين أنّ كان بإمكانها أن تتبنّى يتيماً من "خوف"، فالأيتام فيها أكثر يتماً منهم في أي مكان.

لقد أخرجتْ، حال وصولها، صورة الحيوان، وأرتْها للدكتور بول الذي بدا متأثراً. كان لابنته قطٌّ من نفس السلالة حسبما يقول. وكنتُ أعتقد أنّ البشر وحدهم ينقسمون إلى سلالات؛ فحاولتُ أن أشرح لها أنّ القطَّ مجرد قطٍّ، أنه ليس ابن عائلة كريمةٍ أو ابن صعلوكٍ، وأنّ كل قطط "خوف" من نفس اللون؛ أنها ليست بيضاء ولا سوداء، بل رماديَّة، مثْلها مِثْل الجبل ومِثْل السماء التي أمسكت عن الإمطار منذ سنتين كمَنْ يُمسك دموعه. ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمع شيئاً. لقد أرَتْ قطَّها للدكتور بول، لا لكونزاكيس؛ كونزاكيس الذي لا يروقها بالرغم من أنه يستطيع أن يقول للشمس تَنَحَّيْ لكي أجلس مكانك. الغريبة لا يجذبها إلا كبار السنّ وزِيَرُ النساء. والدكتور رجل عجوزٌ بعمر الدنيا، لا يعرف أحدٌ عمره الحقيقي، ولا يعرف أحدٌ أسرته. أولاده هم المرضى الذين يفحصهم مُتلمِّظاً وكأنه يأكل قطعةً من الحلوى، وسوف يفحصهم ويعالجهم إلى أن تنفصل يداه عن ذراعيه ويصبح صوته أشبه ما يكون بالذي يصدر عن جفنةٍ تُكشَطُ

بملعقة عوجاء. إنه يحنُّ على الغريبة وإلاّ لما سمح لها أن تعتني بنور وحسبُ، هي التي ليست بحاجةٍ لذلك، إذ ليس لديها ما تفعله مذ غادرها أبناؤها.

الدكتور رجلٌ طاهرٌ، يوازي في طهارته الوليَّ الذي يُبْرِئُ الأعمى، أو ماءَ زمزم التي تغسل من كل الذنوب. وهو إلى ذلك رجلٌ متواضعٌ، يرفع قدميه أمام ممسحتي، في حين أنّ كونزاكيس يدوس عليها. كونزاكيس يُحبُّ أن يراني على أربعٍ وعجيزتي إلى أعلى مثل فرسٍ جاهزةٍ للنزاء. أبصق على نفسي عندما يطلب مني أن أتّخذ هذا الوضع لكي يقضي مني وطراً في حين أنّ "خوفاً" لا تفتقر إلى الماعز، وأنّ الحيطان وجذوع الأشجار لا تفتقر إلى الثقوب. عندما يكون الرأس أدنى من العجيزة يسيل الدماغ في اتجاه الوركين ويصبح المرءُ أقلَّ ذكاءً. هذا ما قاله شخصٌ لا أعرفه لشخصٍ آخر قاله لي بدوره. لو أنني وُلدتُ في مكانٍ آخر لكنتُ بالتأكيد أكثر جمالاً وأكثر غنىً، وكنتُ أُجيد التصرَّف أكثر. غير أني جئتُ إلى الدنيا في المكان الأسوأ. ولو أنني وُلدتُ في مكانٍ آخر لكنتُ أختلج كسمكةٍ، ولكنتُ بيضاءَ من الخارج وَرْديَّةً من الداخل، مثل خطيبة كونزاكيس؛ فهي حوريةٌ لا أقلَّ ولا أكثر، بشرتها بلون "راحة الحلقوم".

من الأفضل له أن يُدير صورتها إلى الحائط عندما يَهُزَّني بدلاً من أن يُحدِّق في عينيها، ثمّ يغمغم مع كل خبطة "آلين، آلين"...

وكونزاكيس يستعجل العودة إلى الوطن في حين أن الغريبة لا ترغب في أن تضع قدميها هناك مرَّةً ثانيةْ. ربما تكون قد قتلتْ أحداً في بلدها. فباريس، وإن كانت باريس، يمكن للبشر فيها أن يكرهوا

بعضهم إلى حَدِّ القتل. يقول المثل إن على المرء، لكي يكره، أن يعرف كيف يُحبَّ؛ والغريبة بلا عاطفةٍ ما خلا حُنُوَّها على نور. الغريبة شَعْراء القلب.

وسواءٌ كانت قاتلةً أم لم تكن فهي تحترمني، في حين أن كونزاكيس، لأنه لا يبصق عليَّ بعد أن يركبني، يُنفِّس عن نفسه بأن يُشبع الأثاث والمكتب والكرسيَّ ركلاً. عجيبٌ أن يطالبني بأن أُديرَ له ظهري وهو يقضي وطره مني كما لو كنّا غاضبَيْن أحدُنا من الآخر.

"هل أستطيع أن أطرح سؤالاً عليكِ؟" سألتُ الغريبةَ هذا الصباح عندما كانت توزِّع الخضار المجففة والطحين والأَرزَّ في أكياسٍ قبل أن تنطلق إلى بيت نور.

– أجيبُ إن كنت أعرف الجواب، قالت بعد تفكير.

– هل يمارس الرجال الباريسيون الحُبَّ دُبُراً لِدُبُرٍ كديكٍ ودجاجةٍ أم كالبغايا من قُدَّام؟

تهيَّأ لي أنها ستضربني؛ فقد ارتسمت التكشيرة على وجهها غير أن يديها كانتا مشغولتين بربط الأكياس، ما شجعني على طرح سؤالٍ إضافيٍّ رغم أني أعرف الجواب؛ لمجرد الحديث معها، وأن يتهيَّأ لي أنّ لي صديقة.

"والأشجار؟ كيف تفعل الأشجار، أيتها الغريبة، كي تنجب أطفالاً؟ لم أشاهد أبداً نخلةً تتسلق نخلةً أخرى."

كانت تُمسك نفسها عن الضحك، وسَبَّابتُها المُثَبَّتَةُ على صِدْغها تقول إني مجنونة.

"من المؤكَّد أنَّ الأشجار تثب بعضُها على بعضٍ"، ذاك ما عرفْتُه

من نور العالمة بهذه الأمور منذ أن خَبِرَتْ بنفسها النَّزْوَ، خَبِرَتْهُ أربع مرات على الأقلّ. فقد وضعتْ ثلاثَةَ عاقّين سيُضاف إليهم رابعٌ إذا ما تُرِك لها الوقت الذي تبيضه فيه. "إنّ الأشجار تفعل ذلك ليلاً عندما ينام البشر. ووقتها المفضل هو عند هبوب الخماسين حين لا يتطلّع أحدٌ إلى الخارج."

نور لا تتصوّر الحبَّ إلا من خلال ريح "الخماسين".

الفصل الخامس

الهواء يضوع بالمطر منذ الصباح غير أنَّ السماء تحبس ماءها.

وسكان "خوف" يحدِّقون في الغيوم التي تهزأ بهم راسمةً أرنباً هنا وخروفاً هناك أو بقرةً بعينٍ واحدة.

"ساقا الشيطان من بردٍ وجفافْ"، يقول المثل.

تُقلِّدينهم وتتصفحين السماء من خلال نافذتكْ. ترفع أمينة قامتها إلى أعلى السور لتومئ إليكِ أن تلحقيها إلى الخارج. إنها تحمل لك مفاجأة.

أتُراه القَوَامُ المرصوصُ في إزارٍ أسود هو المفاجأة الموعودة؟

تعرفين نوراً من بريق عينيها الخضراوين. وأمينة هي صاحبة الفكرة في إخراجها من بيتها؛ هي الممنوعة من التنقل. وأمينة صاحبة الفكرة في أن تتخفَّى الخاطئةُ بزيٍّ ساحرات "سالم". تبتهج الاثنتان لفزعِكْ، وتواريان ضحكهما براحتي كفيهما. لا داعي للقلق أيتها الغريبة، فهما ستعودان ولن تتغيَّبا إلاّ ما تتطلّبه من وقتِ زيارةُ بئر "السِّت زينب"، الأكثرِ استجابةً للدعاء بين وليّات الله، والوحيدةَ القادرة على أن تُحوِّل الإناث في بطون أمهاتهن إلى ذكور. وبما أنّ نوراً تَريد صبيّاً مهما كلَّف الأمر...

ها أنتِ ذي تُذكِّرينها بأنها كانت تريد أن تتخلّص من الجنين؛ أنه

لم يمضِ على ذلك شهرٌ؛ أنَّ لديها ثلاثة صبيان، ثلاثة عاقّين بلا قلوب، نَسَوها. ولكنها توقفكِ بإيماءة من يدها.

– مَنْ قال لكِ إنَّ الرابع لن يكونَ هو الخيِّر؟ عاقُّون بلا قلب، وصِبيانٌ بالرغم من ذلك، تُضيف نور بغلواء الأم التي تفخر بكونها لم تنجب إلاّ الذكور.

– وماذا إذا عرف الشيخ أو مُحا بخروجِك؟

– الشيخ أعور لا يبصر إلا من جانبٍ واحد. أما مُحا فيرزح تحت ضغط العمل حالياً ولا وقت لديه لمراقبتها. إنه سيفتح "كازينو". قرارُه حكيمٌ، فهو سيبدأ أخيراً بكسب المال بعد أن كان يُبدِّدُهُ طوال الوقت.

من الصعب أن تتخيلي "كازينو" على مشارف الصحراء كما في "لاس فيغاس". وتُعوزكِ الحججُ فتتعللين بمطرٍ قد يجيء فجأةً، فإن لم ينزل المطر فبئر الوليَّة التي ربما تكون قد نضبت من جراء الجفاف.

إنما الأعمال بالنيات، تردُّ عليك المرأتان في استياء.

وتُبيِّن لكِ أمينة أنهما لم تجيئا طلباً للنصح بل طلباً للمساعدة؛ فأنتِ الوحيدة القادرة على مرافقتهما إلى مزار الوليَّة. والدكتور بول لن يمانع في أن يعهد إليكِ بسيارته التي سينتهي بها الأمر إلى أن تتحوَّل إلى قفصٍ للدجاج لفرط ما بقيتْ من دون استخدام.

– لكنني لا أعرف السياقة.

– ربَّما لا تعرفين ذلك في باريس، أما في الصحراء فلا. تشرحُ لكِ المرأتان. فحتى الحمير تعرف كيف تتدبَّر أمرها فيها بأربعة دواليب.

مَنْ يصغي إليهما يعتقد أنْ ليس على المرء إلا أن يُدير المفتاح في

الاتجاه الصحيح ثم يضغط فتنطلق السيارة وحدها، ولن يستطيع حتى الرسولُ أن يوقفها.

- ...إلى أن تصل إلى الصين، تُوضِّح نور.

وتضيف أمينة، وهي ترى الحرج مرتسماً على وجهكِ، أن لا داعي للذعر؛ فالسيارة أخت الحمار وابنة عمِّ البغل؛ وهي لذلك تعرف كل الطرق، المُسفلتة منها وغير المُسفلتة، وما علينا إلا أن نوليها ثقتنا لكي تعود وحدها إلى مرآبها كما يعود الحصان إلى الاصطبل.

تَهُزِّين رأسكِ، وتستمرِّين في ذلك بعد أن أدرتِ لهما ظهركِ؛ فهما تُتعبانكْ.

تتسلَّق أمينة النافذة لترميكِ بخيبة أملها. لقد كانت على خطأ. ظنَّت أنكِ طيِّبة القلب؛ إلا أنكِ في نهاية الأمر مجرَّد رأسٍ، مثْلُكِ مثْلُ كلِّ الذين يأتون من هناك. وتُكَلِّفكِ بإبلاغ الدكتور بول بغيابها، وأن اليوم سيكون يوم عطلةٍ لها. فأمينة سترافق امرأةً حاملاً في حجِّها، وهذا واجبٌ على كل مسلمٍ جديرٍ بهذا الاسم.

صديقتاكِ متقلِّبتان مثل ريح "الخماسين" التي تهبُّ من حيث لا يُنْتَظر. فمنذ أقلَّ من شهرٍ كانت نور تريد أن تُجهض نفسها بواسطة إبرةٍ لحياكة الصوف، وكانت أمينة تُحمِّل نوراً كلَّ خطايا العالم ودناءاته. وها هما تُطري إحداهما الأخرى، ويتَّسع تسامُحُهما ليشمل حتى مُحَا. فيصبح الأبُ السيئ الذي ما فتئ يُبدِّد ماله، في روايةٍ جديدة، رجلَ أعمالٍ حاذقاً وعريساً مرغوباً تحلم بالزواج منه كل صبايا "خوفً". لقد صرخت الاثنتان بكل ذلك في أذنكِ قبل أن تتواريا بعيداً عن ناظريكِ

متجهتين وجهة الصحراء، ترفلان في عباءتيهما اللتين تكنسان الأرض خلفهما، وتُلوّحان بأيديهما دون أن تلتفت أيٌّ منهما إلى الوراء.

تابعتِهما بالنظر. كانت أمينة تسند نوراً، وكانت نور تتكئ على أمينة. عندما أغلقتِ النافذة لم يبقَ من الاثنتين سوى نقطتين سوداوين على خلفيةٍ مَغْراء.

تلتحقين بزملائكِ في المخزن. تُزوِّدينهم بأسماء المنتفعين من المساعدة الغذائية الذين يتوزَّعون إلى محمد وحمودي وأحمد وحسن وحسين وحسون، ثم منتفعٍ باسم روبير تتفاجئين بوجوده بين أبناء البلد هؤلاء. أهو فرنسيٌّ يعيش في خصاصةٍ؟ تسألين المسؤولين، ثم العمال. السيد روبير، حسب قولهم، هو المهندس المسؤول عن بناء السدِّ الذي يقع على مسافة خمسين كيلومتراً إلى الوراء من "خوف". وهو يأتي كلَّ يوم سبتٍ، في المساء غالباً، ليتسلَّم أكياس الطحين والأَرُزّ والسُكَّرِ التي يحتاجها لمطبخ عماله.

إنه يأتي من الجهة الأخرى من الجبل، على متن سيارة "جيب"، ويُضيفون للإيضاح أنها الوحيدة في المنطقة.

تعود بكِ الذاكرة إلى كلمات نور في ما يشبه الدُوَارَ الشديد.

"هو غريبٌ عنا. عرفتُ ذلك من رائحته. رجالنا تضوع منهم رائحة الرمل المحروق ورائحة النار التي خمدت. ربما كان ذلك بسبب منجم الفوسفور الذي ظلُّوا يحفرونه على مدى السنين. فعندما نفِد المخزون، وعادت الشركة التي كانت تستثمر المنجم إلى أمريكا، بقيت رائحة الفوسفور تسري تحت بَشَرَتِهم. تلتصق بأجسادهم. عَرَقُهُمْ، دمُهم، بولُهم، كلُّ ذلك تفوح منه رائحة أعواد الكبريت. هو غريبٌ عنا، فرجال

السهل لا أحد منهم ميسورٌ بما يسمح له بامتلاك سيارة "جيب"".

كانت نور قد أشارت لكِ بإصبعها إلى موقع المنجم القديم على السفح الشمالي للجبل. أخدودٌ ثُمَّ متاهاتٌ تحت الأرض حيث الشيطان يُنظِّم السير كما قيل لها. هو وحده مَنْ كان يقرر أيَّ الأمكنة سيكون للهدم، وحده مَنْ يوزِّع العمال بين ناقلين وحمّالين وحفارين، ووحده مَنْ يقرر متى يجب التوقف عن العمل قبل أن يحدث انهيارٌ في الأرض.

"للشيطان، في نورٍ، حليفٌ إضافيٌّ"، قلتِ في نفسكْ.

ينتزعكِ من أفكاركِ صوتُ محرِّك. تتوقف سيارة "جيب" أمام باب المخزن مثيرةً غباراً كثيفاً. الرجلُ الذي ينزل منها حسنُ المظهر، في الخمسين من العمر، أنيقٌ، يرتدي سترةً من نوع جيِّد، من قماش الـ"تويد"، شَعْرُهُ بلون الزرقة الفضية لعينيه. تُهرعينَ جاهزةً لمواجهته؛ للصراخ في وجهه أنّ امرأةً من البلد تُواجه خطر الموت بسببه؛ أنه اغتصبها عندما كانت تهيم على وجهها بحثاً عن قطٍّ؛ أنَّ من واجبه أن يُبلِّغ عن نفسه.

بينما قطعتِ الممرَّ المؤدي إلى المخزن كان الرجل قد اختفى. تحزمين خطابكِ فيما أنتِ تشاهدين السيارة تبتعد بسرعة كما لو أنّ أبالسة الجحيم كلَّها تُطاردها. السيِّد المهندس لم يَحْتَجْ إلّا لدقيقتين ليستلم الأكياس المخصصة له.

"هيه، يا أنتَ!" تصرخين باتجاهه. "روبيرا"، كما لو كنتما تعرفان أحدكما الآخر منذ زمنٍ طويل. "قفْ، هلا وقفتْ!"

تستمرين في مناداته حتى بعد أن انقشع الغبار واستحوذ المساء على المشهد.

الفصل السادس

أُضيئتْ مصابيحُ "خوف" واحداً تلو الآخر، ووحده مصباحُ نور بقي مُطفأً. واستُقبل المطرُ بالزغاريد وبدقّات طبلٍ مبحوح، فهو الأول منذ شهور. كان يُفترض أن يُعيد الطقسُ السيِّئُ نوراً وأمينة إلى الدَوّار. أنتِ وحدكِ يعتريكِ القلق عليهما. ترقبين عودتهما حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل وكلُّك خوفٌ من الأخاديد التي يمكن أن تبتلعهما، ومن الذئاب الجائعة التي تنتظر أيام البرد الأولى لتتدافع باتجاه القرى. يُهدِّئ كونزاكيس، الطبيبُ المتدربُ الشابُّ الذي وظّفه الدكتور بول، من روعك على طريقته الساخرة، ويشرح لك أن البشر لا يتبخرون مثل غدران الماء في وهج الشمس، وأن الأمر ينتهي دوماً إلى العثور عليهم ولو كان ذلك على شكل عظام.

تتمالكين نفسكِ كي لا تصفعيه. أمينة مُحِقّةٌ في وصفها للغربيين بأنهم بلا قلب. كنتِ على أهبة النوم عندما شرع بصيصٌ من الضوء يرتعش عبر ورقتين من أوراق شجرة الصَبّار التي لنور. تركضين، تتخبطين في الغدران، تستنشقين ملء منخريكِ رائحة الفلفل الأسود والملح التي تضوع من النخيل. عندما تصلين قبالة السياج تنادينها،

ثم تندفعين إلى الداخل. لا يبدو لناظرِك من نور سوى قدم تَخَطَّتْ ما تحت الغطاء. تجلسين القرفصاء بجانب الفراش وتُحدِّثينها عن رجل سيارة "الجيب"، وأنَّك تعرفين أين تجدينه، وتُحدِّثك عن الموت الذي يأخذها. تريد نور دثاراً إضافياً، كما تريد منكِ أن تُغلقي المنافذ بالحجارة، وأن تدفنيها حيَّة.

تُفتشين المكان بحثاً عن دثار فلا تجدين سوى سجادة بالية، واحدة من الأشياء النادرة التي تركها مُحا. تشكو نور من البردً في حين أنها تقطر عرقاً، وتريد منكِ أن تُصغي إليها في حين أنك لا تفهمين إلا كلمةً من اثنتين مما تقوله. لا شيء يدعو للابتهاج في رأيها، إذ لا بد أن يكون صاحبُ سيارة "الجيب" قد استحمَّ أكثر من مرة منذ أن "ركبها" فامَّحى بذلك كلُّ أثرٍ لمروره بأحشائها. وهي تنصحكِ بأن تنسي، وتقتنعي بأنه لم يغتصبها؛ أنه ربَّما أحبَّها، وإلا لكانت صرختْ وجمعتْ عليه كل الدَّوَار. تريد نور منكِ أن تُركِّزي كل جهودكِ على الطفل، أن تَتَبَنَّيْه بعد موتها، وبشكلٍ خاصٍّ أن تُخفيه عن مُحا الذي في وسعه أن يُغرقه كما كان يفعل بالقطط التي كانت تُؤْويها.

"خذيه أيتها الغريبة. قولي إنه نزل من أحشائك. واحمليه إلى بلدكِ، وليْصبحْ فرنسوياً مثلك، ومثل الدكتور بول".

لا جدوى من محاولة إقناعها بأنه لن يكون هنالك طفلٌ إن هي ماتت الآن، وأن طفلها سيموت معها، فهي تُصرُّ على أنها تريد أن تتركه لكِ.

تُمسِّدين كتفيها وقدميها، وأنتِ جالسةٌ القرفصاء على الأرض الباردة، تجعلينها تبتلع حَبَّتَيْ أسبيرين، ثم تُشعلين النار من جديدٍ في

الموقد مستعملةً عودَ خشبٍ؛ الآخِرَ والأخيرْ.

تُقبِّلُ يديكِ بحرارة. تقول إنها خجلى من نفسها لأنها لم تُصغِ إليكِ. ما كانَ يجب أن تتبع أمينةَ التي اتَّخذت القرار عنها ودونَ أن تستشيرها. "السِّت زينب" لم تجئ إلى الموعد. بئرها الجافة تقول ذلك. لا بدَّ أن "السِّت زينب" كانت في مكانٍ آخر، عند بئرٍ أخرى.

تتوارى نور تحت السجَّادة وقد أنهكها ما بذلته من جهدٍ بعد أن أَخْبَرَتْكِ بأنها ستضع مولوداً ذكراً.

"صبيٌّ، أيتها الغريبة، لا بدَّ أن "السِّت زينب" قد استجابتْ لدعواتي."

الفصل السابع

- أنتِ التي أَدْخَلْتِ في بال نور أنها ستضع صبيًّا؟ تسألِينَ أمينة.

- معاذ الله! مَنْ أكون أنا كي أجروءُ على استباق الأحداث التي قدَّرها الخالق؟ لقد تَكلَّم الحجرُ؛ حجرٌ من بين أحجارٍ أخرى كانت بقرب بئر "السِّت زينب". رَفَعَتْهُ نور فرأتْ ضَبًّا. وكانت رأت نملاً لو أنَّ المولود أنثى.

- أتعرفين أنها مريضةٌ؟ مريضةٌ جداً؟

- سوف تتعافى، قاطَعَتْكِ بشكلٍ جافٍّ.

- سعلتْ طوال الليل، كادت تختنق من السعال. سوف أطلب من الدكتور بول أن يذهب لزيارتها.

- تُريدين منها أن تخلع ثيابَها أمام رجلٍ؟ ورجلٍ غريبٍ فوق ذلك؟ قالت وهي تُدير لك ظهرها.

تُجبرينها على أن تنظر إليك وجهاً لوجه، تَهُزِّينها، تتهمينها بأنها جَرَّتْ نوراً إلى مغامرةٍ مجنونة، وأنها تَسبَّبتْ في مرضها. تتركك تَهُزِّين، ولا تفعل شيئاً لكي تخلِّص نفسها. تبقى ساكنةً في مواجهة غضبك المستشيط، لا يتحرك فيها شيءٌ سوى دموعها التي بحجم

بيض الحمام. هل ألقتْ أمينةُ بنفسها على صدركِ لتخبطه بقبضتَيْن أفلتتا من العُقال؟ أم لتعانقَكِ؟

تبكيان كلتاكُما؛ الواحدة بين ذراعي الأخرى. "أنتِ أختي"، تُكرِّرُ أمينة بين شهقتين

- "أنتِ أختي"، تقولين في ما يشبه الصدى.

الدكتور بول الذي تابع حديثكما مصابٌ بالدهشة جَرَّاء هذا التغيير، وينصحكما بأن تحتفظا بدموعكما لنبات الذُّرة الذي ما فتئ يجفُّ يوماً بعد يوم. الكيس الذي ناولكِ إياه يحتوي على أدويةٍ خافضة للحرارة ومضادٍّ حيويٍّ وشرابٍ لمعالجة السعال وحَبَّتَيْ موز. لم تنتظري أن يطلع النهار كي تذهبي إلى منزلها. تقطعين الدَوَّار، والخوفُ يعتصر أحشاءك. فالليلةُ لا مثيل لحلكتها، والجدران تُرَصُّ إلى بعضها كلما اقتربتِ منها، ونباح الكلاب لا يستهدف غيركِ، فهي تعرف من رائحتكِ أنك غريبةٌ. أما الساحة فما زالت شبيهةً بساحة معركة؛ فالشاشة الموحلة ملقاةٌ على الأرض ولم يلملم أحدٌ حطام جهاز العرض. عندما وصلتِ قبالة كوخ نور صاحتْ بكِ أمينة التي سلكت طريقاً جانبياً لتسبقَكِ أنَّ نوراً ليست في فراشها، وليست مقابل الموقد حيث اعتادت أن تتكوَّر أمام النار. هل اختطفها أحدهم، أو قتلها ليُثبت لكِ أنّ جهودكِ لإنقاذها من الفتوى لن توصل إلى نتيجة؟ يقودكما سعالٌ جافٌّ إلى المَخزن. لقد تدبَّرتْ لنفسها فراشاً هناك إلى جانب المِعْزاة التي يمكن أن تمنحها بعض الدفء، وسوف تعود إلى كوخها عندما ينحسر البرد. لا بدّ أنها تعتقد أن لديها سَكَنين، كما يشي بذلك الزهوُ بالنفس البادي على مُحَيَّاها. تُساعدينها على

غسل وجهها وأطرافها، وتُغيِّرين لها أغطيتها فيما تُعدُّ لها أمينة شراباً ساخناً من أعشابٍ تُلقي بها في الماء المغلي، مضافاً إليها تعاويذُ وأدعيةٌ موجهةٌ إلى الشيطان كي ينسحب من تحت بشرة نور؛ إلى الشيطان فقط، إذ يبدو أنّ الله ليس له ما يقوله في هذا الموضوع.

بعد أن نامت نور، تبادلتما الحديث أنتِ وأمينة بصوتٍ خفيضٍ خشية إيقاظها. نصحتْكِ بالذهاب إلى المدينة، وأن تُكلِّمي أعيان القوم في الجمهورية من أجل إنقاذ نور.

– انْسَي الشيخَ والقاضي، وانْسَيْ مُحا الذي لا وزن له؛ فهو لا يساوي أكثر من جناح جرادة. والدَّوَّار لا يوجد فيه مَنْ هو مستعدٌّ لأن يصغي إليك، وكل يوم يجيء يحمل معه لكِ، أنتِ المرأة والمسيحية، عدوّاً إضافيّاً. فالرجالُ يتّهمونك بتحريض نسائهم على الثورة ضد الشريعة. ورأسُكِ السافر استفزازٌ لهم، إذ لا فرق بين شَعْر الرأس وشعر العانةْ. إن الريبة تُساورهم في كونكِ تستعملين نوراً كحلٍّ لمشكلتك. فقد طلّقكِ رجلٌ، ونور هي سلاحُكِ ضدَّ القدر الذي أذلَّكِ وإلا لما قطعتِ كل هذه الأراضي والبحار لتدفني نفسَكِ في هذه القرية التي نسيها الله وأنبياؤه.

تُحذِّركِ أمينة من كل الذين تحتكين بهم، حتى من النخيل. فرجال "خوف" خُرسٌ كالصحراء، قساةٌ كالمنجم الذي لم يَعُدْ يستجيب لمعازقهم.

أديري وجهكِ نحو المدينة، قولي إنك صحفيةٌ أجنبيةٌ، وستُفتح أمامكِ كلُّ الأبواب. اطلبي مقابلة وزير "النهي عن المنكر"، ثم الإمام

"حامي حمى الفضيلة". قولي لهما إن نظر الغرب مسلَّطٌ عليهما، وستُمحى فتوى قاضي "خوف" وشيخها كبعرة جمل. غادري غداً، فحافلة عبده تنطلق دوماً في الموعد، وعبده هو الوحيد الذي يتنقل يومياً بين الصحراء والمدينة. وهي مسافة خمس ساعات ثم تكونين في عالم آخر، في القرن العشرين حيث السيارات والدرَّاجات والقطار، ولا أثر لحمارٍ أو بغل. اذهبي مباشرةً إلى "بيت الأرملة واليتيم"، فاللواتي يَقُمْنَ على إدارته يعرفن كل أعيان الجمهورية، وأياديهن بطول أغصان "الإكي دنيا".

الفصل الثامن

تشكُّ نور في أن يقبل المُلاَّ أو الوزير النظر في حالتها.

هي لا وجود لها بالنسبة لهما، فهما لا يعرفانها و لم يلتقياها و لم يشاهدا لها صورةً قطُّ، لأنّ ما من أحدٍ أخذ لها صورةً أبداً، وهي لا تملك حتى بطاقة هوية.

"إنهما شخصان مُهمّان بأهمية أبطال كرة القدم، وبخاصّة المُلاَّ الذي حجَّ إلى مكّة مشياً على الأقدام. سيكون لموتي ثقلُ ثلاث حبات فول؛ فقرار العفو يحتاج إلى طولِ تفكير. ومن الأفضل التَحَلّي بالعقل والمطالبةُ بأن تُؤجَّل عملية الرجم إلى ما بعد ولادة الطفل الذي لم يقترف أي ذنب. إنه يريد أن يحيا، وهو يتشبث بالحياة بكل ما أوتي من قوة. فإبرة الحياكة لم تُفِذْ في شيءٍ سوى أنها جعلتني أنزف ملء كشتبان".

يجول نظرُها في كوخها. ترفع يدُها الغطاء عن قطعة الأثاث الوحيدة التي تملكها. أصندوقٌ هو أم خزينة؟ وتسحب وشاحاً من الحرير ثمَّ تنفضه وتُغطي به كتفيكِ. إنه وشاحُ زفافها، وهي لم تلبسه إلا في يوم عرسها. الْبَسيهِ في المدينة حيث النساء يظهرن في حللٍ

فاخرة. وتشرح لكِ وهي تشاهد تَرَدُّدَكِ أنه هديةٌ من والد مُحا؛ فهو مَنْ كانت ستتزوجه، وقد غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة، فتخلّى عنها لابنه الذي لا يُحبُّ شيئاً سوى العرق والقمار، وفي الآونة الأخيرة ابنةَ أخيها؛ ولكنَّ تلك قصةٌ أخرى.

- ولَمَ لم يتخلَّ عنكِ لعَمِّه أو لجدِّه؟

كانَ صوتُكِ يُرعد غضباً.

- مُحا وحده الذي قبل بي، لقد كانَ في حالة سُكْر. وفي حالته تلك كان جاهزاً لأن يتزوج أيّاً كانت. إن الفتاة التي لا يَمْهَرها أبواها بمال هي كمثل حديقةٍ بلا أزهار. ولم أكن أملك إلا الفستان الذي كنتُ ألبسه.

تدور نور حولكِ وهي تنظر إليكِ بإعجابٍ بعد أن لفَّعَتْكِ بوشاحها، وشعورُها أنها تنظر إلى نفسها في المرآة. غير أن فرحها كان أقصر من شعاع من الشمس بين سحابتين؛ فقد بدا القلقُ من جديدٍ على وجهها الصغير النحيل وفي عينيها الواسعتين الخضراوين.

تسألكِ كيف ستتدبّرين الأمر لكي يتأجّل رَجْمُها.

- سوف أُحتجُّ بأنّه كان هناك ثمّة اغتصابٌ، وأن الغريب أخذكِ عنوةً، وأنكِ صرختِ، غير أنه لم يسمعكِ أحدٌ بسبب ريح "الخماسين"، بل كنتِ تُصارعين لكي تُفْلتي منه، لكنه شلَّ حركتكِ، وثبّتَكِ تحته، ومزق ثيابكِ.

اصطبغت عيناها بالأسود من شدة الغضب.

- لَمَ الكذب؟ وهل يتغير شيءٌ إذا قلتِ إنني كنتُ راضية؟ فالمغتصِب يفعل فعلته ثم يهرب مثل اللص. أما هو فقد عاود الكرَّة

ثلاثاً متتاليةً. لقد كان بادياً أني أروق له، أنه يجدني لذيذةً مثل حَمَلٍ مطبوخ في عصارته، مثل فرخ دجاج تَغَذَّى على الحبوب، مثل...

أعْوَزَتْها الأمثلةُ وخنق الغضبُ أنفاسَها، فانفجرت بالبكاء بعد أن انقطعت عن تعداد التشابيه لافتقارها إلى المزيد منها.

شرحتْ لك بين شهقتين أنَّ الرجل كان رقيقاً معها وحنوناً، أنه كان حريصاً على لَذّتها وسخيًّاً بالمداعبات، أنه حفر فيها بذَكَرِه وأصابعه، أنها كانت تفيض بما فيها، أن أحشاءها صارت مسبحاً وجدولاً. قَوْلُكِ أنه لم يخترقها سوى مرةٍ واحدةٍ أسوأُ من كذبة. إنه صفعة. وستسخر منها نساء الدَوَّار، وستنشر الأفَّاكاتُ منهن الإشاعات. سيقُلن إن جزَّتها شعثاء، وإن فروتها بكثافة فروة حمارٍ أشبعه صاحبُه ضرباً.

الفصل التاسع

عجيبٌ أمرُ الغريبة التي تدفن نفسها في هذه الحفرة التي يعبر فوقها الجراد؛ حتى الجرادُ، مغمضَ العينين كي لا يشاهد قبحها. إنّ فَقْدَ حبيبٍ وقطٍ غير كافٍ ليتدحرج المرء إلى ما وراء العالم. ما كان عليها إلا أنْ تُعلِّق شيئاً من صوف حزامها على شجرةٍ في مزارٍ حتى يرتمي رجلٌ وقطٌّ على قدميها؛ رجلٌ متزوجٌ أدنى من ذلك الآخر، وقطٌّ أقلّ عرضةً للموت. غير أنها من ذاك النوع من عديمي الصبر الذين يريدون كل شيءٍ حالاً، وإلا فلا. ولكي تعاقب نفسها اختارت "خوف". أما نحن فعِصِيٌّ تجلد بها نفسها. إنها تملأ حياتها بفُتاتِ حيواتٍ أخرى، وحياة نورٍ على وجه الخصوص. فهي بعد أن تُنهي عملها في المركز كيفما اتفق، تنطلق مسرعةً باتجاه شجرة الصَبّار لتقول لنور بالفم الملآن إنها ما دامت على قيد الحياة فلن يمسّ أحدٌ شعرةً منها. ولقد أخذتْ حتى نصائحي على محمل الجِدّ في حين أني كنت أتكلم لمجرد الكلام، فقرّرتْ أن تذهب إلى المدينة لتقابل الوزير والمُلّا اللذين لم يسمعا قَطُّ بنور التي لا يعرفها أحدٌ خارج الدَوّار. ماذا تزن نور مقابل سيارةٍ بأربعة دواليب، وعربأتنا ليس لها إلا اثنان، أومقابل الترامواي

الذي يتقدَّم على خطٍّ مستقيم، وحميرُنا تترجل مثل السكارى؟ بعد أن تُرجَمَ نور، كما تريد لها الحجارةُ المُكوَّمةُ في الساحة، سينطوي ذكرها، مثل الأزهار التي تنبت في السنة مرةً، بعد أول مطرٍ ينزل على الصحراء، لكي تختفي في الغد، بلا أثرٍ لعبورها، ولا حتى بَتْلةٍ ذابلة. إنّ نوراً ستؤول إلى ما يؤول إليه العوسج.

ليس العوسج إلّا السراب؛ ذلك ما تجزم به جليلة العجوز التي تعتقد أنها تعرف كل شيء، هي التي تجهل، في الصباح، على أيِّ حجرٍ ستضع رأسها عند مجيء الليل. فبعد موت نور ستتفتت جدرانُ كوخها بسبب غياب اليدين اللتين تُصلحان الشقوق فيها، ولن يبقى من نور إلا مزقٌ من فستانها معلَّقةٌ على سياج الكوخ.

ونورُ، ميتةً ومدفونةً على عمق ثلاثة أمتار في التراب، ستستمرُّ في مناداة زاهي وزين وزاد حتى يجيئوا لتناول ما لم تُعِدَّ لهم من طعام لافتقارها لذراعين تطبخان الأرُزَّ ونَفَسٍ يُسَعِّرُ النار تحت القِدْر.

لقد طلبتْ مني أمس أن أجيئها بثلاثِ خصلاتٍ من شعرهم لتلُفَّها مع التعويذة التي تضعها حول عنقها. ولما كان الدكتور بول قد أعلن الحرب على القمل، وأعطى أوامره للحَجّام بأن يَجُزَّ كلَّ شعر الأطفال، فإنه لن يكون عليَّ إلا أن ألملم، وسيُثيبني الله على ذلك في اليوم الآخر. وقد تمَّ الأمر كما أراده، وحدهنَّ الأمهاتُ كنَّ غير راضيات إذ إنهن يُفضِّلْن طريقتهن الخاصة. فهن يجتثثن الحشرات، فيما رأس الطفل موضوعٌ على ركبهن، ويفعسْنها بين السبَّابة والإبهام، ثم يرمين بها في الهواء لتطير ويتهافت عليها الكلاب. عندما شاهدني أختلس

الخصلات غمزني الطبيبُ غمزةً متواطئةً؛ فالقلادة التي يضعها حول عنقه تحتوي على خصلة شعرٍ أشقر. خمسٌ وعشرون سنةً مرَّتْ على جثة الطفلة التي لفظها البحر، وهو ما يزال يعتقد أنه كان بمقدورها أن تسبق المدَّ، وأن تجتاز عتبة البيت المفتوح على البحر، وأن تعيش حياتها. إنه، عندما أصبح السكنُ قبالة الأمواج التي قتلتْ طفلته لا يطاق، عندها تَطَوَّعَ طبيبُ القرية البريتونية للخدمة مع منظمة الغوث الإنسانية مفضِّلاً المناطق الداخلية حيث يسود الجفاف، لأن الماء بكل أشكاله ارتبط إلى الأبد بالفستان الأصفر المبلَّل الذي يمكن لِمَنْ يراه من بعيدٍ أن يخلط بينه وبين بقعةٍ من الشمس تعكسها نوافذ المنزل الزجاجية. وهو، وقد أصبح عجوزاً، وحلَّتْ ساعة التقاعد بالنسبة إليه، يُؤجِّل موعد العودة إلى بلده حيث تنتظره زوجته. لقد كتب لها منذ وقتٍ قريبٍ "سأعود عندما أُحِسُّ فيَّ القوَّة الكافية لألوي عنق البحر". ولكنه، بسبب تخاذل قواه مع مرور الزمن، قرَّر أن يتعقَّل. سيُغلقُ الباب المطلَّ على البحر، سيفتح باباً في الجهة الخلفية يدير ظهره للأفق.

إن مثول الغريبة أمام المُلاَّ والوزير، وتَبادُلَ الحديث معهما كما لو أنهما ينتميان إلى نفس عالمها، أشبهُ بإلقاء المرء بنفسه بين فكي الذئب. ثمّ ماذا يمنع الغريبة، بعد أن تملأ ناظريها بمرأى كبيرَي الجمهورية، أن تطرق على باب الله كي ينقذ نوراً من الرجم؟

يُخامرني الشكُّ أحياناً في أن نوراً لا تعنيها بقدر ما يعنيها طفل نور. إنها تريد البيضة لا الدجاجة. فهي ما إن يُولد الطفل، وتُوارى نور تحت الحجارة، حتى تحمله تحت إبطها ومن ثَمّ وداعاً يا "خوف".

ولن يجد أحدٌ مثلبةً في أن يذهب طفلُ الخطيئة إلى بلد الخاطئين.

سيتكلّم طفلُ نور الفرنسية، وسيأكل الأكل الفرنسوي. سيأكل الخنزير إذا كان صبياً، وسيكشف عن شعره وأذنيه إذا كان بنتاً. وستقول الغريبة إنها أنجبته بمفردها من دون مساعدة أي رجلٍ، كما فعلت "السِّت مريم"، "أم عيسى"، منذ ألف وألف سنة. فلْتأخذه ولْنطوِ الموضوع. ليس ذاك السُّقْطُ مَنْ سيمنع الأرض من الدوران، أو يمنع المُلاّ من أن يلبس خُفّاً جديداً، والوزيرَ من أن يُطلِّق امرأته الأولى ليعوِّضها برابعة؛ زوجةٍ رابعةٍ أصغر سنّاً لم يُصِبْها الحَمْلُ بالبلى. "فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا..."، أربعُ زوجاتٍ إذا عدلتم بينهن، يقول القرآن. لقد حلمتُ أمس أنّ الحجارة المكوَّمة في الساحة كانت تطير مثل عصافير تشرين، متّجهةً جهة الساحل والبحر، إلاّ أن ذلك لم يكن سوى حلم؛ فقد وجدت في ما بعد الحجارة في مكانها المعتاد وقد أُضيفتْ إليها أخرى أكبرُ حجماً تستطيع أن تَشُجّ الرأس من الضربة الأولى. وبكيتُ دون أن أعرف للأمر سبباً، ثم قلتُ في نفسي، وأنا أجفف دموعي، إنّ الأحلام لم تُنقذ أحداً قطّ، إنّ الكتابة والقراءة، وإن علمها الذي تعلمته في الكتب ليس هو ما سيجعل من الغريبة أمّاً حقيقية. إذ كيف ستتدبر الأمر لكي تُرضع الطفل في حين أن نهديها جافان مثل قِرْبةٍ بقيت منسيةً تحت الشمس.

وماذا كانت تعرف عن "خوف" قبل أن تطأ قدماها الأرض الحمراء المضرجة بدماء "الخماسين"؟ لا شيء؛ وإلا لما كانت أثقلت

على نفسها بشمسية. تتصوَّرون أنتم هذا الشيء في قريةٍ لا تفعل فيها الغيوم شيئاً إلا العبور وهي ترُمُّ دُبُرَها لتذهب للتبوُّل في غير مكان. لقد بقيتْ منسيةً في زاويةٍ من المخزن، ثم انتهتْ معتليةً كومةً من النفايات غير بعيدٍ عن جليلة التي ظنَّتها قُبَّعةً فاجتازت الدَوّار من طرفه إلى طرفه الآخر، مرفوعة الهامة، وكلُّها ثقةٌ بأنه لا يمكن لِمَنْ يراها إلا أن ينبهر.

إنّ مَنْ يُصغي إليَّ يعتقد مخطئاً أني لا أُكِنُّ أيَّ تقديرٍ للغريبة، أو أنني لا أفيها حَقَّها من الاحترام، أنا التي بي لهفةٌ عارمةٌ لأن أتشبَّه بها؛ أن أضع ساقاً على ساقٍ، أن أُدَخِّنَ سيجارةً، أن أكشف عن شَعْري وأصابع رجليَّ، وبخاصةٍ أصابع رجليَّ الممتلئةَ البيضاءَ؛ بيضاء وممتلئةً على عكس وجهي النحيف الفَحْمِيّ؛ أصابعُ رجليَّ، الشموعُ التي تلتمع في العتمة.

بلى، أُعطي نصف حياتي مقابل أن أكون الغريبة في حياةٍ أخرى، فلا يعود الخجل ينتابني لأني وُلِدتُ امرأةً لها جسد امرأةٍ مزوَّدٌ بثقبٍ إضافيٍّ خاصٍّ بحاجة الرجل الذي يقذف عصارته كمَنْ يبصق، كمَنْ يُراجع، أو لأنه يستعملني كقفازٍ لإصبعه الرئيسة، كجعبةٍ لنايه، هو الذي لا يجيد العزف على الناي، وليست الموسيقى بالنسبة إليه إلا أصواتاً شبيهةً ببقية الأصوات.

إنها موظفةٌ، يقول عنها كونزاكيس، هو الموظَّفُ أيضاً، مثله في ذلك مثل الدكتور بول وكل الفرانسويين. وكلُّهم يجيدون القراءة والكتابة، والقولُ هذه المرة للغريبة. كيف أشرح لها أن المدرسة في "خوف" لا تستقبل إلاّ الذكور، وأنهم يتعلَّمون فيها قراءة القرآن وكتابة الجمل في حين أن الإناث اللواتي يبقين في بيوتهن يقرأن

النيات، ويصنعن التمائم البيضاء أو السوداء وفقاً للعرض والطلب؛ تمائم لاستعادة الزوج الضالِّ أو لتسليط أذىً من سحرٍ على غريمةٍ لإصابتها، إذا أمكن الأمر، بمرض يُشوِّه وجهها، أو يُميتها، من دون ما لجوء إلى العنف. فالأفضل أن يتمَّ ذلك بنعومة كَمَنْ يطرق باباً مواربًا، وبقلبٍ رحيم، فيسيل دمُها مثلما يسيل ماء الوضوء، مصحوباً بتلاوة الدعوات التي يحفظها كل مؤمنٍ جديرٍ بهذا الاسم.

الغريبة حلمي في اليقظة، حلمٌ يمشي ويأكل وينام. إنها كلُّ ما يستحيل عليَّ أن أكونه. القشعريرة تسري في جلدي عندما أشاهدها تكتب، كما لو أنها تخربش عليه. أوَلا تقول هي عن نفسها أنها تخربش على الورق عندما أسألها عما تفعل؟

أن يُولد المرءُ في شمال العالم أفضلُ بالتأكيد من أن يولد في جنوبه حيث الشمس تحوِّل الدماغ إلى عصيدة كما يقول عبده. فما بالكَ إذا ما وُلِدَ المرء في "خوف" المزروعة في آخر جنوبِ الجنوب؟

الفصل العاشر

الفجر في "خوف" أحمر. الشمس التي تضرب الجبل بأشعتها الأولى تصطبغ بلون كبريت المنجم الذي أُغلق منذ عشر سنوات. وهي التي أيقظت أمينة. طَرْقاتٌ ثلاثٌ على بابكِ، شبيهةٌ بتلك التي تصدر عن نَقَّار الخشب وهو ينقر لحاء الشجر؛ ذاك لأنها قررتْ أن تُرافقكِ إلى موقف الحافلة، وأن تُقنعكِ بأن تتوجهي إلى مكتب "بيت الأرملة واليتيم" حال وصولكِ إلى المدينة.

"بيت الأرملة واليتيم" يقع في قلب المدينة؛ في الساحة المركزية منها. وهؤلاء النسوة جاهزاتٌ لأن يُلقين بأنفسهن في النار من أجل مساعدة مثيلاتهن. تُذكّرينها بأن نوراً ليست أرملةً وأن أولادها أبعد ما يكونون عن اليُتم، ولكنها تزيح تحفظاتك بإيماءةٍ من يدها.

إنها كذلك بشكلٍ من الأشكال، أو لنقلْ، على سبيل المبالغة، إنها كذلك. فمنذ الغريبِ ليس ثمة رجلٌ في فراشها، وأولادُها الهائمون على وجوههم أشدُّ يتماً من الأيتام الحقيقيين. أما أن يكون مُحا زوجاً، فخطأٌ فادح. فهو لم يعد يتبوّل حول حيطانها، أو يأكل من قِدرها، أو يَدْفِق في فرجها. إن نوراً أكثر من أرملةٍ لأنها بلا ذكرياتٍ عن حياتها

كامرأةٍ متزوجة. فمُحا الغائب طوال اليوم لم يكن يعود إلى البيت إلا لكي يُرغي ويُزبد بعد ما شربه من عَرَقٍ، ويضرب أولاده، ويتّهم امرأته بأنها سلّطتْ عليه أذىً من السحر، فهو يخسر في القمار منذ أن تزوجها.

لا بدَّ أن تكون أمينة قد شعرتْ بمخاوفكِ كي تبحث في جيبها وتخرج منه شهادة حالةٍ مدنيةٍ باليةٍ نصف ممحوَّةٍ تصلح في رأيها للدفاع عن قضية نور وأيتامها الثلاثة.

لقد سرقتْها من دار البلدية، وهي تعود لأرملةٍ أخرى متوفاةٍ منذ عقدين من السنين. غير أنه لن يخطر ببال أحد أن يتحقَّق من شيء. أما الصورة فلا يُقام لها حسابٌ لأن النساء المُحَجَّبات لهن كلهن نفس الوجه.

- وماذا عن شهادة الوفاة المكتوبة بأحرف واضحة؟

أمينة التي تملك لكل سؤالٍ جواباً تُعلن أنه يكفي أن يتمّ شطبُها.

- وإذا عرف مُحا بالأمر؟ سأقضي بقية حياتي في السجن مع نور.

- ذلك أفضل من الرجم على كل حال، تقول لتطمئنكِ.

ويتناوبُكِ الإعجابُ والقرف.

فالنساء يلجأن إلى كل ما في متناول أدمغتهن من حيلٍ ونصبٍ وتزويرٍ لأنّهن عُزّلٌ أمام قوانين الرجال، ولذلك يبدو لهن كلُّ شيءٍ مفيداً لتحويل الأشياء لصالحهن. تبذل أمينة، التي يعزُّ عليها أن ترى وجهكِ المهموم، ما في وسعها لكي تنفرج أساريرُكِ، فتقول إنّ أحداً لن يعرف بالأمر، وخاصةً مُحا؛ فهو مشغولٌ بالكازينو الذي سيفتحه، ولن يذهب للتفتيش في سجلات دار البلدية. والكازينو الذي لديه

أشبه ما يكون بالقصر؛ الستائر فيه حمراء، والسجاد أحمر، والأضواء حمراء؛ وستُحيي الأجواءَ فيه مغنيةٌ وعازفٌ على العود جيء بهما من المدينة. ويجب بخاصة عدمُ الإصغاء إلى ألسنة السوء التي تصف الكازينو بالماخور، والمغنيةَ بالعاهرة، ومُحا العجوز بالقَوَّاد. فلأول مرةٍ في تاريخ الدَوَّار يحاول شخصٌ أن يُدخل علينا الحداثة. وماذا نفعلُ لنشكره؟ نحن نبصق في وجهه بدلاً من أن نُقَبِّل يديه.

تأخرت الحافلة عن المجيء، فاعتقدت أمينة أنها مُجبرةٌ على ملء انتظاركِ بكلمات تصفُّها صفّاً غير مدركةٍ أنك متعبةٌ؛ وتتكلم دون أن تتوقف أو تنظرٍ إليك. فعيناها تُحدِّقان في الجبل كما لو أن الصخور تُملي عليها جُمَلَها. جبلٌ ليس من الجبال في شيءٍ، أشبه ما يكون بجدارٍ عملاقٍ يقطع "خوف" عن بقية العالم. عندما ظهرت الحافلة على منعطف الطريق قَبَّلَتْكِ ودفعت بفطيرةٍ من الزعتر في جيبكِ مشيرةً إلى أن الزعتر يجعل المرء أكثر ذكاءً. وكانت، وهي تُلوِّح لك بمنديلها، كما لو أنك سترحلين إلى أمريكا، تصيح بملء فمها "سوف تحتاجينها".

الصحراء التي تمضي عبر النافذة تركتْ بصماتها على كل شيءٍ لَمَسَتْه؛ فكلُّ شيءٍ بلون الرمل: النخيلُ المحنيُّ حتى الأرض، وواجهاتُ الأكواخ القليلة المبعثرة على مرِّ الطريق، ووجوه الذين يعرضون زجاجةً من الكوكاكولا أو قُلَّةً من الماء الفاتر أو بضعَ حبات من الجوز. "لقد حوَّل المطرُ الأخير الحُفَرَ إلى أحواض ماء"، تشرح لكِ المراهقةُ وهي تلعب بأساورها لترنَّ حول معصمها النحيل، وتَعُدُّها، ثم تَعُدُّها

من جديد، وتُعطيكِ النتيجة: سبعةٌ مثلُ أيام الأسبوع. إنها جزءٌ من "المُقدَّم". خطيبها ينتظرها في المحطة. وهي لم تتعرف عليه بعد. أما العجوز الجالس بجوار السائق فهو والد الخطيب.

– وماذا إذا لم يعجبكِ؟

– مستحيل.

وترنُّ ضحكتُها وأساورها في نفس الوقت.

– هل تُعيدين إليه أساوره إذا لم يتزوجك؟

– في هذه الحالة سيكون أبوه مجبراً على أن يتزوجني، وأحتفظ أنا بالأساور. فالتي تعود إلى بيت أهلها عذراء لا تجد بعد ذلك أحداً يرغب في الزواج منها.

ويبصق الضفدع في أحشائها.

لم يكفَّ السائق عن التحديق فيكِ عبر المرآة العاكسة، واغتنم الفرصة في أحد المواقف ودسَّ في يدكِ غطاءً للرأس.

"سوف تحتاجينه في مقابلتكِ مع المُلاَّ"، قال لكِ همساً.

لا فائدة من سؤاله عمَّنْ أعلمه بالأمر؛ فـ"خوف" كلُّها تتكلَّم على ذلك. وعبده لا يُشجِّعكِ ولا يُثبِّطُكِ، رغم أنه يستهجن عمليات الرجم. فهو لا رأي له في أي شيءٍ، ولا يَدَّعي أي تأثيرٍ له فيك، غير أنه ينصحكِ بالحذر وبعض مبادئ اللياقة، كالسلام على المُلاَّ بانحناءة للرأس، وألا تحاولي أن تمُدِّي له يدكِ بالسلام، ألا تنظري إليه وجهاً لوجهٍ، وألا تُعارضيه أبداً. شَكَرْتِه ونسيتِ أمره حال نزولكِ من الحافلة.

لم يكن ثمة حاجةٌ للبحث عن "بيت الأرملة واليتيم"، فهو يقع مقابل المحطة. وما من حاجةٌ لأن تَطرقي الباب المفتوح على مصراعيه كي يتّسع لتدفق النساء والأطفال الذين يدخلون إليه أو يخرجون منه. تُهْرَعُ ثلاثٌ لاستقبالكِ والإصغاء إليكِ، أخواتٌ ثلاثٌ يُرعبهن ما تنوين فعله.

– مستحيل. كنَّ يُردِّدن بصوتٍ واحد. سيرمي بكِ حراس المُلاَّ إلى الخارج، وسيضربونك إذا أصررتِ. إن وزير الأمر بالمعروف لا يقابل النساء ما خلا زوجاته، وربما حدث له أن استقبل واحدةً، إلا أنها كانت بصحبة رجل. أما أنتِ، فوحدكِ: لا زوج لك، ولا أب، ولا أخ؛ وحيدةٌ مثل نخلةٍ في قلب الصحراء.

– اللهمَّ إلا إذا لجأتْ إلى عبده. اقترحتْ كبرى الأخوات.

– زواجُ متعة، مدفوعٌ مسبقاً، مقابل مدة الزيارة، ثم يذهب كلٌّ في سبيله. وضّحت الأخت الثانية.

– ومَنْ يكون عبده؟ سألتِ بصوتٍ مُنهك.

– سائق الحافلة التي جاءت بك من "خوف". إنه يساعد كلّ النساء اللواتي يقعن في شدّةٍ فيتزوجهن مدة يومٍ أو أسبوعٍ حسب العرض والطلب.

ترددين، تَعدينَ بأن تُفكِّري في الأمر، وأن تُعطي جوابكِ في الغد. لقد أنهككِ السفر. أنتِ في حاجةٍ للاستراحة في فندقٍ؛ أيِّ فندق كان. تُحيطَ ذراعان كتفيكَ. وتسمعينهن يُكَلِّمْنَكِ كما لوْ كنَّ يُكَلِّمْنَ مريضةً؛ فيتضح لك أن النساء الوحيدات لا يُقْبَلْنَ في الفنادق، وأنكِ معرَّضةٌ لقضاء الليلة في الشارع مع الكلاب التي تتدافع إلى العاصمة مع غروب الشمس. فالمدينة ملكٌ لها، والجوع يدفع بها إلى أن تعضَّ

كل ما تجده في طريقها، حتى عواميد الإنارة والأشجار.

– قَرِّري قبل أن يعود عبده إلى "خوف".

– فلْيكنْ زواجَ متعة، قلتِ بصوتٍ يشارف على الانطفاء.

جوابُكِ، وإن كان قد جاء على أطراف شفتيكِ، يثير فرحاً عارماً. تحيط بك النسوة، يتلمَّسنكِ، يُقَبِّلْنَكِ على خدَّيْكِ؛ يقوم الأطفال بحركاتٍ بهلوانية؛ تزعق عجوزٌ بالسؤال، عجوزٌ تُوصف بالطباخة، تزعق لتعرف إذا ما كانت ثلاثة أباريق من شراب "الكركديه" كافيةً، أم لا بدَّ من إضافة إبريقٍ رابع.

تبدأ الاستعدادات من كل نوع، يُدفع بالكراسيِّ لِصْقَ الحائط، تُرتَّبُ في صفوفٍ مرصوصةٍ كما في البيوت أثناء التعازي، يُخصَّص لكِ مكانٌ في الوسطِ على مقعدٍ مرتفع. ليس عليكِ سوى أن تتركي لهنَّ أن يفعلن ما يشأن. أنتِ العروس، حتى لو لم يَدُمْ زواجُكِ إلا عشيةً واحدة.

تزعق الأخت الصغرى وهي تنحني من على سور النافذة منادية ولداً يلعب في الباحة، وتطلب منه أن يجيئها بأقصى سرعةٍ بعبده والشيخ، وتشرح أنها تريدهما لزواجٍ عاجل. تنطلق الزغاريد فور ذلك من كل زوايا البيت. تُسْلِمُ النساءُ المحشورات في أغطيتهن العنان لفرحهن، وتدقُّ الألسنةُ على الأحناك بسرعةٍ مُدَوِّخة.

يويويويويوووووووووو، حتى السماء.

تتجرئين على طرح سؤالٍ أخير:

– وإذا لم يقبل عبده؟

تتدافع الأجوبة.

لم يحدث ذلك قط. إنه يساعد دوماً سيئات الحظ؛ فالأمر لا يكلِّفه شيئاً بما أن لديه أربع زوجات، ولن تدخل الخامسة التي يُحَرِّمُها القرآن في الحسبان لأنَّ المتعة مجرّد محاكاة للزواج.

يتهيّأ لكِ أنكِ في المسرح، وأنكِ الممثلُ الرئيسي، أنتِ التي يُطلى وجهها بطبقةٍ من مسحوقٍ كثيفٍ كثافة معجون الحلاقة يُعلَّم عليها بدائرتين قرمزيتين على الخدَّين، وتُعَطَّرُ بماء الورد، وتُرسم رموزٌ "قبَّالية" على راحتي يديها، ويُضاف قليلٌ من الحنَّاء على جبينها، ثم على ذقنها، قبل أن يصل العريس الذي لن يبدو عليه أيُّ أثرٍ للتوتر لأنه يتزوج كثيراً، كثيراً جداً، بحسب العرض والطلب، كما شرحن لك.

ثمة أمرٌ واحدٌ يَهُمُّ عبده، هو أن يتمَّ كلُّ شيءٍ في ظرف ساعتين. فهو لا يضمن شيئاً بعد ذلك، بعد أن تكون حافلتُه قد امتلأت بالركاب بشكل كامل.

أناً في المسرح، تُرَدِّدين في داخل نفسِكْ. وأنا البطلة، وتلعب المسؤولاتُ الثلاث دور الكومبارس والكورس. كانت ردودهن كما ينبغي أن تكون الردود، تتقاطع دون أن تتطابق. هنَّ لا يُشجِّعْنَكِ ولا يُثَبِّطْنَكِ، بل يتركن لك أن تُجرِّبي حظكِ، وأن تغتنمي كل الفرص كي لا تندمي على شيءٍ في ما بعد. هل سيستقبلك المُلاَّ والوزير؟ الله أعلم. وقد يضربونك. هل يكسرون ساقك؟ يفقأون عينكِ؟ ليس بوسعنا أن نتوقع شيئاً. فالحراس أياديهم بثقل دَرَّاسَة القمح، وأسنانُهم أسنانُ نَمِرٍ حادَّة. وعلينا ألاّ ننسى أن المُلاَّ رجلٌ ورعٌ لا يصافح النساء رغم أنه تزوج منهن أربعاً، لا من أجل لذة الحواس بل إذعاناً منه للقرآن؛ أربعاً يَعدل بينهن. ليس ثمة محاباةٌ لأيٍّ منهن، بل شكل الحذاء

نفسه وقياسه نفسه، ونفس سماكة الحجاب لكي يبصرن العالم بطريقةٍ واحدةٍ، والاسم نفسه لجميعهن، فكلُّهُنَّ "عائشةُ".

تقطعين عليهن الترتيلة لتُطلعيهن على ما يقلقكِ؛ إذ كيف يمكن التأكد من أنّ نوراً لن تُرْجَمَ قبل أن يبتَّ المُلاَّ والوزير في أمرها؟ كان جوابهنَّ أن رفعن أذرعهن إلى السماء. يستحيل التنبؤ بما لا يمكن التنبؤ به. وعليكِ أن تتوقعي الأحسن والأسوأ على حدٍّ سواء.

كنتِ تدورين في حلقةٍ مفرغةٍ في داخل رأسكِ. وبدأ الشك يخامركِ في مدى ما لهنَّ من نفوذٍ حين أخبرتْكِ كُبْراهُنَّ أنه يصدف أن يردَّ المُلاَّ قرار الوزير، وألا يصادق الوزير على ما أقرَّهُ المُلاَّ؛ فيبقى الحبلُ مشدوداً في الاتجاهين المتعارضين، ويبقى القرار مؤجلاً إلى تاريخٍ غير محدد.

– وما العمل في هذه الحال؟ تتوسّلين بصوتٍ يُنازع.

– لا شيء.

إذ يجب على "بيت الأرملة واليتيم" في هذه الحالة أن يتوقف عن التدخل. فنحن نساءٌ، ويتهموننا لهذا السبب بأننا ثرثاراتٌ، غير قادراتٍ على لجم ألسنتنا، ويرتابون في أن لنا علاقاتٍ مع "النِّسْويات" الأجنبيات، ومن ثَمَّ مع الشيطان، وأننا ننشر مشاكل البلد خارج الحدود. أما الوزير فيصفنا بأننا "أجراسٌ على مؤخرة بغل".

تتعاقب الأخواتُ ليستلمن الحديث، غير شاعراتٍ بالزمن الذي يمرُّ، ولا بعبده الذي لم يتوقف عن النظر في ساعته، ولا حتى بالشيخ الذي وصل للتوِّ ويطالب بأن يُدفع له أجره مسبقاً.

يرتفع الضجيج في الساحة، ويندفع إلى القاعة، على حين فجأةٍ،

أطفالٌ من كل الأعمار يتعلقون بأذيال ثوب عبده. لقد أصرَّ أبناؤه وبناته على حضور الحفلة. ويجب أن تحسبي حساب قطعة من النقود لكلٍّ واحد منهم، وإلا فإنهم سيعارضون زواج أبيهم. أما هو فلا يريد منك شيئاً، إنه يُقدِّم لك خدمةً ليس إلاَّ. ولكنه يتوقع من قلبكِ النبيل أن يُخفِّف من شظف معيشة الأطفال؛ ليس بالحلوى، فهي تنخر الأسنان؛ وإنما بنقود يُعطونها لأمهاتهم ليُقرِّرن ماذا يشترين بها.

يُناولونكِ ورقةً مطبوعةً لا تفهمين منها شيئاً، فَتَهُمِّين بالتوقيع، ولكنّ الشيخ، بضربة منه على يدكِ، يجعلكِ تتوقفين، إذ عليك أن تُصلِّي قبل ذلك. تُردِّدين الجمل التي تخرج من بين شفتيه، وتكتبين اسمكِ كاملاً بمحاذاة بصمة إصبع عبده، في حين تتناول سيِّداتُ المكانَ الثلاثُ من حقيبة يدكِ "ما يكفي وحسبُ لدفع ثمن الوثيقة والحبر"، كما يُوضِّحن.

وها أنتِ ذي تسيرين خلفه، تفصل بينكما ثلاثُ خطوات كما تقتضي التقاليد، تقصدان وزير النهي عن المنكر؛ زوجةً خاضعةً تسير خلف سيِّدها.

الفصل الحادي عشر

تتكلمين بصوتٍ خفيضٍ، عيناكِ تُحدِّقان في الأرض حول قدميكِ، عليكِ ألا تنظري قطُّ إلى الشخص الذي يحتمي وراء نظارات سوداء حالكة ويعتلي أريكةً من تقليدٍ لطراز "لويس الخامس عشر" يُغلِّفها مخملٌ قرمزيّ.

تُحدِّثينه عن الاغتصاب الذي تَعَرَّضَتْ له نور، وعن الطفل الذي سيولد، وعن عملية الرجم التي تمَّ تأخيرُها مرةً أولى بسبب "الخماسين"، ثم بعد ذلك بسبب الأرض التي تَيَبَّسَتْ. عمليةٌ ستخلِّف أربعة يتامى.

– ثلاثة، قال مصححاً، فالرابع لن يكون لديه وقتٌ ليولد.

– كلمةٌ منكم ويكون بإمكان هذه المرأة التي أُدينت ظلماً أن تعيش وأن تصبح عجوزاً. تَرُدِّين بسرعةٍ لاستثارة شفقته.

– مَنْ قال لكِ إنها تتمنى أن تصبح عجوزاً؟

تُقدِّمين حجةً أخرى، فتتحدثين عن كوخها الذي من طينٍ وسوف يتهدده الخراب عندما لا تعود موجودةً لتُرقِّع حيطانه.

– أنتم تعرفون أفضل مني هشاشة الطوب، وليس زوجُها، هو

المتزوج من أخرى، هو العربيد، المقامر، مَنْ سيتولى عنها الأمر.

- بيتٌ آخر منهارٌ، ما الأهمية في ذلك؟ يُقاطعكِ بجفاف.

ثمَّ إن أجمل قصائد اللغة العربية مستوحاةٌ من الأطلال:

- "قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل..."، أنشدَ في ما يُشبه الغناء.

- "... لِما نسجتها من جَنوبٍ وشمألِ". تُسلسلين بالنبرة نفسها.

تنتظرين منه أن يُبدي إعجاباً لا تكشيرة كهذه التي ترفع شفتيه المتهدلتين اللتين يعلوهما شاربٌ أشعث.

مَأْخَذُهُ عليكِ أنكِ تُلقين شعر امرئ القيس الجاهليِّ بلكنة فرنسية. فتُذكِّرينه بالسُمانَى التي أرادت أن تُقلِّد مشية البجعة، فإذا بها لا هي بالسُمانَى ولا هي بالبجعة، ولا تعود تعرف أن تمشي.

نصيحتُه لكِ أن تَنْسَيْ نصفكِ الغربيَّ، ألا تحتفظي سوى بنصفكِ الشرقيِّ حتى تكوني أصيلةً؛ وأن تكفِّي عن أن تضعي في أفواه تلك النساء مطالب لا تليق بهن.

- نساؤنا لا يُفكِّرن حتى وإن كنَّ يتكلمن. إنهن موجوداتٌ، وهذا كافٍ لإسعادهن. وهن يصلحن للإنجاب.

وكاد أن يقول "إنهن يُسْتَعْمَلْنَ..."؛ مثلما يُقال عن القِدْر إنها تُسْتَعْمَلُ، وعن المغرفة أو الطشت.

يطردكِ بإيماءةٍ من يده. من المستحيل إطالةُ الحوار. يمكنه أن يغضب، يهمس لكِ عبده وهو يسحبكِ إلى الخارج. عندما أُطْبِق الباب أطلقتِ لليأس العنان، ولكنَّ عبده حاول أن يرفع من معنوياتكِ وهو يؤكد لكِ أنكِ لم تخسري المعركة بعدْ. فالمُلاَّ حامي حمى الفضيلة يمكنه أن يكون واسع الحِلم. فالرجل ورعٌ، ومَنْ أدرانا أنه لن يلغي العقوبة المُسَلَّطة

على نور، ويُدلي برأي يخالف فيه مدير مكتب النهي عن المنكر الذي عُرف عنه أنه لم يَبُلْ أبداً على إصبع مجروح.

تضحكين عبر دموعكِ، فقد أدركتِ بعد يوم من العِشْرَةِ وثلاث ساعاتٍ من الزواجِ أن عبده لا يتكلم إلا عبر الأمثال التي لا يكلف نفسه عناء شرحها.

الفصل الثاني عشر

إذا كنتِ تريدين مقابلتي لتجتَرِّي على مسمعي قصة المرأة التي رُجمتْ وغيّرت اتجاه شاهدة قبرها، فمن الأحسن ألا تُتعبي نفسكِ. لقد طُوي الموضوع.

بهذه المقدمة استقبلكِ المُلاَّ.

- إنّ الأمر يتعلق بامرأةٍ على قيد الحياة؛ امرأةٍ سوف تُعدم إذا لم تتدخلْ قداستُكم.

- أين هي المشكلة؟ سأل المُلاَّ، وقد بدا الضيق واضحاً على سيمائه.

- هذه المرأة تنتظر مولوداً. وستتركه يتيماً.

- يتيمٌ زائد أو يتيمٌ ناقص؛ كلُّ امرىءٍ يجيء إلى الدنيا ومعه قوت يومه. فالذي يَخلق هو الذي يتكفَّل بالحاجات.

تُعيدكِ كلماتُه إلى مشهد لا يُحتمل؛ مشهد أطفالٍ من كل الأعمار وهم يُنقِّبون في مكبٍّ النفايات البلدي على أبواب المدينة.

"إنهم يجدون دوماً ما يقتاتون وما يلبسون"، قال لكِ أحد ركاب الحافلة، "وليس مهماً أن تكون حَبَّةُ الفاكهة نصف متعفنة، أو أن يكون الثوب قد أصابه البلى بشكلٍ كلّيّ".

يُعيدكِ الصوت الصارم إلى المُلاَّ.

– لستِ من هنا. ماذا جئتِ تفعلين في بلدنا؟

– أعملُ في حقل المساعدة الإنسانية، أجبتِ بنَفَسٍ واحد.

– مؤسستكم تضرُّ أكثر مما تفيد. أنتم المسؤولون الحقيقيون عن المجاعة. فالفلاحون عندنا يكتفون بطحينكم وأَرُزِّكم بدلاً من أن يزرعوا الأرض. إنكم تُحوِّلون الرجال الأباة إلى متسولين وكسالى.

تتهمين الجفاف وأنتِ تُحدِّقين في خُفَّيه المصنوعين من الجلدِ اللَّدن دون أن تتطلَّعي أبداً إلى وجهه المُحرَّم على النساء. الجفاف وحده المسؤول عن المجاعة، وليس الكسل. فهو الذي أهلك المحصول وأهلك الماشية، وهو الذي يدفع الفلاحين إلى المدينة، والأطفالَ إلى مكبَّات النفايات.

تتوقعين كل شيءٍ عدا هذا التعليق:

– الأزهار بحاجةٍ إلى السماد لكي تنموَ، وكذلك هو الأمر بالنسبة للأطفال.

ثُمَّ، مزهوّاً باكتشافه، يُتبعه بمثلٍ آخر من إنتاجه:

– "لا يصفِّق الشيطانُ عندما يمشي الربُّ على النفايات".

هل يقصد أن أطفال مكبِّ النفايات هم أطفال الربّ؟

ولأنه مغرورٌ فهو لا يتكرَّم بشرح ماذا يعني.

يسود صمتٌ لا تتجرئين على قطعه في ما كان هو يُمسِّح بيده على لحيته للمرة الألف، وتتفحَّص عيناه نقوش السجادة بحدَّة. أتراهُ يبحث عن الربِّ في لُحمتها بين خيوط القطن وخيوط الصوف؟ وفجأةً، وكأنما قُذف نورٌ في صدره، يطرح عليكِ سؤالاً ويطلب

منكِ أن تجيبي بعد أن تُمعني التفكير؛ فقراره بخصوص التي تخمينها يتوقف على جوابِكْ:

– هل تُفضِّلين الطريق أم الحصان؟

ما اللعبة التي يُديرُها يا تُرى؟ أنتِ لا تعرفين ما الذي تختارين من الاثنين. يبتهج في أعماقه لصمتكِ، فهو رمزٌ لاستسلامِك.

تَهُزِّين رأسكِ ثلاث مرات متتاليةً وقد شارفتِ على الإنهاك، وتعترفين، وأنتِ على وشك البكاء، بأنكِ لا تعرفين.

– بعبارةٍ أخرى، هل تريدين إنقاذ حياة هذه المرأة أم إنقاذ روحها؟

يُرعد بصوته الشبيه بصوت المبشِّرين.

تُشاهدين نفسكِ وأنت تترنّحين ثم ترتمين على السجادة، فيلامس فمُكِ فردة خُفِّه اليمنى كما لو أنكِ تسعين لتقبيلها.

تمتدُّ يدُه نحوكِ، ويأمركِ بالنهوض. أمرٌ جافٌّ، يصدر عن الفتحة بين اللحية والشارب.

"قومي"؛ كما لو أنكِ ألعازَرُ وأنه السيد المسيح.

ماذا تنتظرين لكي تغادري المكان بعد خيبتين في نفس اليوم؟ غير أنّ صوته يُعيدكِ إلى الوراء. فالمُلاَّ، لكي يبرهن لكِ عن عظيم حِلمه، يقبل بأن يؤجِّل عملية الرجم إلى تاريخٍ لاحقٍ يلي ولادة الطفل؛ ولو أن هذا الكائن الصغير ليس إلا ثمرةً فاسدةً، وأن البديهة تُشير بقطع الشجرة من عروقها؛ الشجرة والثمرة في نفس الوقت، يؤكد المُلاَّ.

الورقة التي يُناولكِ إياها تحمل توقيعه وقد علاه سيفٌ مجرَّدٌ من غمده.

– سَلِّميها لشيخ "خوف"، وقولي له "إن هذه هي إرادة المُلاَّ. لا رجم قبل ولادة الطفل".

ها أنت ذي تعودين إلى الشارع الذي يضجُّ بأبواق السيارات، وباعة المُثَلَّجات والمشروبات، والفستق، والفطائر، وأعواد البخور، والعصافير التي ترفرف في الأقفاص، وتلك المحنطة، غير أنه لا وجود فيه لمحلٍّ واحد للثياب النسائية. فالبراقع تتمُّ خياطتها في مشاغل لا تُطلُّ نوافذُها على الشارع، لأن الفستان، حتى وهو خاوٍ، يمكن أن يشي بما يحتويه من اللحم العاري. المرأة محرَّمةٌ على الأنظار، مقبولةٌ في ظلام المضاجع، للتكاثر.

الفصل الثالث عشر

ما إن انطلقت الحافلة حتى بدأ الثلج يهمي. ثلجٌ ناعمٌ خفيفٌ في البدء، ثم يذوب عندما يلامس الأرض. نُدَفُ الثلج بطيئةٌ حتى لتبدو كأنها معلَّقةٌ في الهواء. الجو ثقيلٌ ينوء به المشهد. والحافلة تتمايل فيهدهدكِ تمايُلُها وأنتِ تُفكِّرين في نور التي تنتظر بفارغ الصبر قدومكِ، وتسأل نفسها عما إذا كنتِ تحملين لها قرار العفوِ، أو الموت.

الركاب لا حديث لهم سوى موجة الصقيع القادمة من سيبيريا والتي أعقبت الجفاف الآتي من الساحل. وعند كل محطةٍ يتمُّ طلبها بصوتٍ يغالبه النعاس يوقف عبده الحافلة على جانب الطريق ويتسلق سقف المركبة، ثم يرمي بالأمتعة إلى صاحبها. إلى أين يذهبون؟ تسألين نفسكِ وأنتِ تشاهدينهم يتباعدون في البياض الساطع. فالثلج الذي كان خفيفاً في الضواحي وازداد كثافةً بتقدُّم الطريق مَحا القرى التي شاهدتِها عند الذهاب. هكذا تبدو لكِ الرحلة بلا نهاية، ويتهيأ لكِ أن "خوف" هي آخر قريةٍ في الدنيا. الريح القارسة التي تنفذ داخل تنورتك كلما انفتحت الأبواب جعلتكِ ترتعشين. وعبده، الذي ما فتئ ينظر إليك بحنانٍ، لَفَّكِ بدثاره.

- هديتي لكِ بمناسبة زواجنا. همسَ لكِ في أُذُنكْ.

لمّاً وصلتم إلى ساحة القرية تفرّق الركاب القليلون في شتى الجهات وتركوكِ وحدكِ معه. أراد أن يوصلكِ إلى وسط القرية، ردَدْتِ عَرْضَهُ ولكنكِ احتفظتِ بدثاره. دثاره سوف يحميكِ من البرد. وسينام عبده على مقعد الحافلة الخلفي، عيناه إلى النجوم، يحلم بزوجاته الأربع اللواتي، خلافاً لكِ أنتِ زوجة المتعة، يستقبلنه بالأحضان غداً، عندما تعود حافلته إلى المدينة.

تمشين بسرعةٍ في صمتٍ يقطعه نباح الكلاب. قدماكِ اللتان تغوصان في الثلجِ الهشّ تُحدثّان صوتاً شبيهاً بنقيق الضفادع في ليالي القيظ. تمشين على غير هدىً، دليلُكِ شجرةُ الصَّبّار المدفونة حتى نصفها تحت الكتلة البيضاء.

الخبر السارُّ الذي تحملينه لنور لا يمكن أن ينتظر إلى الغد. والثغرة الفاغرة في الواجهة لا علاقة لها بكوخ صديقتك. في الظلام يَحُثُّكِ خيالٌ على الدخول قبل أن يُحَوِّلُكِ البرد إلى عمودٍ من حجر.

- ليس قبل أن تَحزري ما هو الشيء الذي في يدي.

- كيف لي أن أحزر؟

- حاولي، مع ذلك.

- ربحتِ في اليناصيب؟ حصلتِ على إرث؟ وقعتِ على زوج؟

تُعدِّد نور ذلك بالترتيب، وتهزِّين رأسكِ في كل مرة. تتوتر نور، فهي لا تفهم كيف يمكن لمجرد ورقةٍ أن تجعلكِ في هذه الحالة.

تتكلمين ببطء، فأنتِ تُدركين أهمية ما ستكشفينه لها، وتحرصين على أن تفصلي المَقاطع عن بعضها.

تُبشِّرينها بأنه لن يَمَسَّ أحدٌ شعرةً واحدةً من رأسها طالما أنها لم تلد.

- وبعد ذلك؟

هي لاذعةٌ، تستخفُّ بكل شيءٍ، ومتعاليةٌ؛ متعاليةٌ على حين غرَّة. ينفذ سؤالها إلى أعماقكِ، وتسبُر نظرتُها نظرتَكِ رغم الظلام.

تسألكِ وقبضتاها على ردفيها في حركة تَحَدٍّ، مَنْ سيُرضع الطفل، مَنْ يُدَفِّئُهُ، يُغنِّي له هدهدةً كي ينام؟ وما جدوى المجيء إلى الدنيا يوم تكون مئات الحجارة قد هشَّمَتْ جمجمة أمه؟

أهو الخجل أم اليأس الذي أملى جوابكِ؟

- سأتدخل مجدداً لدى المُلاَّ، وقد عرفتُ الطريق الآن.

يقول إصبعُها المثبت على صدغها إنها تفكر. تسألكِ والابتسامة الخبيثة تعلو شفتيها، إذا ما كنتِ أنتِ والإمام ... وتمتطي إصبعُها الوسطى سبابَتَها.

لا تُبالي بالحمرة التي اجتاحت وجهكِ. هي لا تستطيع أن تلحظها في مثل هذا الظلام. إنها مستغرقةٌ بشكلٍ كاملٍ في مشاريعها؛ فما من شيءٍ سيمنعها الآن أن تزرع خضاراً بعدَ أن أصبحت الحياة أمامها.

- ولِمَ لا أزرع بعض الأزهار، تُضيف قائلةً، فهذه الحديقة حزينةٌ حزن صحراء.

هل تسخر نور منكِ أم من نفسها؟

هي ذي، بيدها السمراء موضوعةً على بطنها، تقوم لأول مرةٍ بتلك الحركة العادية التي تقوم بها النساء الحوامل. وتصبح نورُ الصامتة ثرثارةً على حين فجأة. إنها تريد أن تلتقي أولادها لتخبرهم عن قرب ولادة أخيهم الصغير، وأن تكون لها ذراعان طويلتان بما يتيح لها أن تعانقهم

كلهم في نفس الوقت، أن تطبخ لهم، أن تشاهدهم وهم يزدردون الأَرُزَّ المطبوخ بالزعفران، والخروف المطبوخ بالكركم، وجبالاً من الحلوى. و تُدخل نور ضمن أحلامها الدجاجة المتوفة التي أكلوها منذ أكثر من سنة، والتي ستطبخها على نارٍ هادئة إلى أن تنفصل عظامُها عن اللحم.

ليس الخروف والكركم وكل الأشياء الأخرى سوى شهوات امرأةٍ حامل. تسكت نور بعد أن أنهكها حديثُها مع نفسها. تغتنمين فرصة صمتها لتسأليها عن السبب في أنها لم يَعُدْ لديها باب.

– طلبه مني مُحا الذي خسر بابه في القمار. والباب، بعد التفكير مليًّا، ملكٌ له. فهو الذي دفع أجرة النجار؛ وطالما أنه ترك لي الشبّاك...

هي ذي تذرع الغرفة بخطىً سريعةٍ، وتعلن، وهي ترفع رأسها في تَحَدٍّ، أن الغرفة أجمل من دون باب. فقد كان البابُ يحجب عنها الجبلَ، ويمنعها عند مجيء الليل من رؤية المصابيح في الدَوّار وهي تُضاءُ الواحد تلو الآخر.

الحقيقةُ، وتعرفين ذلك أكثرُ من الآخرين، أكثر تعقيداً. صحيحٌ أن مُحا خسر بابه في لعب القمار، ولكن الاستيلاء على باب نور يعادل عقوبة. وهي قد عوقبت بسبب رحلتكِ لإنقاذ حياتها. فعلى الزوجة، حتى لو كانت مُطَلَّقَةً، ألا تشكو قَدَرها لغريبةٍ، وقبل كل شيءٍ ألا تعترض على فتوى صادرةٍ عن الشيخ. فالمسلمة الجديرة بهذا الاسم تردُّ كل تَدَخُّلٍ لصالحها إذا كان منافياً لقوانين قبيلتها.

أخذ الإنهاكُ منكِ إلى الحدِّ الذي لا تعترضين فيه على هذيانها؛ فرأسُكِ يتمايل على صدركِ، وساقاكِ لا تقدران على حملك إلى وسط الغرفة. تَحُثُّكِ نور على البقاء، تتخلى لكِ عن حصيرها، وتتمنى لكِ

أحلاماً سعيدة. تنطبق أجفانكِ على ما تبذله هي من جهدٍ لكي تسدّ الثغرة الفاغرة بصفيحة معدنية دفعتها الريح حتى شجرة الصَبّار، وتُسَعِّر النار بعد ذلك. تتناول أصابعُها السريعة جذواتٍ تضعها فوق الأغصان المتقاطعة ثم يُكمل نَفَسُها بقية العملية. صدرُها غير عريضٍ إلا أنه يبدو كأنه يحتوي على كل رياح الصحراء. وجسدُها جسد مراهقة أنجبت ثلاث مرات في ثلاث سنواتٍ وتنتظر مولودها الرابع؛ مولوداً ذكراً كما أخبرتكِ بعد زيارتها "بئر الست زينب"، صبيّاً. فالأنثى لا تُحسب في عداد الأطفال. ومع ذلك فالبنات هن الأثقل وزناً في الزيجات. بعضهن تتمُّ مقايضتها بقطيعٍ من الماعز، وبعضهن بأثاثٍ لبيت الأهل، وأخرياتٌ يُدفع ثمنهن نقداً.

إنهن نساء أولئك اللواتي رأيتِهن ينبشن الأرض المشققة بحثاً عن الجذور الصالحة للطبخ، ونساء أولئك اللواتي رأيتِهن يجبلن الطين بالقش ليُرقِّعن الحيطان. أما الرجال فيتبادلون الحديث حول شجرةٍ، ويُلقون بنصيحة أو بحصى على رأس إحداهن أحياناً؛ عندما لا تصغي النساء.

فيما أنتِ مُلفَّعَةٌ بالدثار الذي يضوع برائحة الجِمال، تحلمين بقافلةٍ وهودجٍ، وتحلمين أنك لا تملكين إلا وسيلة النقل هذه لتعودي إلى فرنسا بعد أن طردوكِ من "خوف" بسبب تَدَخُّلِكِ في حياة سكانها، وتنتفضين عند كل حركةٍ مباغتة للدابة الطاعنة في السن التي اختاروها لكِ بنيّة أن ترمي بكِ في الوادي فلا يَرِدُ ذِكْرُكِ بعدها على لسان أحد. يوقظ صراخُكِ من الرعب نوراً المتكوِّمة على نفسها في زاوية من الغرفة، فتسارع بالمجيء إليك، تمسح بيدها على جبينكِ، وتُهدِّد شفتاها الشيطانَ أبا الكوابيس بكلماتٍ فجّةْ. ثم تُناولكِ جرعةً من

ماء الزهر لتهدئة روعكِ، وفنجاناً من القهوة لتستردّي وعيكِ؛ ولا جدوى من الاعتراض. إنكِ بحاجة لهذه الأشياء كي تواجهي الشيخ، وإلا فإن أوامر المُلاَّ لا تُعادل شَرْوَ نقّيرٍ، وستبقى حياتُها في خطرٍ طالما أنها لم تشاهد بأمِّ عينيها توقيع الرجل القدسيّ.

تعود بكِ إلى يوم أمس، تسألكِ أن تُعيديه لها من جديدٍ، دون أن تُغفلي أصغر التفاصيل.

– ماذا قال المُلاَّ أيتها الغريبة؟

– قال إن أمر براءتكِ هو في النهاية بيد الله الذي بيده العقد والحلّ.

يُضيء وجهُها:

– أراد أن يقول إن الجنة ستكون من نصيبي؟

وتبكي للمرة الأولى، مذ عرفتِها. إنها دموع الفرح، فأنتِ تعرفين أنها تجهل البكاء عندما تكون حزينةً. تشرب إبريق القهوة كاملاً وهي تكاد تفقد وعيها من شدة السعادة، لا تهدأ، وتدور مثل دَوَّامةٍ وعيناها تبحثان عن أي شيءٍ تبرهن لكِ به عن امتنانها، فتعثر على قطعةٍ قماشٍ معقودةٍ من طرفيها، تسحب منها تعويذةً معلَّقةً في شريطٍ سميكٍ تلفُّ به عنقكِ؛ تعويذةٌ ستحميكِ من العين ومن ألسنة الناس، لاَّ بل من الثعابين.

– اذهبي مع السلامة، فأنتِ الآن في حفظ الله، وليس هناك ما تخشينه. تزعق نور بحماس.

إنها لن تتناول طعاماً ولن تذهب إلى النوم قبل أن تعودي. وسوف تترقَّبُ خيالكِ من نافذتها ما بقي النهار نهاراً، تترقبه وهي تُجَهِّز لكِ طبقاً ملوكياً؛ أوراقاً من الصَبّار مطبوخةً على البخار مع الزيت والبصل، ولْتُفْقأ عيونُ الحاسدين من الغيرة.

الفصل الرابع عشر

لم يُغمض لأمينة جفنٌ طوال الليل. انتظرتْ عودتَكِ إلى أن صاح الديك صيحته الأولى، ومرَّتْ برأسها آلافُ الأفكار السوداء؛ كأن تكون الحافلةُ قد أخطأتكِ، أو أن تكوني نمتِ في الطريق بين الكلاب والمتسولين، أو أنكِ تقبعين في السجن بسبب تَدَخُّلكِ في ما لا يعنيك. أما آخر الاحتمالات فأن تكوني قد قُتلتِ، وما من أحدٍ بإمكانه أن يقول مَنْ أنتِ ومن أي بلدٍ تجيئين.

تقول "قُتلَت" لأن المدن مأهولةٌ بالمتسولين والقتلة والبغايا.

ثم تسألكِ أن تحكي لها كل شيءٍ وقد زالت الآن مخاوفها.

هل استطعت أن تحظي بمقابلة وزير النهي عن المنكر؟ أن تخاطبيه؟ وهل له حقّاً عينٌ من زجاج؟ هل وافق المُلاَّ حامي حمى الفضيلة على استقبالكِ؟ وماذا قرر بشأنٍ نور؟

– لقد تأجل تنفيذُ الحكم فيها إلى ما بعد ولادة طفلها، وربما يتأجل إلى الأبد، تُجيبين. غير أنه يجب عليَّ أن أُقنع الشيخ، وسوف ترافقينني إلى الجامع.

قشعريرةٌ طويلةٌ تجتاحها على امتداد ظهرها.

- ستذهبين وحدكِ. يجب ألا يعرف أني أعمل عند الإفرنج والعاملين في حقل الإغاثة.

تُذكِّرينها بأنه يقتطع، بانتظامٍ، عشرين في المئة من المواد المخصصة لفقراء "خوف".

- وأولئك الفقراء، هل تعرفينهم؟

أكيدٌ أنها تعرفهم؛ وتلجأ أمينة إلى أصابعها العشرة تستعين بها مرتين، فتعدّد بالترتيب الزوجات الأربع وأولادهن الستة عشر.

- ثمانية ذكورٍ وسبع إناثٍ وواحدٌ بَيْنَ بَيْنْ، مِعْزاةٌ وتيسٌ في آنٍ واحد.

لا يُعجبها ما يبدو عليكِ من حذرٍ، فرجال الله فوق كل الشكوك؛ وأنتِ راشدةٌ بما يكفي لكي تذهبي وحدكِ إليه. وستلتقيان أنتِ وهي عند نور التي تواجه خطر أن تلتهمها الوحوش أو يقتلها اللصوص لأنها الآن من دون باب.

- لصوصٌ في الدَوَّار؟

تنتابُكِ الدهشة.

- اللصُّ لصٌّ، وهو جاهزٌ لأن يستحوذ على الجدران إذا لم يجد ما يأخذه.

لا يفتقر سكان "خوف" إلاَّ للمواد الغذائية، أما الحجج فعندهم منها الكثير. همستِ في نفسك.

وخطر ببالكِ كل أولئك الذين تجدينهم في كل صباح، عندما يفتح المركز، أياديَ تمتدُّ إلى كل الأكياس دفعةً واحدةً، ثمَّ إلى الله الذي يبدو أنه قد نسيهم؛ إلا إذا كانوا يمُدُّونها إلى الغيوم التي تحبس المطر،

فهم يعرفون أنّ الثلج يمرُّ مرور الكرام، تشربه الأرض الشرهة بسرعةٍ، والشمسُ التي لا يروي ظمأها شيء.

روى لكِ أحدُ العجائز أنه حفر في أرضه حتى الجحيم، بحثاً عن جدولٍ موجودٍ هناك منذ الأزل، ولم يجد سوى ماء موحلٍ لا تقبل به حتى الدوابّ. وأضافت امرأته مبالغةً "كان ذاك لُعابَ الشيطان، والموتُ عطشاً أفضل للمرء من أن يبتلعه".

أما جليلة الساخطة دوماً فقد أعادت لكِ كيس العدس فارغاً حتى النصف؛ لقد كادت الحصاة التي عثرت عليها بين الحَبِّ أن تكسر لها أسنانها... ثم فتحت فمها فاغراً لتُريكِ ثلاثة أعقاب متخلخلةً تشهد على ما تقوله؛ اثنان منهما في الأعلى وواحدٌ في الأسفل.

شكاواهم تلتفُّ حول عنقك كحبل؛ وكنتِ قد خرجتِ لتُنَفِّسي عن نفسكِ. مئات النوارس تُحلِّق فوقَ رأسكِ على علوٍّ منخفض؛ نوارسُ رغم كل هذا البعد عن البحر.

"ستُمزِّقُ السحبَ بمناقيرها، وسينزل المطر"، صاح أحد الصبية؛ إلا أنّ أحداً لم يُصَدِّقْهُ لأنّ ما من أحدٍ كان ينظر إلى السماء.

الفصل الخامس عشر

تُحذِّرُك أمينة من جليلة التي تكذب بالسهولة التي تتسوّل بها. يجب ألا تُصدِّقيها عندما تتحدث عن "مكة" التي لم تطأها قدماها قطّ. كل ما في الأمر أنها حلمت بالكعبة تتقدم نحوها في الصحراء كجملٍ شرد عن قافلته.

جليلة حاجّةٌ "مزيفةٌ" أدَّتْ حَجَّها في رأسها فقط، دون أن تبتعد عن "خوف" مسافة إبهام واحدْ.

ونور، البعيدة عن أن تكون نمّامَةً، لها نفس الرأي. فجليلة تكذب عندما تؤكد أنّ "خوفَ" كانت تحت البحر قبل أن يصير الزمن زمناً، وأن الصحراء كانت في الأصل محيطاً، وكانت الكثبان جزراً. لقد وُجِدَت "خوف" قبل الأرض وقبل السماء؛ والدليل على ذلك سُخامُ آلاف السنين الذي يغطي قِدْرها.

حميد المسؤول عن المخزن لا يحب هو الآخر جليلة؛ فنظرتُها، بسبب عينها الحسودة، تثقب الأكياس كأسنان الفأر. تتركينهم يتقوّلون. وسيبقى بابكِ مفتوحاً لها على الدوام لسببٍ بسيطٍ هو رائحة القطط التي تنتشر منها. فعشرات القطط تحتمي في الليل وراء ظهرها العريض

إذا ما طاردتها كلاب الدَوّار.

تجيء جليلة كل صباح في الساعة نفسها، ومعها مكنستها ومجرفتها. فتكنس من هذه الجهة، وتلملم من تلك، طحيناً وسكراً وكل ما يقع من الأكياس، تبيعه بثمنٍ زهيدٍ لأهل الدَوّار، ممَّنْ هم أكثر بؤساً منها، هي التي لا يوجد مَنْ هو أكثر منها بؤساً.

والسُكّرُ والطحين تتذوقهما على عَجَلٍ لخشيتها من احتوائهما على سُمِّ الفئران. وجليلة، المختصة في التغذية من القمامة والمختصة في البيئة دون أيِّ علم منها بذلك، لا تأخذ من النفايات عندما كانت تقوم بفرزها، حين كانت "خوف" تأكل حتى الشبع، سوى الفواكه والخضار الفاسدة، أما اللحم فلا، لأنها تراه مقرفاً "كمن يأكل جاره". سألتكِ أمس، وعيناها في عينيكِ، عما إذا صدف أن أكلتِ لحم الحمار. ثمَّ غيرت الموضوع عندما شاهدت الدهشة قد ارتسمت على وجهكِ، وشرحتْ لكِ أن الخبز اليابس المنقوع في الماء والسُكّر يبقى طبقها المفضل، وأنها، التزاماً منها بتعاليم نبيها "عليٍّ"، تضعه على رأسها ثم على مصحفها ما يكفي من الوقت لكي يصبح طاهراً، ومن ثم تُلَيِّنُه بقليلٍ من ماء الزهر. إنها وليمةٌ ملكيةٌ، قالت وهي تلحس شفتيها.

- لأنك تملكين مصحفاً؟

- ولِمَ لا أملك واحداً؟

سحبَتْ بيدها من جيبها ثلاث صفحات أصابها العفن، مسنّنة الحوافي، أفلتت من أحد براميل القمامة. إلى أيِّ الآيات والسور تنتمي الصفحات؟ تجهل جليلة ذلك. وطالما أنها من الكتاب فهي تضمُّها إلى صدرها الهزيل ثم تضعها على رأسها، وتحبس أنفاسها كي لا تسقط

على الأرض في يد الشيطان الذي له ملك كل ما هو في الأسفل، تشرح جليلة، أما الأعلى فهو ملكٌ للملائكة التي لا تعرف إلا الطيران.

يتجاذبكِ الضحكُ والحنقُ غير أنك تُظهرين اللامبالاة.

عيناها مغلقتان، هل تفعل ذلك لتتفادى رؤيتكِ أم لتتفادى رؤية الشيطان؟ شفتاها المُجَعَّدتان تُتمتمان دعاءً تختزله جملةٌ واحدةٌ يسود فيها اسم الشيطان الذي تتوسَّل إليه أن يبتعد عن بيتها.

في ما يتعلق بالبيوت، تملك جليلة الشارع بأكمله.

فهي تنام حيث يُطيح بها النعاس حين تشرع عيناها في الدوران في محجريهما مثل كريَّات أصابها الجنون، فتترك نفسها، إذا ما سنح لها الأمر، أن تنسرب لِصْقَ جدارٍ تضربه في ذهنها بأربعة تضيف إليها سقفاً. أن يكون لها بيتٌ، أمرٌ لا يُغري جليلة كثيراً طالما أنّ "خوف" ستغرق تحت ملايين الأمتار المكعبة من الماء عندما ينتهي بناء السدّ. وهي الوحيدة التي ترى هذا الرأي، والوحيدة التي تقول هذا القول. فما من أحدٍ في الدَوّار سمع الأصوات الصادرة عن موقع البناء في الطرف الآخر من الجبل، وما غير أذنيها العجوزين تلتقطان نسف الصخور بالديناميت.

تعتقد جليلة أن الكلمة الأخيرة ستكون لها عندما تؤكد لكِ أن السدَّ يبنيه رجالٌ غير مرئيين، قدِموا من كوكبٍ آخر، لا يراهم غيرُها لأنها الوحيدة التي تنام في العراء.

تُصغين إليها دون أن تُصدِّقي ما تقول. أما نور فتصدِّقها دون أن تكون قد أصغت إليها. فالرجل الذي أحبها حين كانت تهبُّ "الخماسين" قدم على الأرجح من ذلك الكوكب.

قالت ذلك أمس وهي تُخمد قشعريرة خوفٍ ورغبةْ.

الفصل السادس عشر

الثلج الذي سقط ليلة عودتكِ من العاصمة ذاب في كل مكانٍ إلاَّ في حديقة نور. وهي تُزيحه بمغرفةٍ خشبيةٍ، ثم تحفر على مسافاتٍ متساوية حُفراً تملؤها بحبوبٍ حمراء سوداء صفراء تسقيها بدفقٍ من لعابها قبل أن تُهيل عليها التراب. نور تبصق على الشيطان لأنه الكفيل بأن يجعل الخضار تنبت بالمقلوب. وهي تعزق مغمضة العينين لخوفها من النظرة، ومن نظرتها هي أيضاً. وما إن استنفدت مخزون حبوبها حتى تنفَّست الصعداء، وانتصبتْ وهي تُمسك خاصرتها بكلتي يديها، ثم أجالت النظر في واجهة كوخها. أربعة أمتار على مترين من الطين الجافِّ الذي ما فتئ يتفتت كل شتاءٍ أكثر. فجدرانها تُصيبها نفس التجاعيد والخدوش التي تصيب وجهها، أما بيوت المدينة ونساؤها فلا تشيخ، بحسب ما قيل لها؛ فالهواء البحري المحمَّل بالملح يحميها من البِلى، كما لو أنه تمَّ حفظها في محلولٍ ملحيّ. إن أهالي المدن يملكون دواءً لكل شيءٍ، حتى للفقر.

تحتفظين لنفسكِ بمشهد الأطفال الذين كانوا، وسط الروائح الموبوءة، يُقصِّبون مستودع القمامة تقصيباً.

هل ساهم لون الثلج الأبيض في السكينة التي حلَّتْ عليكن؟
ها إنكن نساءٌ بلا مشاكل، مِثْلُكنَّ مِثْلُ أخرياتٍ غيركن.
أمينة لم تعد العانس التي فاتها عمر الزواج.
وما من خطرٍ من الموت يتهدّد نور.

وأنتِ لم يهجركِ حبيبكِ، لا و لم تدفني قطّكِ. تثرثرن هادئات البال، تتحدثن عن كل شيءٍ ولا شيءٍ، فتبدو أصواتكن التي تُصدي في الهواء كأنما تخرج من أفواهٍ ليست أفواهكن.

وتسحبكما نورُ إلى الداخل بعد أن التقف الجبلُ الشمسَ، ثم تُشعل ناراً دافئةً، فيستولي عليكِ شعورٌ عذبٌ بالنعاس عند مشهد اللهب المتصاعد في الموقدة. صوتُ المرأتين وهنّ تتبادلان الحديث بلهجتهما المحلية يجعلكِ تغرقين في ما يشبه النوم. إنهما تتكلمان وقناعتُهما أنكِ لا تسمعين ما تقولان.

– الوزير يُعيرها السمع، والمُلاَّ بشكلٍ أخصَّ، في حين أنها مسيحيةٌ. تُخبر نورُ أمينة.

– زواجُها من عبده يجعل منها مسلمةً. تردُّ أمينة.

– هل تزوَّجتْ من هذا الوغد؟ وكيف عرفتِ ذلك؟

– من الزوج؛ فهو ما إن وصل إلى الدَوَّار حتى أذاع الخبر كصوتِ بوقْ. لا بُدَّ أن الأموات أيضاً قد سمعوه.

– هل تعتقدين أنها ستنتقل إلى بيته؟

– أين تريدينه أن يضعها؟ أربعُ زوجاتٍ ودزينةٌ من الزعران. وعلى أية حالٍ لا يُعطي زواجُ المتعة الحقَّ في السكن.

يتبع ذلك صمتٌ يجيء بعده صوتُ نور متسلّلاً من بين فرقعتين

للنار الملتهبة. فهي تودُّ أن تعرف السبب الذي يدفعكِ إلى الاهتمام بقضيتها، ولماذا تريدين إنقاذها من الموت، وما إذا كان للعاملين في مجال الإغاثة الإنسانية دورٌ في الأمر. ولكنّ أمينة تُزيح أسئلتها بإيماءةٍ من يدها. فالذين تُسمِّيهم نور بالعاملين في حقل الإغاثة الإنسانية يُقدِّمون الأكل والشرب واللقاح، ليس إلا. وهي تعتقد أنّ "النسويات" هنَّ مَنْ يقفن وراء هذا الأمر، وأن الغريبة لا تفعل أكثر من أن تُطيع أوامر باريس. فهؤلاء النساء ذوات نفوذٍ عظيم؛ السلطة في أيديهن، وعلى الرجال طاعتهن، إنهن لا يفعلن إلا ما يحلو لهن، يَقُدْنَ السيارات والقطارات والشاحنات، ويُنظِّمن المظاهرات، ويُدَخِّنَّ...

- الحشيش؟ وتختنق نور بالسؤال.

- أسوأ من الحشيش. السجائر. و"يَشْرَبْنَ" أيضاً.

- العَرَقْ؟

- كل ما يقع في كؤوسهن، حتى الخمر التي حَرَّمَها القرآن.

- الغريبة لا تفعل ذلك، تقول نور بإعجاب، لم أرها أبداً تحتسي خمرةً أو تُدَخِّن. إنها أشبه ما تكون ب"حاجّةٍ" زارت مكة العديد من المرات.

- كثيرٌ من الخصال الحميدة، وما من أيِّ زوجٍ؛ تتحسر أمينة.

- ليس لها زوجٌ، لكنْ لها خطيب.

- الذي تُسَمِّينه خطيباً كان حبيباً هجرها ليعود إلى زوجته.

- التي طَلَّقَتْهُ بدورها، أكملتْ نور.

- يستأهل ذلك.

قالتا ذلك بصوتٍ واحد.

– هل النساء هنَّ مَنْ يطلِّقن الرجال عند الإفرنج؟ تستفسر نور.

– عندهم وفي كل مكانٍ عدا "خوف". ولهن الحق في كل المهن، من البغاء حتى رئاسة الجمهورية.

– تُريدين أن تقولي إن لهنّ مواخيرهن؟

نور لا تشبع، وأمينة تختلق ما تقول بكل ما أوتيَ لسانُها من قوة.

– ... في كل زاويةٍ من كل شارع. كلما دفعن أكثرَ حَظين برجالٍ أكثر فتوّةً وشباباً؛ رجالٍ شقرٍ كما يُفضِّلن. أما رجلٌ بمثل هزال مُحا–كَ فلن يحظى سوى بمِعْزاة؛ لن يجد امرأةً واحدةً ترغب فيه، في حين أنَّ عبده سينوء تحت الطلبات.

– مُحا لا يُتقن إنجاز الأعمال اليدوية، تتحسر نور بلهجةٍ كلُّها أسى. لم يعرف ولا مرَّةً واحدةً كيف يغرز مسماراً في جدار.

– ومع ذلك فقد غرس ثلاثةَ أشقياء في بطنك، ذكَّرتها أمينةُ. هل تعرفين ما إذا كان خطيب الغريبة ماهراً في الأعمال اليدوية؟

– من أين تُريدين لي أن أعرف؟ أعرفُ أنه يطلي الأشياء فقط. ولو كان على مقربةٍ أكثر من هنا لكان أعاد طلاء جدراني؛ فلقد تراكم عليها سُخامٌ كثيرٌ مذ أصبح البيت بيتاً.

– ما تُسَمِّينه بيتاً هو كوخٌ بائسٌ، خِربةٌ، ردَّت أمينة. وخطيبُ الغريبة يطلي أشياء يُعَلِّقونها على الجدران مثل سماءٍ زرقاء أو شجرةٍ عليها عصافير.

– ولا أزهار أبداً؟ سألت نور. إني أحب الأزهار كثيراً؛ فالدنيا من دون أزهار أقلُّ من أن تكون دنيا.

– ليس في ما أعلم، وإلا لكانت قالت لي ذلك.

– ليس مُحا–يَ مَنْ سيعرف كيف يرسم زهرة.

– ولن يعرف عبده ولا أيُّ رجلٍ من "خوف"، تُطمئنها أمينة. إذ يبدو أن الخالق، وقد وصل إلى نهايةِ المطاف، لم يبق لديه ما يكفي من الطين ليصنع رجالاً من الصنف الأول، فعمل من غير إتقان، وتَدبَّر أمر البيوت والرجال بما وجد في عين المكان. رجال خشنو الملمس في حين أن ملمس الفرنجي ناعم.

– إنهم أكثر نعومةً لأنهم يستحمّون، فهم يستحمّون صباحاً ومساءً حتى في فترات الجفاف و"الخماسين"، وحتى حين تكون الآبار جافة.

– لأن عندهم آباراً؟

– عندهم كلُّ ما خلق اللهُ عدا الجِمال والجراد. ولا بدّ أن عبده يعرف ذلك الآن وقد تزوج الغريبة.

– هل تعتقدين أنه "خَرَقَها".

– لم يسمح الوقت لهما بذلك، فقد ذهبا في الصباح وعادا في المساء.

– مع أنّ ذلك من حقه. إذا ما شاء فرض، ومِئَةُ عصاً للتي تتمنّع عن زوجها. ربما تكون قد خمدت همّته. إذ ليس من السهل تجريد هؤلاء النسوة من الثياب، فسراويلهن مشدودةٌ إلى حَدٍّ أن المرء يُجازف بنزع الجلد مع القماش.

– أخفضي صوتكِ، نَصَحَتْها نور، يبدو لي أنها تسمعنا.

– إنها نائمة. هذا واضحٌ من قدميها اللتين اعتراهما الشحوب، ففي النوم شيءٌ من الموت.

- والكثير من النوم في الموت، أكملتْ نور كما بلهجة الملهَمين.

تبذلين جهداً كبيراً كي لا تضحكي. يُهدهدك صوتُهما فتفسحين المجال لمعتقدات كنتِ ستصفينها بالبالية قبل أقلَّ من شهرٍ أن تطغى عليك. بعيداً عنّ بلدكِ، عن الرجل الذي كنتِ تُحبّين، وعن أصدقائك، تتبادلين مع الاثنتين التأثر والتأثير، تتبنَّيْنَ أكثر فأكثر خرافاتهما، ويَبْعُدُ الغربُ عنكِ بِقَدْرِ ما تتخبّط خطواتكِ في إثْرهما. أما حياتكِ الماضية فلم يبق منها سوى حديقةٍ صغيرة لا شَكَّ أنها ماتت لأنّ أحداً لا يقوم بسقايتها، ومُواءِ قطٍّ يخافُ حلولَ المساء، وفسحة مزجَّجة تحيط بها رتابة الحياة. للأخيلة التي يلتقفها مدخل المترو كتفٌ منخفضةٌ أكثر من الأخرى لفرط ما حملت من حقائب مدرسيةٍ ومؤونةٍ وأطفالٍ رُضَّع.
يحمل الغربُ ثقل العالم على ظهره.

الفصل السابع عشر

تَلطَّف الجوُّ فجأةً، وذاب الثلج مُخلِّفاً وراءه لُطخاً من جليد نسيته الشمس. أمينة التي تتبعكِ لم تكفَّ عن التذمر. الطعام الذي تُعدُّه نور ثقيلٌ على معدتها. عدسٌ وحِمَّصٌ لا أكثر في حين أنها تحلم بالدجاج المشوي والخراف المحشوَّة، وبالباذنجان والكوسا مطبوخةً على البخار في أسوأ الأحوال. إنها تنتفخ وتتدوَّر من كل الجوانب، وأكثر فأكثر تشبه البطيخة، وسوف ينتهي بها الأمر إلى أن تتدحرج عوضاً عن أن تمشي.

تُذكِّرينها بأن لا ذنب لنور في الأمر، وأنّ أرض "خوف" لا تُنبت سوى الصَبَّار والشوك الصالحَيْن علفاً للحمير.

– الحمير وسكان "خوف"، أوضحتْ بسوء نيَّة.

تتوقف فجأةً، تضغط يدُها على ذراعكِ، تشير إصبعُها إلى كومةٍ من الحجارة، ثمَّ، وقد تَسَمَّرتْ على كتلةٍ من الجليد، تُحدِّق فيها بعينين مذعورتين.

– هل أعطيتِ الشيخَ رسالة المُلاَّ؟

تعترفين بأنه رفض أن يستقبلكِ وأنه حوَّلكِ إلى القاضي.

- وماذا قال القاضي؟

- إنّ رجم نور لا يعني إلا زوجها، وكاد أن يطردني. فصراع الديكة الذي كان حَكَماً فيه كان يستولي على كامل ذهنه.

- كلُّهم جبناء، قالت تهزأ بهم، ثم بصقت على الأرض.

ونسيت دفعةً واحدةً الضأن المحشوّ والفرُّوج، نسيت الباذنجان والكوسا، وشمَّرت عن ساعديها، وطلبتْ منكِ أن تساعديها على تنظيف الساحة.

كمثل رجلين آليَّيْن، تنحنيان بحركةٍ واحدةٍ، تتناولان الحجارة ثم ترميانها في اتجاه الحقول المجاورة، وتقومانٍ بذلك حتى اختفاء آخر حجرْ. تتصببان عرقاً ورغم ذلك ترتعشان من البرد، وبشكلٍ أخصَّ من أن يُمسك أحدٌ بكما مُتلبِّستين بفعلتكما. والآن وقد تبعثرت الكومة في البرِّيَّة، فإن نوراً لن تُرجم. عندما وصلتما إلى بيتها تظاهرتما بالابتهاج، وطلبتما بإلحاح حساء العدس اليوميّ، وسَلَطَةَ الحِمَّصْ، وأكلتما بشهيةٍ حتى أن أُمينة لحست قعر الصحن. أنتما تمضغان وهي تُحدِّثكماً عن حديقتها وعن جنينها مستخدمةً الكلماتِ نفسَها للحديث عن الطفل وحبات الكوسا والباذنجان. وميضُ اللهب في الموقد يضيءُ وجوهكن؛ وجهَ نور النحيل، ووجهَ أمينة المُدَوَّرَ مثل قمرٍ في ربعه الأخير، ووجهَكِ الشاحب مثل قناع بالمقارنة مع وجهيهما. الصوت القادم من الدَوَّار يتحوَّل إلى ضوضاءً كلما اقترب منكن. ثم يصطفُّ الحشد المسلح بالمشاعل على طول السياج. لا شيء سوى اللهب والأفواه المزمجرة. لقد جاؤوا طلباً للانتقام يُنذرون نوراً بأنهم سيُحرقونها حيَّةً إن لم تُعِدْ كومةَ الحجارة كما كانت. أنتِ وأمينة على

استعدادٍ لمواجهتهم، ولكنّ نوراً تُرسل بكما إلى الداخل، وتبقى هي في مواجهة العُتاة وزئيرهم منتصبةً، لا يرفُّ لها جفنٌ، لا تنبس ببنت شفة، ولا تردُّ على السُباب. كانت، وهي تُحدِّق في الطريق من فوق رؤوسهم، تمثالاً من الكرامة متسربلاً في ثوبه المهلهل.

هل كانت تأمل في أن ترى خيال الذي حملتْ منه؟ أمام مشهد هدوئها توقفت الجلبة دفعةً واحدةً وتهشمت على الأرض الصيحاتُ وهتافاتُ القتل، فرحلوا هم ومشاعلهم. هل كانوا أربعين أم خمسين؟ صِبيةٌ لا غير. فأهل "خوف" أجبن من أن يواجهوها، ولذا أرسلوا صِبْيتهم.

وَقْعُ خطاهم لا بدَّ أفزع الحُباحِبَ التي خرجت حشودُها من شجرة الصبار لترتمي في المصباح الذي كانت نور ترفع فتيله وهي تلومكما على بعثرتكما حجارة القَصاص؛ فالمسُّ بكومة الحجارة فادحٌ كهدم القبور. صوتُها خفيضٌ مثله مثل النار التي تجهد كي تتَّقد من جديد.

الفصل الثامن عشر

تعرف نور النبتات الصغيرة الخضراء التي ظهرت في حديقتها من الرائحة. رائحة الطماطم اللاذعة، والمخادعة التي للكوسا، ورائحة الحبق الحادة، أما الباذنجان فيفوح برائحة دخان السجائر. لقد ابتعد الزمن الذي كانت تنتظر فيه الموت، كما أنها نسيت المسرحية الخسيسة التي أخرجها الأهل ولم يُحسن الأولاد تمثيلها. فنباتاتها تنمو بنفس الوتيرة التي ينمو بها جنينها. وتحتفل هي بالحدث، تُنظِّف كوخها جيِّداً وتستحمّ. أما الشيخ والقاضي فلم يعودا يُعيرانها أيَّ اهتمام. إنهما يواجهان مهمةً صعبةً منذ أن اغتُصبتْ مراهقةٌ وهي في طريقها لتمتاح الماء من البئر.

"ليلةَ سقط الثلج"، تقول أمينة للتحديد.

لقد وصلت إلى المركز محوطةً بأبويها تتبعها القرية بأكملها. الصبيان يضحكون متهكمين، والبنات يُقهقهن من وراء راحات أكفِّهن. فعلاوةً على الاغتصاب هنالك حَمْلٌ عمره أربعة أشهرٍ. والدكتور بول متأكدٌ من أن سقوط الثلج كان منذ أسبوعين.

ولأنها غير قادرةٍ على وصف المعتدي تترك لأبيها أن يتكلَّم عنها:

فالذي اغتصبها رجلٌ أوروبيُّ الشكل كان يقود سيارة "جيب". أما الأم فتتّهم الشيطان؛ الشيطانَ وحده، ولا أحد سواه، هو الذي ألقى ابنتها حُبلى. يتعاطف الناس مع الأم، لكنْ لا أحد منهم يُصدِّق الأب. لقد اخترع القصة كلها. فالرجلُ صاحبُ سيارة "الجيب" لم تطأ قدماه الدَوّار منذ أشهر. لقد توقف مشروعه بسبب انعدام التمويل، وأكياس المؤونة المخصصة له تنتظره في المخزن. رجلٌ محترمٌ متحفِّظُ شديد التهذيب، يقول عنه المسؤول.

تتذكرين الذي أوصل نوراً إلى الذروة حين كانت "الخماسين" تثير زوابع من الرمل حولهما، وتُمزِّق بسهامها جسديهما الملتحمين تحدوهما الرغبة نفسها، ونفس الاهتياج.

لا فائدة من استجواب الابنة في غياب أبيها؛ فهي تُواجه الأسئلة بالصمت نفسه، وبنفس النظرة الخائفة.

في المساء، بعد رحيلهم، كان الألم بادياً على وجه الدكتور بول، فيما كان مساعدُه جذلاً. كونزاكيس لا يُحبُّ أهل الدَوّار، ولم تعدْ لديه رغبةٌ في أن يساعد أحداً. إنّ الثلج الذي هطل بكمية كافية ليَّنَ الأرض، وسيكون بإمكانهم أن يحرثوا ويزرعوا ويحصدوا. ليس علينا إلا أن نحزم أمتعتنا ونذهب إلى مكانٍ آخر.

الغريب في الأمر موافقة رئيس البعثة؛ فلقد تعب من الهرولة من بلدٍ إلى بلدٍ، تعب من مقارعة الجوع والجفاف وأمراض العالم الثالث، وهو يرغب في العودة إلى بلده وبيته المبنيِّ قبالة البحر، وأن يجتمع ثانيةً بزوجته وأولاده وأحفاده.

بردٌ قارسٌ يجتاح صدركِ. فعندما يرحل العاملون في حقل الإغاثة

الإنسانية ستضطرين إلى ترك نورٍ لقَدَرِها؛ للشيخ وأهل "خوف" الجاهزين للعودة إلى العمل بالفتوى التي تتهدّدها. قرارُ شَدِّ الرحال ينزل عليكِ كالصاعقة، وتختنق في حلقكِ الكلماتُ لضحده، وليس لكِ إلاّ أنَ تَهُزّي رأسكِ يميناً وشمالاً، وتُواصلي ذلك، في حين أنّ أحَداً لم يطلب رأيكِ.

الفصل التاسع عشر

قرارُ رفاقكِ بمغادرة "خوف" ألقى بكِ في حالةٍ من الاضطراب الشديد. تَهيمين في الشارع على غير هدىً منكِ، ولا وجهة لكِ تقصدينها، من دار البلدية في أقصى الدَوَّار إلى المقبرة في أقصاه، بمحاذاة الأبنية التي شُيِّدتْ على امتداد الطريق نفسه. بعد أن تجاوزتِ آخر البيوت تتوغلين في الحقول بعيداً عن الأطفال والكلاب رفاقِهم في الفظاظة. ما من بالغ واحد على مدِّ البصر؛ فالأهالي الذين حبسوا أنفسهم وراء جدرانهم يُريدون أن يَصُمُّوا آذانهم عن المشاجرات بين الصبيان والبنات. بالأمس وقع طفلٌ صغيرٌ أرضاً أمامكِ. ساعدته على النهوض ومسحت بمنديلكِ الدم الذي كان يسيل من ركبته. تَوَقَّفَ بكاؤه بفضل سُكَّرةٍ وجدتِها في جيبكْ. فتشكَّلَتْ جمهرةٌ حولكَ، وتَعلَّقتْ قرابةُ ثلاثين يداً صغيرةً بثوبكِ. وَعَدْتِ بأن تعودي، ولكنّ أحداً لم يُصدِّقكِ. تبعوكِ إلى آخر حدود الدَوَّار. الصيحات الحاقدة نفسها، ونفس صراخ الليلة التي هجموا فيها بمشاعلهم على كوخ نور في استعدادٍ لإحراق جدران المرأة.

اندفعتِ إلى مكتب الدكتور بول الذي كان يُرتِّب ملفَّاته لإخلاء

المركز، تطلبين منه أن يسمح لك بالاستفادة منه. هل فعلتِ ذلك للإفلات منهم أم لكي تُقَدِّمي لهم حياة أفضل؟

تشرحين عندما رأيتِ عينيه ترمشان:

– أنا باقيةٌ في "خوف".

– لكي تفعلي ماذا؟

– لكي أفتح مدرسةً.

– مدرسةٌ في الصحراء؟ لا توجد بنايةٌ واحدةٌ جديرةٌ بهذا النوع من الأمور.

– المخزن سيفي بالغرض.

– مدرسةٌ بدون مقاعد ولا مناضد ولا محابر؟ لن يقبل معلّمٌ واحدٌ أن يجيء إلى هذه الحفرة.

– أنا سأُعلِّم. وستساعدني أمينة. سيجلس الأطفال على حُصُرٍ على الأرض، وسترسل أنتَ لنا كتباً ودفاتر وأقلاماً؛ كثيراً من الأقلام.

– ومَنْ سيدفع لكِ أجركِ؟

تَحُكِّينَ رأسكِ بحثاً عن الجواب الذي يجيء مصادفةً من فم أمينة التي وصلت للتوّ.

– الأهالي هم مَنْ سيدفعون، سيدفعون خُضَراً وفواكهَ، فلقد نزل المطر.

ها أنتما من جديد إحداكما في حضن الأخرى تبكيان من شدة التأثر تحت أنظار الطبيب العجوز القصير النظر. لقد أصابه قرارُكِ بالذهول؛ فهو لا يفهم دوافعك، ولا يخطر بباله خوفكِ من العودة إلى بيتٍ خالٍ أو أن تتركي نوراً لِقَدَرِها.

كنتِ تعتقدين مخطئةً أنكِ تكرهين "خوف"، وها هي ذي إمكانية بقائك فيها تُغيِّرك بشكلٍ كامل. فعملُكِ لم يكن ولا لمرةٍ خفيفاً عليكِ كما هو اليوم. تُرَحِّبين بكل المطالب، وكلُّ ما يُسَرُّ لكِ به يبدو لكِ معقولاً مهما اتّصف به من غرابة. فأنتِ هنا لكي تُصغي إليهم وتجدي حلولاً لمشاكلهم.

المُؤذِّن ليس سعيداً؛ فلن يستطيع ابنه أن يخلفه. لقد أضرَّ بخصوصيّتِه مرضُ النكاف الذي لم يُعالَج منه جيداً، فلم يخشوشن صوتُه، وأنت الوحيدة التي تستطيعين أن تُشفيه. الشراب المضاد للسعال الذي تركه الدكتور بول يعود عليكِ بألف شكر. أما هو فسوف يَخُصُّكِ غداً بأولى دعواته.

يُربككِ طلبُ رجلٍ عجوز؛ فأنتِ لا تملكين علاجاً قادراً على أن يُعيد إليه عمامته التي اقتلعتها الريح. تَعدينه بأن تمضي للبحث عنها ابتداءً من المساء. تشتكي أمُّ ثلاثة أطفالٍ مصابين باليرقان من عدم جدوى التعويذة التي أعطاهم إياها واحدٌ من الملالي يَعَدُّونَهُ من بين الأولياء الصالحين. فالورقة التي كتبها بخطِّ يده، والتي تَمَّ نَقْعُها في ماء النبع ثم ابتلعها المرضى الثلاثة، لم تأتِ بأيِّ نتيجة. إنهم ما يزالون صُفراً كالرمل، كـ"الخماسين"، كفِراء كلاب "خوف". تعترض جليلة العجوز على الحبوب التي تنصحين الأم بها، فهي تُفضِّل عليها كَمَّادات من البصل المَغليِّ تُلصق على الخصر.

أنتِ لا تعارضين ولا تعترضين، أنتِ جاهزةٌ لمقاسمتهم كل معتقداتهم، وللنهوض بدور الطبيب والمعلِّمة في آنٍ واحدٍ كي لا تبتعدي عن نور.

الفصل العشرون

رحلوا ومعهم أمتعتهم القليلة التي تُختزل في ما هو ضروريٌّ: سماعةُ الطبيب، مقياسُ ضغط الدم، ومحاقنُ رُتِّبتْ في عُلَبِها من جديد. وجودهم لم يعد له فائدةٌ بعد أن قامت المجموعات المسلحة بين العاصمة و"خوف" بسلب المواد الغذائية. هم بمثل عَوَزِ هؤلاء الذين يُفترض أنهم جاؤوا لمساعدتهم، ولذلك فضَّلوا الرحيل: الدكتور بول إلى بريطانيا، وكونزاكيس إلى باريس، أما بقية الفريق فقد تَوَزَّعَتْهم جمعياتٌ شتَّى غير حكومية. حاول الطبيب العجوز إلى اللحظة الأخيرة أن يُعيدكِ إلى رشدكِ. فأنتِ لن تصمدي أمام الشيخ الذي يستهجن رغبتكِ العنيدةَ في إنقاذ نور من الموت، ولا أمام القاضي الذي يتّهمكِ بانتهاك الشريعة. لقد أوصد كلاهما الباب في وجهكِ عندما حملتِ لهما رسالة المُلاَّ. "اتركيها عند العتبة".

إنه الأمر نفسه، يُدوِّي به الغضب في صوتيهما طالعاً من آلاف السنين.

نور وأمينة وحدهما اللتان تتمنّيان بقاءك في "خوف". أما الأهالي فقد نظروا إليكِ بعين الريبة وقد تحوَّلتِ إلى معلمةٍ تتصرَّف بما تَبَقَّى من

الأدوية، ويُرسلون لك، مع ذلك، أولادهم، يُسعدهم أن تُخلِّصيهم منهم، أو لكي يتجسَّسُوا عليكِ.

لم يَنْتَبْكِ البكاءُ لمرأى السيارة التي رحلت بالطبيب العجوز وفريقه؛ فقد ذرفتِ دموعكِ كلها في نفس اليوم على رجلٍ وقطْ: الأول عاد إلى العيش في بيته، والثاني دفنْته بيديكِ هاتين في زاويةٍ من حديقتكْ. ""خوف" لا تُحِبُّكِ. "خوفَ" لا تُحِبُّ عينيك الزرقاوين. زجاجٌ يعكس السماء"، قالت لك جليلة العجوز.

"خوف" لا تعرف أن تُحِبَّ، تقولين في نفسكِ. قلوب أهلها الذين تتجاذبهم المدينة والصحراء، ويتجاذبهم الصقيع وموجات الحرِّ، والجفاف والأمطار الشبيهة بالطوفان، قلوبٌ متحجرةٌ كالأرض التي تدوسها أقدامهم. المرارة تسكنهم منذ أن صار جبلُهم أخرسَ تحت ضربات معاولهم. المرارة والكآبة، منذ صارت القوافل المُحَمَّلَةُ بالبهارات وخشب الصندل والملح والحرير التي تجوب الصحراء لا تتوقف في ساحتهم. فالجَمَّالون الذين جعلوا منها محطةً للراحة تركوا مكانهم للمتسولين، وللرياح تُعيد تشكيل الكثبان كما يحلو لها. رياحٌ عَصِيَّةٌ على النبوءات، بمقدورها أن تُحَوِّل مسارها في لحظةٍ، وأن تتنكر في زيٍّ عاصفةٍ ثلجية أو زيٍّ "الخماسين".

حتى الوحوشُ هجرتْ "خوف"، أكَّدتْ جليلة التي لا تُحِبُّ "خوف" لأنها وُلِدت في غير مكانٍ، ووُلِدت قبل "خوف"، وقبل الصحراء كما يجزم البعض. فالذئاب تفضّل الموت جوعاً على مهاجمة كائنات هزيلةٍ هزال ماشيتها، والثعالب تزدري دجاجها الذي لم يبقَ منه غيرُ الريش.

جليلة المولودة في مكانٍ آخر، في الجهة الأخرى من الجبل، لا تفهم سعيكِ العنيد لإنقاذ امرأةٍ لن تكون أول مَنْ تُرجَمُ، ولن تكون الأخيرة.

وحتى نور تتساءل عن السبب الكامن وراء سعيك الضاري للدفاع عنها. كانت دهشتها عظيمةً عندما أخبرتِها أنكِ التقيتِ زوجها.

أنتِ رأيتِه في وضح النهار؟ وكنتما أنتِ وهو ولا أحد سواكما، و لم يضربكِ، لم يكسرْ لكِ ساقاً و لم يفقأْ لكِ عيناً؟

– لم يحدث شيءٌ من هذا. حتى أنه صرّح بأن موتكِ لم يَعُدْ يهمه منذ أن أصبح غنياً.

– مُحا غنيّ؟

انتابتها نوبةٌ من الضحك المتواصل هزَّتها من رأسها إلى أخمص قدميها حتى كادت تتدحرج أرضاً. فآخر ما سمعتْ من أخبارٍ تقول إن مُحا باع نافذتيه بعد أن باع بابه لكي يُسدِّد ديونه من القمار.

– وماذا قال أيضاً؟

نور لا تشبع.

– إنّ مشروعه ناجحٌ بشكلٍ مذهل. لقد أصرَّ على أن أزور معه ما يُسمِّيه كازينو؛ كوخاً مثل بقية الأكواخ، ليس بالأجمل ولا بالأبشع، الأخير في الدوار، ملاصقاً للصحراء. أما الروليت، فطشتٌ كان في الأصل يُستعمل للوضوء، وقد ركَّبه أحد الماهرين في إنجاز الأعمال اليدوية على مُحرِّكٍ يعمل بالماء. ينطلق الطشت عند ملامسته، ويتوقف عندما يحلو له عند أحد الأرقام المرسومة بالطباشير. أنظارُ الرجال الجالسين القرفصاء على أرضيةٍ من ترابٍ مرصوصٍ لا تبارح الأرقام

الاثني عشر فيما عيونهم تدور بالإيقاع نفسه الذي يدور به الطشت وهم يحبسون أنفاسهم. أما مَنْ ينفخ على الكُرَيَّة للغشِّ فإنه يُرمى به إلى الخارج.

تصطفق السراويل مثل أعلامٍ في الريح عندما ينهض الرجال وقوفاً لكي يعلنوا ربحهم أو خيبتهم. ويُحمَل الرابحُ على الأكتاف حتى الحانة حيث يُغدق الشرابَ على الجميع؛ فيسيل العَرَقُ أنهاراً، وكذلك نبيذ النخيل. أما المشروبات الروحية الحقيقية فغير موجودةٍ، ولذا يكتفون بماء الكولونيا.

آخر أسئلة نور التي تحافظ على هدوئها:

- إلى أيِّ حدٍّ هو غنيٌّ مُحا—ي؟

- إلى الحَدِّ الذي يسمح له بأن يُوصيَ على نافذتين عند نَجَّار "خوف".

أجبتِ من دون تفكير.

الفصل الواحد والعشرون

تُكرِّرين، واقفةً أمام السبورة التي نصبها عبده، للمرة الثالثة، أحرفَ الأبجدية الثلاثة الأولى. تُكرِّرينها للتلاميذ الثلاثة الجالسين مُتَرَبِّعين على الأرض مباشرةً؛ فالآخرون يُفضِّلون حضور الدرس من خلال فتحة الباب أو جاثمين على سور النافذة. إنهم سيتخذون قرارهم بعد التفكير، قال الناطق باسمهم، الولد الطويل الحليق الرأس ذو الاثني عشر ربيعاً.

آ، بي، سي. حرفٌ لكلِّ تلميذ. اللطفاء الثلاثة يُحدِّقون بعيونٍ محملقةٍ دون أن يخرج صوتٌ واحدٌ من أفواههم. فالآخرون هم مَنْ يُجيبونَ عوضاً عنهم. هل يُعقل أن يكون الهواءُ في الخارج أكثر ملاءمةً للتعلُّم، وأن يضغط هواء المخزن الأدمغةَ الصغيرة؟

"برافو!".

ينتعش "الكسالى"، فيتبادلون النظرات للتشاور في ما بينهم. يجتازون الباب والشُبَّاك، ثم يتدافعون ليحتلُّوا الصف الأول ويجلسوا أقرب ما يمكن من السَبُّورة التي يبدو أنها تسحرهم. تُشَجِّعينهم، تكتبين أحرفاً أخرى، وأخرى مرةً ثانيةً، ثم تبحثين عن إسفنجةٍ

تمسحين بها ما كتبتِ لتبدئي من جديد. لا إسفنج في "خوف". حزمة الأعشاب الجافة التي ناولكِ إياها ذو الرأس الحليق تفي بالغرض. ينتفخ صدره زهواً، فينتفخ معه قميصه القطنيُّ الذي يتربع عليه "ابنُ لادن" في صورةٍ له بالأبيض والأسود.

- هل تعرفون مَنْ يكون "ابنُ لادن"؟

يَقلبون شفاههم. لا أحد يعرف.

القمصان القطنية التي تزيّنوا بها بمناسبة دخولهم إلى المدرسة عطيّةٌ من الشيخ. و"خوف" كلها تلبس الجديد منذ الصباح.

تستعرضين الصدور الأخرى، وتكتشفين أسماء مشاهير آخرين، وشعاراتٍ أيضاً، "كاسترو مدى الحياة"، "تشي غيفارا لا يموت"؛ ثم جنباً إلى جنبٍ "أُحِبُّ أمريكا" و"بوش اللعين".

"كاسترو"، "غيفارا"؟ لم يسمعوا بهما بتاتاً، في حين أنهم يعرفون "بوش" الذي يرسمونه، وأعينهم مغمضةٌ، ذا ذَنَبٍ طوله بطول محيط المدرسة ثلاث مرات؛ "بوش الشيطان".

يُغادرون المدرسة دونما استئذان، لا يُطيعون في ذلك سوى مَعداتهم؛ فرائحة الأَرُزِّ المطبوخ بالكمّون والكركم مُلزِمةٌ لهم، مِثْلُها مِثْلُ صوت المؤذن عندما يدعو للصلاة. الهواء المنعش في الخارج يُعيد لهم كامل حيويتهم فيتدافعون، ويصطخبون بعضهم على بعض، ويتنادون بأسمائهم فتسمعين أسماء زاهي وزاد وزين دون أن تعرفي أيَّ الأولاد من بين العشرين هم أولاد نور.

يتفرقون في كلِّ الاتجاهات، ويتركونك وحدكِ مع حليق الرأس الذي يعتبر نفسه، في ما يبدو، معاونكِ منذ أن أعاركِ حزمة أعشابه

الجافة. أتُراه يُعوِّض أمينةَ التي غابت كلَّ الصباح لينفض الحصير بهذا القدر من النشاط، ويكنس الأرض، ثم يسقيها بماء الجَرَّة؟ سيعود إلى بيته في نهاية اليوم حين يعود الطقس لا بارداً ولا بالحارّ. الدَوَّار الذي يقطنه في الجهة الأخرى من الجبل، بالقرب من الجسر قيد التشييد. ولكن أعمال البناء متوقفةٌ في الوقت الحاضر، فالمهندس الذي سافر إلى فرنسا ترك سيارته وثيابه في حظيرة الأشغال. وسوف يعود.

كل هذه المعلومات دون أن تطرحي أيَّ سؤالٍ. تُشجِّعينه على أن يُزوِّدكِ بأخبارٍ أكثر جِدَّةً عن الرجل صاحب سيارة "الجيب" عندما يحصلَ على شيءٍ منها.

غادر "رحيم"، هذا هو اسمه، الدَوَّارَ عندما بدأت الشمس تنحدر باتجاه الأفق، لا على الأقدام، كما كنتِ تتصورين، بل على ظهر حمارٍ؛ حماره هو، حماره المربوط إلى جذع النخلة. لقد امتطى حماره بقفزةٍ واحدةٍ ثم انطلق مثيراً بحوافر الحمار جَلَبَةً مثلما يفعل أيُّ شابٍّ باريسيٍّ بدراجته النارية، في حين حلَّ نهيقُ الحمار البهيجُ محلَّ دويِّ الفولاذ.

ولمّا كان الليل قد حلَّ بشكلٍ مُبْكرٍ أكثر من المعتاد، فقد تساءلتِ عما آلت إليه أمينة. هل قلتُ لكم إنَّ أمينةَ فتاةٌ لا هي بالشابة ولا بالكَهلة، "قِدْرٌ لم تجد غطاءها"، كما يقولون في البلد، إلا أنها لا يبدو عليها أن عنوستها تزعجها. وهي تتناول أكلها عند هذا أو ذاك، وتغتاب هذا في حضور ذاك، ولا عمل لها، لا عمل لها مطلقاً، فتجعل من حياة الآخرين حياةً لها، وقد وَجدتْ معنىً لحياتها في رفقة العاملين في حقل الإغاثة الإنسانية الذين سَلَّموها المسؤوليات بالإضافة إلى أنهم

وفَّروا لها المأوى؛ وتعرف أنها ستكون عاطلةً عن العمل من جديدٍ عندما يرحلون، وأن السماء ستمطر، وأنّ الجفاف سينهزم.

نبتَ العشبُ قصيراً في كلِّ مكانٍ بعد أن امتلأت الآبارُ ماءً ولَيَّنَ المطرُ الأرض المُشَقَّقة. عشبٌ يتنفس مع الريح.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما فاجأتكِ أمينة بالدخول إلى غرفتكِ وأنتِ تكتبين الرسالة ذاتها إلى مؤسسات عديدة تطلبين منها أن تُرسل لكِ كتباً ودفاتر وأقلاماً، ولا تطلبين مَمَاحِيَ لأنَّ الأعشاب الجافة تفي بالغرض بشكلٍ كامل. رسائلُ ستعهدين بها في الغد إلى عبده الذي سيُودعها بريدَ المدينة مُعَنْوَنَةً باسم "النجدة الكاثوليكية" و"الصليب الأحمر" و"صحابة إيماووس".

تُواصلين الكتابة أمام التي لا تتوقف عن الكلام؛ فصمتُك بعيدٌ عن أن يُثبِّطَ من عزيمتها، لا بل يجعلها أكثر ثرثرة. لقد فكَّرتْ مليّاً قبل أن تختفي طيلة اليوم. إنها تَمقتُ الأطفال؛ فأطفال الدَوَّار أو الذين سيتدفقون من الدَوَّارات المجاورة ليسوا سوى بذور إرهابيين وبذور جهاديين وقَتَلَة في المستقبل، جاهزين للمجيء إلى المدرسة بأحزمة ناسفة، وستُفجِّرُ قاعةُ الدرس وتُقتلين أنتِ. أتُراها تعتقد أنكِ أُصبتِ بالصَّمم كي تصرخ ملء أذنيكِ أنها ذاهبةٌ إلى بيت نور، وأنْ ليس عليكِ إلا أن تلحقي بها في حال استعادة لسانكْ.

قبل أن تجتاز العتبة ترشقكِ بقولها إن مدرستكِ لن يطول بها الوقت حتى تصبح حظيرة خنازير وحاوية قمامة ذات أربعة جدرانٍ، لأن الذين تُسَمِّينهم تلاميذ ليسوا سوى أراذلَ وكومةٍ من القاذورات. وقد أُعْذِرَ مَنْ أَنْذَرْ.

الحركة البذيئة من يدها، هل تُراها وجَّهَتْها إليكِ، أم للرعد الذي يُدوِّي فوق الصفيحة المُضَلَّعة التي تقوم مقام السقيفة؟

أمينة لا تستسيغ ما آلت إليه حياتُها؛ حياةٌ أشبه ما تكون ببيتٍ من دون أثاث أو بيت بلا نوافذ. إنها تدور في حلقةٍ مفرغة، لا تجد ما تفعله بأيامها. وهي تُفضِّل الزمن الذي كان يقع فيه كل شيءٍ على عاتقها عندما كان عليها أن تتولى تنظيف المركز بكامله، أن تُصارع الرمل المتسلل من تحت الأبواب، وبيوت العنكبوت، والنمل، والعقارب التي تجذبها برودة المكان؛ عندما كان عليها أن تبتكر أطباقاً لفريق العمل كلِّه، أطباقاً ليست من الأطباق في شيءٍ، لا طعم لها ولا أصل، ولا تصلح لشيءٍ سوى ملء المعدة.

الفصل الثاني والعشرون

يصل الذين اعتادوا النوم مبكِّراً إلى قاعة الدرس بعد صياح الديك، أما الذين اعتادوه متأخراً فيصلون بعد أن يُرفع الأذانُ، وبعدهم أولئك الذين تفيض بهم الدَوَّارات المجاورة، فيُقدِّمون لكِ بيضةً أو سنبلة قمح أو جناح دجاجة، أجرةً لكِ مقابل الدرس. وكنتِ قد قمتِ بتقسيم جمهوركِ إلى ثلاثة أصناف؛ الهائجون وشديدو الهيجان والعنيفون. وحدهم أولاد نور خرجوا عن التصنيف، إذ إن زيد وزاد وزاهي ينامون ووجوههم مُثَبَّتةٌ على مرافقهم . هل في الأمر مدعاةٌ للقلق؟ ولَمَّا كان النُوَّمُ الثلاثة غير قادرين على شرح الموقف فقد تكلَّم رفاقهم عوضاً عنهم.

"إنهم يعملون ليلاً".

"يُساعدون أباهم في الكازينو".

تتأرجح الرؤوس الثلاثة علامةً على الموافقة في حين تُكمل العيونُ نومها في ظلِّ الأهداب الحريرية الطويلة؛ نفس أهداب أمهم، ونفس لون عينيها الخضراوين. فتحوا أعينهم مذعورين عندما صفَّقتْ يداكِ إعلاناً عن نهاية الدرس، وأفاقوا مكفهري المزاج، فتكرَّموا وأخبروكِ

بما يمارسونه من أعمال في محلِّ أبيهم. زاهي يترصَّد الغشاشين، ويفرز زيد الذين يترشحون للعب، فيغلق البابَ في وجه الذين يتأخرون في تسديد ديونهم، ويُغلقه بشكلٍ أخصّ في وجه الذين يربحون أكثر مما يخسرون، وزاد هو القائم على حصَّالة النقود يُكوِّم الدراهم في علبة بسكويتٍ قديمة.

تصرفين التلاميذ أبكر مما هو مُحَدَّدٌ، أما السبب فخفاشٌ زرع الذعر وجعل الأسرع من بينهم يلوذون بالفرار. صوتُ الأجنحة وهي تتخبط فوق الرؤوس شبيهٌ بطقطقة العظام، والجبسُ الذي يتفتت، كل ذلك أصابهم بالهلع فانبطحوا على الأرض وهم يعجبون لرؤيتكِ واقفةً، سلاحُكِ فردةُ حذائكِ، ترمين بها إلى الأعلى يميناً وشمالاً، وتُخطئين الهدفَ دوماً.

- عودوا غداً، صرختِ بهم من على العتبة.

أنتِ محبطةٌ؛ حزينةٌ ومحبطةٌ. وقد يكون من الأفضل لكِ أن تُوقفي كل شيءٍ، وأن تضعي المفتاح تحت ممسحة الأقدام؛ فرصيد اليوم: صفرٌ؛ إذ إن تصريف فعل الكون وفعل الملكية لن يملأ خزانة طعامهم، لن يضع حدّاً للجفاف الذي يمكن أن يعود في كل وقتٍ، لن يَشْكُمَ "الخماسين" التي تحجزهم في بيوتهم كالفئران، لن يوقف زحف الصحراء التي ما فتئت تتقدّم سنةً بعد أخرى تدوس البيوت بأقدامها الخرساء، فتُصيب الماشية بالعمى والنخيل بالهزال. تُباغتكِ ضحكةٌ ساخرةٌ صادرةٌ من ذروة النخلة تسيل على طول الجذع. تكتشفين، وقد رفعتِ عينيك إلى السماء، قدمين تتأرجحان في الفضاء، قدمين وسختين مُشَقَّقَتَيْن مثل حوافر الماعز. صوتُ أمينة

هو الذي يناديكِ. كيف فعلتْ لكي تتسلق إلى هناك؟ تصيح بك أمينة أنها لم يكن لديها الخيار. كان عليها أن تهرب من صخب تلاميذكَ الذين تصفهم بالخفافيش. والخُفَّاش فكرتها هي، لكي تُحرِّركِ من كل أولئك الحمير الذين ليسوا أقدر على استعمال حزمة قَشٍّ منهم على استعمال القلم، والذين يتبولون في سراويلهم لمجرد رؤية خُفَّاش. نزلتْ أمينة من مَجْثَمِها بعد أن أنهت خطابها. الخدوش التي تسببت بها لنفسها ليست مشكلةً، لأن ريقها داملٌ ناجع. لقد قررتْ أن تستقرَّ هناك في الأعلى بعيداً عن أهل "خوف" الذين تمقتهم. فالسنة التي قضتها في خدمة العاملين في حقل الإغاثة الإنسانية كشفت الغشاوة عن بصرها. لقد خُلِقَتْ لتعيش مع الإفرنج، لا مع أهل البلد المجانين كريح "الخماسين"، البؤساء مثلُ نخيلها العقيم الذي ليس بالذكر، ولا بالأنثى، ولا يشبه أيّاً من الشجر. فمَنْ يراه من بعيد يخاله مكانس واقفةً على مقابضها. وحقدُ أمينة على أهل "خوف" يعود إلى سنتها الخامسة، عندما وصلت هي وأمها من القرية المجاورة التي دَمَّرَتْها هزةٌ أرضيةٌ، فوجدتا نفسيهما مطرودتين باتجاه الصحراء. "ليرزقْكُما الله طعاماً وشراباً، إنه لا يتخلى عن خلقه، لا بل عمَّنْ ليسوا جديرين بذلك"، قال لهما الشيخ في تلك الأيام.

– وماذا حدث لأمكِ؟

الجواب حركةٌ من يدها تضرب الهواء خلف كتفها. فتستنتجين من ذلك أنها ماتت.

– أكان لكِ أبٌ؟

تقول إنه كان لها أبٌ حتى اليوم الذي أحرقها فيه بمحراك النار

لأنها باغتته مع امرأة أخيه الذي كان غائباً عن القرية. ومن يومها لا يُثير الحبُّ فيها سوى الشعور بالقرف. وضعيةٌ كوضعية تيسٍ وعنزةٍ، أو ديكٍ ودجاجة، الفرقُ الوحيدُ أن التيس والديك يستديرانٍ بعد المتعةً نحو السماءً، ويشكران الخالق بصيحةٍ أو مأمأة. أما الرجل فيستغفره ويدعوه أن يُبعد الشيطان الذي في وسعه أن يَلِجَ امرأته معه في نفس الوقت، ويصبح الأبَ الحقيقيَّ لأولاده.

حقدُها على الرجال يطول الأولاد، وعلى رأسهم أولاد نور الذين ترتاب في أنهم اقتلعوا باب أمهم بأيديهم. فمُحا أكسلُ من أن يبذل جهداً كهذا.

الفصل الثالث والعشرون

لا تخالط نور إلا نباتاتها التي تسقيها صباحَ مساءَ رغم تدابير الاقتصاد في الماء التي فرضها رئيس البلدية، وتُنَشِّفُ الماء عنها خوفاً عليها من أن تُصاب بالزكام، وتُكلِّمها، وتُمسِّح عليها، وتَعدُها بأن تحتفظ بها على سيقانها أطول وقت ممكن، وألاّ تقطفها إلاّ مُكرهة. وهي تردُّ عليكِ بحركاتٍ من رأسها؛ ولا كلام أبداً منذ أن أدخلت أمينة في روعها أنكِ تكتبين كتاباً هي بطلتُه؛ بطلتُه البائسة. فهي تريد أن ينساها الناس، ولا ترغب في شيءٍ سوى أن ترى طفلها ينمو، وتنمو نباتاتُها.

في المساء، عندما تتحول حديقتها إلى كتلة دامسة، تَحوك نور، غرزةً على الوجه وغرزةً على القفا، شيئاً يستطيلُ تحت طَقطقة إبرتيها، شيئاً لا يشبه شيئاً، فهو أوسع من أن يكون قميصاً لوليد، وأضيق من أن يكون سروالاً، وأطول من أن يكون جُراباً. وتبتسم هادئةً في صمتٍ للملائكة التي لا يراها أحدٌ سواها، دون أن يبدو عليها أنها تلاحظ وجودكِ أو وجود أمينة. وتردُّ نور على أسئلتكِ بالابتسامات؛ ابتساماتٍ تصل بخطٍّ مُنْحَنٍ بين فمها وأذنيها.

تشخيصُ أمينة:

- نور مسحورة.

- ما عليكِ إلا أن تفكّي عنها السحر.

تُجيب أمينة بحدَّةٍ أنها لا تأكل من ممارسات كهذه، أنها رائيةٌ لا ساحرة، وأنها تترك كتابة التعاويذ الضارَّة، والأذى من السحر للواتي يَمْدُدْنَ أيديهن إلى صحن الشيطان. أمينة لا تعمل إلا مع الملائكة، ولا تعمل مع الأرواح الشريرة التي تتقاضى أجرها من تحت الطاولة ولا تُصرِّح بشيءٍ لدائرة الضرائب.

قالتْ: "دائرةَ الضرائب"، قالتها بالفرنسية، وها أنتِ ذي تشهقين من شدة الضحك. أين تعلمتْ هذه الكلمة الفرنسية بامتياز؟

- من كونزاكيس، تعترف أمينة. كان يُكرِّر باستمرارٍ: "لن أُصرِّح لدائرة الضرائب بشيءٍ طالما أني أعمل في حقل الإغاثة الإنسانية".

- أهذا كل ما كان يقوله لكِ؟

تحمرُّ أمينة خجلاً قبل أن تتمتم أنه لم يكن يتكلم عندما كان يَسْتَمْني عليها أيام السبت بعد إغلاق المكاتب حين يذهب الدكتور بول لاستلام الأدوية التي أرسلها الصليب الأحمر، وتكونين أنتِ عند نور.

- يبدو أنّ الولد المسكين كان بحاجةٍ لأن يُنفِّس عن نفسه وإلا انفجر دماغُه، وانفجر معه أسفلُ بطنه.

- ألم يقل لكِ مرَّةً إنه يُحبكِ؟

- معاذ الله، أجابت أمينة في استياء.

ولماذا يُحبُّ أمينة السوداء كالفحم وخطيبتُه نُسجتْ من خيوطٍ من ذهبٍ، وعيناها زرقاوان بلون قبة مسجد الإمام علي؟ كان كونزاكيس يقضي حاجته، وكانت هي تُضحِّي بنفسها كي لا يصيبه المرض.

- ما كان عليه إلاّ أن يفعل ذلك في معْزاة.
- مستحيل. المِعْزاة تعيش في العراء. تُريدينه أن يعرض قضيبه على كل "خوف"؟

تعيب عليكِ افتقاركِ للمشاعر الإنسانية. لقد صرتِ قاسيةً مثل أهل الدَوَّار؛ قلبٌ من حجرٍ وجسدٌ من حجرْ، والدليل هو أنكِ لم تُكملي بالدُخْلَة زواجك من عبده.

كلمات أمينة تمرُّ تحت جفونكِ المغمضة من تعب النهار مثل سهام من نار. لم تُحاولي أن تُبرّئي نفسكِ بخصوص عبده. تُفكّرين بدلاً من ذلك في كونزاكيس الذي استغلَّ ثقة فتاة أخضعها لكلِّ نزواته. تَحْضُرُكِ الصور من الذاكرة نُتَفاً وقُصاصات. يصللكِ صوتُ المتدرب الفتيِّ يأمر أمينة بأن تُمَرِّر ممسحة الأرض تحت حذائه متفادياً تماماً رفع قدميه عن الأرض. غرٌّ متعجرفٌ لا يتجاوز الخامسة والعشرين يسحق باحتقاره لها فتاةً تجاوزت الأربعين. الاحتقار والتسلط ولَذَّةُ أن يرى الآخرَ على أربعٍ أمامه. إنه المستعمِر وقد بدأ يظهر خلف المتطوع في العمل الإنساني.

بعد رحيله ضيَّعتْ أمينة رشدها، وهجرت المركز حيث كان يُمكنها أن تُساعدكِ على المحافظة على النظام في قاعة الدرس. فالفتاة التي كانت في ما مضى غايةً في الرزانة أصبحت كالشلاَّء، تهيم على وجهها في الساحة، تدخل على حين غرة حانوتَ العطار، تشتري دوماً نفس قارورة الكحول، تبتلعها دفعةً واحدةً، ثم تمضي مترنِّحةً كسفينة في قلب العاصفة. يومَ أمسِ تَهَيَّأَ لها أنها تشاهد صديقةً في حين أن ما كان أمامها شجرةٌ، وضربتْ جبينها بجبهة حمارٍ تَهَيَّأَ لها

أنه الحلاق، فنصحته بأن يحلق لحيته مستقبَلاً بشكلٍ أفضل؛ ثم، وقد أدركت خطأها، لعنت الشجرة والحمار والحلاق وكل الذين كانوا يضحكون بأعلى صوتهم.

ضربت أمينة الأرض بقدمها أمام المغسلة وهي تكاد تُجنّ من الحب والمذلة قبل أن تخطب فيكِ أنه في هذا المكان، لا في سواه، كان كونزاكيس، "يُلقي بها من النافذة". والتعبير غير موفَّقٍ عندما تتفوه به، هي التي لا تملك نافذة.

هل كان عليَّ أن أتمنى لها أن تولد من جديدٍ على شكل سلحفاةٍ تحمل بيتها على ظهرها؟

– في هذا المكان بالذات، قالت أمينة للمرة الثانية. ذاك أن أمينة معطاء، والحجر في حديقتكِ رمتكِ به أنتِ، أنتِ التي تقولين ولا تفعلين.

تَكَرَّمَتْ أمينة بالشرح عندما رأتكِ مبهوتةً. عابت عليكِ لامبالاتكِ بالذين يُحِبُّونكِ؛ فأنت لم تُجيبي مرةً واحدةً على رسائل حبيبكِ الفرنسي ولم تُكملي بالدُخْلَة زواجك من عبده.

تظنين بها سوء النيَّة فتُذَكِّرينها بأن زواجكِ كان شكلياً كي تتمكني من الدفاع عن نور أمام المُلاَّ والقاضي. لكنّ أمينة ترى الأمور بغير عينيكِ؛ فالزواج، تقول أمينة، هو الزواج؛ إنه ارتباطٌ بين شخصين راشدين لا لَعِبُ أطفالٍ في مدرسةٍ كاذبةٍ فيها صبيةٌ سيئو التربية متنكرون في زِيٍّ تلاميذ؛ مستودعٌ أُعِيدَ توظيفُه كقاعة درسٍ يتظاهرون فيها بالتعلُّم في حين يخرج المرء منها برأسه فارغاً أكثر من ذي قبل. ومعلمة المدرسة الحقيقية أمٌّ في باطنها، تُكمل أمينة كمَنْ يُلقي

خطاباً. إنها تطبخ وتُعَلِّم في نفس الوقت؛ فيتمُّ مضغ أحرف الأبجدية وكُبيبات اللحم بالشهيَّة نفسها. لا بُدَّ لمعلمة المدرسة الحقيقية أن تكون متزوجةً؛ أن يكون لها رجلٌ في فراشها، فتعطي تلاميذها، من أمام السَبُّورة السوداء، مِمّا أعطاها من دلالٍ وكلماتٍ لطيفة، وتُعطي الحنان.

تنفجرين بالبكاء عندما لا تجدين ما تَرُدِّين به ضرباتها، فيرقُّ لكِ فجأةً قلبُ أمينة.

وكأرض "خوف" المشققة تحتاج أمينة الماءَ كي تلين، فتدفع بها دموعُكِ إلى حضنك حيث تبكي وحدتَها من خلال وحدتِكِ. أنتِ وحيدة مثلها، وحيدةٌ كالقمر بين النجوم، وحيدةٌ كمعْزاة نور الممنوعة من الرعْي مع مثيلاتها؛ وحيدةٌ ومزهوّةٌ بذلك لأن الكبرياء تخنق أنفاسكِ. فأنتِ لم تحتفظي من زواجكِ من عبده اللطيف إلا بدثاره؛ أي برائحته، أي بلا شيء. كمِثل أن يتغذى المرء برائحة الشواء عوضاً عن اللحمِ المشويِّ، تستخلص أمينة. غير أنّ كونزاكيس لم يترك لها ولو منديلاً ليكون لها شيءٌ منه؛ ولا كلمةً واحدةً لأنه لم يكن يتكلم سوى الفرنسية. إنها فقيرةٌ بالذكريات وفقيرةٌ بالكلماتْ، وهي أفقر فقراء الأرض وملكة المتسولات. لقد وعدها بأن يجد لها عملاً في فرنسا، وأيُّ عملٍ هناك كان سيُسْعدُها.

كانت تنتظر رسالةً، وتَلَقَّتْ بطاقةً بريديةً عبارةً عن صورةٍ جوِّيَةٍ لباريس، مُعَلَّمَةٍ بسهمٍ يُشير إلى البناية التي يسكن فيها.

الفصل الرابع والعشرون

تحوّلتْ سهراتُكن أنتن الثلاثة إلى طقس: أمينة حَرِدَةٌ، ونور تَحوك الصوف، أما أنتِ فتلوين يديكِ لا تعرفين ما الذي يُمكنكِ قولُه للأولى لتُؤكّدي لها أنكِ صديقتها، ولا كيف تجعلين الثانية تفهم أن الشيء الذي يستطيل بفعل إبرتيها ليس قميصاً ولا سروالاً ولا جُرابَ وليد.

حَرَدُ أمينة يتخلله نشيجُها، وكلماتٌ متنافرةٌ تُعيدين تشكيلها في جمل.

الظاهر أنها تقول إنكِ ونور أُسرتُها الوحيدة، أختاها في البأساء. ويُصدي صدرُها كالناقوس تحت قبضتها. لقد شطبت أمينة الحب من حياتها إلى الأبد؛ فالوحيد الذي أولاها شيئاً من الاهتمام بتر نصف قلبها، أما النصف الثاني فلا يصلح إلا لأن يُرمى به للكلاب.

وتُقلِّد الحركة التي تقتلعه بها وترمي به على الأرض.

عندما جَفَّتْ دموعُها، واستعاد قلبُها مكانه بين نهديها، أعلنت أمينة أنها ليست نادمةً على شيء؛ فقد كانت تشعر بنفسها تحت "غارات" كونزا كيس أنها "مارلين مونرو"، لا أمينة.

ليس لديها ما تندم عليه، وهي لا تنتظر شيئاً لأنّ النساء في باريس

بعدد نجوم السماء، وأمينة "الدحداحة" لن تصمد أمام فتياتٍ قاماتهنّ بطول النخيل.

تبدو نور التي تحسب الغَرْزات وقد استعادت سكينتها.

صوتُها وهي تنادي زاد وزين وزاهي من على العتبة قد خفَّتْ حدَّتُهُ بشكلٍ ملحوظ. وهي تفعل ذلك مرةً واحدةً في اليوم، دون إلحاح، لثقتها بأنهم لن يخالفوا إرادة والدهم. وتفعل ذلك عن غير قناعةٍ كلما استدار بطنُها أكثر واحتلَّ الطفلُ الذي سيولد، والذي كانت تريد أن تتخلص منه، مكاناً أكبر بين جنبيها.

هل تعرف أنّ زاهي وزاد وزين يترددون على مدرستِكْ؟ وحدها نظرتُها تسألكِ، عندما تُحدِّق فيكِ بعينيها اللتين بلون البحيرات، أما شفتاها فلا تفعلان أبداً.

تهربين من تلك النظرة، تتحاشينها، تاركةً نور تُواجه تخميناتها وحيدةً. ولا تتحدث نور قطُّ عن المراهقة التي اغتصبها صاحب سيارة "الجيب". تُراها، وهي المُبعدة عن حياة الدَوَّار، على علمٍ بالحدث الذي يطرح مشكلةً عويصةً على رئيس البلدية والقاضي، وبخاصة على الشيخ الذي سمح للأبوين المحزونين أن تُقْطَبَ ابنتهما لكَي تتمكن من أن تجد زوجاً يقبل بها بعد أن يندمل غشاءُ بكارتها؟

والموضوع ساخنٌ، فحتى تلاميذُكِ يخوضون فيه، وهم يتساءلون يتجاذبهم الاشمئزاز والانبهار عمّا إذا كان صاحب سيارة "الجيب" قد ولج الفتاة "زَنى" بالطريقة التي يفعل آباؤهم مع أمهاتهم؛ الرجلُ من علٍ والمرأة تحته، أو مثل التيس والعنزة، والحمار والحمارة،

والكلب والكلبة، الأنثى محصورةٌ بين القائمتين الأماميتين، والذَكَرُ منتصبٌ يحرثها بجنون.

لقد زادت في بلبلتهم الريحُ العاتيةُ التي هَبَّتْ على "خوف" في تلك الليلة؛ عاتيةٌ بقدر ما هي "الخماسين"، وقارسةٌ بدلاً من أن تكون حارقة. كانت العصافير التي ضلَّتْ طريقها في السماء تتساقط متخشّبةً، أشبه ما تكون بالحجارة، وقد ازرقَّ جلدُها وانفتحت مناقيرُها على صرخةٍ طويلة. أما القِلّة من الأشخاص الذين جازفوا بالخروج من بيوتهم فقد كانوا يتدحرجون وقد طرحتهم الريحُ أرضاً، يتدحرجون ويتدحرجون في جلابيبهم التي نفختها الريح.

مَنْ يراهم من بعيدٍ يخالهم براميل.

هل يُعقل أن يكون والد "زَنى" قد أرسل ابنته في ظرفٍ كهذا لتمتاح ماءً؟ ماءً من بئرٍ نضب ماؤها؟

"زنى" التي جَرَّها أبواها إلى المركز، الأبُ مطالِباً بالانتقام، والأمُّ وهي تُمزِّق صدرها، شهدت الدكتور بول يتبنّى روايتهما ويتأثر لمصابهما، فهو غير قادرٍ على التشكيك في صحة التهمة؛ ويَعِدُ بالعون الذي سيحتاجانه لاحقاً.

صارت "زَنى" هاجس تلاميذك، وهي تجلس في آخر الصف متجاهلةً إياهم في ما يبدو. نظرتُها تُحلِّق فوق الرؤوس لتتعلق بشفتيكِ. عطشُها إلى المعرفة يفوق عطشهم؛ فهي لا تُضيِّع كلمةً مما تقولين، وتُسجِّل كلَّ شيءٍ على دفترٍ هديةٍ من أبيها، فتكتب في الاتجاهين؛ مرّةً بالعربية ومرّةً بالفرنسية. وتضع "زَنى"، إحداها مقابل الأخرى، الكلماتِ التي لها نفس الصوت: الفرنسيةُ من الشمال إلى اليمين،

والعربيةُ من اليمين إلى الشمال. الألفُ والحرفُ "آ" على نفس السطر، الباء و"ب"، الكاف و"ك"، الطاء و"ت"، الدال و"د"، وصولاً إلى الحرف "ز". أما فترة الاستراحة فهي للآخرين؛ فبطنُها الذي ثَقُلَ يمنعها من الجري. تتعاطفين معها في مصابها في حين لا يبدو عليها إطلاقاً أنها مكروبةٌ أو حتى حزينة. إنه نفس استسلام نورٍ للقدر. فلقد شطبت النساء في "خوف" الشفقة على الذات من معجمهن. ومِثْلُ الحمار المحمَّلِ بحزماتٍ من الحطب تُغطِّيه تماماً، فإنهنَّ يمشين كيفما اتفق دون أن يُخطئن الطَّريق أبداً، ويفرضن الاحترام.

تكتب "زَنى" بيدٍ، في حين تبدو يدُها الأخرى الموضوعة على بطنها كأنها تحميه. لا بُدَّ أنها تُحِبُّ الطفل، ذاك العار على العائلة. تؤثر فيكِ رؤيتُها وهي تقوم بنفس حركة الحوامل التي تقوم بها نور فتفقدين كل تَحَفُّظٍ وتَسمعين نفسكِ تسألينها عن الاسم الذي ستُسمِّي به الوليد.

– اسم أبيه.

انطلق الجواب دون أدنى ترددٍ كالصاروخ.

ستُربِّيه أمُّها، وسيكون أخاها الصغير طالما أنهما وُلدا من نفس الأب.

وهي أول مَن اندهش ممّا اعترفت به للتوِّ، وفات الأوان لكي تتراجع عن كلامها؛ فقد اعترفت "زَنى" دون أن تريد.

– وما رأيُ أُمِّكِ في ما أصابكِ؟

– أمي ليس لها رأي. أمي تندب. وهي تقول إن الرجال لا يتزوجون فتاةً مفتوحةً، وإنه لا فائدة من الخياطة قبل خروج الطفل.

يبدو أن مبلغ مئتي درهم كافٍ لكي تعود الواحدة مثل ذي قبل.

كنتِ تظنينها ساذجةً، فاكتشفتِ أنها حاذقةٌ لا تتورَّع عن اللجوء إلى أية خدعةٍ لتجد مَنْ يقبل بالزواج منها.

الغثيان منً شدّة الاشمئزاز، ومن الشفقة أيضاً، يدفع بكِ خارج قاعة الدرس. تتقيئين طويلاً عند جذع النخلة. وعلى وجوه الأطفال الذين يتوقفون عن اللعب لكي يراقبوكِ يبدو الجزع. هل المعلمة مريضةٌ؟ مريضةٌ جداً؟ من الأحسن للمعلمة ألاّ تموت في "خوف" حيث لا مكان لها أصلاً في المقبرة.

يتفرقون بعد ما كانوا يحيطون بكِ. جَزَعُهم عابرٌ، مثلُهُ مثْلُ لامبالاتهم. يعودون إلى بيوتهم، فكلُّ شيءٍ ذريعةٌ لهم كي لا يدرسوا، سواءٌ كان ذلك وطواطاً أو وعكةً خفيفةً تُصيب المُعلِّمة؛ فهم لا يجيئون إلى المدرسة إلا بإكراهٍ من ذويهم.

عندما غادر الآخرون نهضت "زَنى" التي استمرّت في الجلوس حتى ذلك الحين، ثم توجهت نحو الباب وهي تُبرز بطنها.

- أنا في شهري الخامس، أَعْلَمَتْكِ في حين أنك لم تسأليها شيئاً.

خمسة أشهرٍ مضت على حَمْلها في حين أنَّ اغتصابها الذي يُفترض أنه تَمَّ في ليلة ثلجٍ عاصفٍ لا يكاد يعود إلى شهر.

الفصل الخامس والعشرون

بعد أن غادر الأطفال إلى بيوتهم دخلت أمينة الصفّ فجأةً تُحذِّركِ من مغبّة إصرارِكِ على تعليمهم القراءة والكتابة، وتعليم البنات بخاصة؛ فالأفضل لهنّ أن يتعلّمن الخياطة والحياكة. المرأة ليست بحاجة إلى معرفة القراءة. المرأة تقرأ الرغبة في عينَي الرجل، وتُوقد النار في أحشائه في نفس الوقت الذي تُوقد فيه الموقد، وهي تعجن بطنه بنفس الحركة التي تعجن بها الخبز الذي ستُدخله إلى الفرن. ما الحاجة إلى القراءة في دَوَّارٍ ليس فيه سوى كتابٍ واحد يملكه الشيخ؟ القراءة والكتابة تصلحان للذين يعيشون في المدينة، لا على مشارف الصحراء. فالرمال التي تُثيرها الرياح العكسية تمحو الكلمات، وتمحو معا لم طريق ساعي البريد، وهو الأمِّيُّ العاجزُ عن تهجئة الأسماء المكتوبة على ظروف الرسائل. فتعود الرسائل إلى مُرْسِليها لأنها لم تُوَزَّع. وقد تقاعد ساعي البريد بعد أن أصبح عاطلاً عن العمل، وهو، منذ أن استبدل بدراجته حماراً، يَتَسلّى بسُبْحَته من الصباح إلى المساء، ويتردَّد على المسجد لتمضية الوقت. ثم تُعرب لكِ، وهي تُحدِّق في عينيكِ، عن مخاوفها بشأن الذي تُصِرُّ على تسميته خطيبَكِ.

– صمتُه لا يُنبِّئ بخير. لم يكتب منذ أكثر من ستة أشهرٍ. ربما يكون قد مات مشنوقاً على شجرة تين.

– ولماذا شجرة التين؟

بلهجة نال منها الإعياء.

– شجرةُ تينٍ أو نخلةٌ، وثارتْ أعصابُها: هل يختلف الأمر طالما أني أراه يتأرجح في طرف حبلٍ مُعَلَّقٍ على غصنِ شجرة؟

يشتدُّ الهذيان أكثر فأكثر بأمينة فيما هي تُجاهد كي تشاركيها رؤاها. فتقول إن الأمر ليس من عندها بل يأتيها من الملائكة الذين يُمْلُون عليها الأشياء عندما تجثم على قمة النخلة، ولا يفعلون ذلك أبداً عندما تكون على الأرض. وتشعر عندما تكون جالسةً هناك أنها بعُلُوِّ المُؤذِّن في مئذنته، وأعلى مرتبةً من سكان "خوف" الذين طالما احتقروها.

أهو الغرور؟ أم الجنون؟

ما كانت أمينة لتتلفَّظ بمثل هذا الكلام في زمن العاملين في حقل الإغاثة الإنسانية. لقد قَلَبَ رحيلُهم دماغَها رأساً على عقب. فلا كونزاكيس تخضع له مسرورةً سرور جاريةٍ حظيت بسيِّدٍ، ولا ربَّ عملٍ تطيعه حتى وإن كان راتبها أخفَّ وزناً من جناح جرادةٍ. أهي رائيةٌ أم لا؟ تمتحنينها وتسألينها عن أخبار الرجل الذي اغتصب نوراً في ليلة "الخماسين".

– مات.

اللهجة حازمة.

– وماذا عن زاد وزاهي وزين الذين انقطعوا إلى المدرسة؟

- ماتوا أيضاً.

- وماذا سيحدث لنور؟

- ستموت دهساً تحت الحجارة، وتزول إلى الأبد.

تُذكِّرينها بأنّ المُلاَّ حامي حمى الفضيلة قد منحكِ بعض الأمل بشأنها.

إلاَّ أنها تُساورها الشكوك.

- ماذا يَزِن المُلاَّ مُقارَنةً بالزلزال؟ ستُشطب "خوفُ" من العالم، وتصبح رملاً على رملٍ، ساحةَ معركةٍ للأشواك، وبلداً للرياح. ستغور "خوف" تحت المياه عندما ينتهي بناء السدِّ، وتغرق بمسجدها وشيخها وكلِّ سكانها. ستختفي الجدران أولاً بعد أن تعبت من إيواء النمَّامين والكسالى.

تردين بسرعة، تَصفين لها فرحة تلاميذكِ عندما اكتشفوا أن الكلمات "أوتوموبيل" و"تاكسي" و"أوتوكار" هي نفسها في الفرنسية.

- أسماءٌ لأشياء تتدحرج، قالت بازدراء، لا أسماء لأشياء تُؤكل. نحن نأكل طعاماً، وتأكلون أنتم الهامبرغر، لا شيء سوى الهامبرغر.

لا فائدة من مخالفتها، فهي تعرف كل شيءٍ منذ أن صارت في أعلى، وهي من على نخلتها ترى ما يجري داخل الرؤوس: جماجم فارغة ليس إلا، تُعشِّش فيها "الخماسين". إنهم لا يُصغون إلا إلى ما يريدون الإصغاء إليه، ويقولون ما تُكرِّره ألسنتهم منذ القدم. حمير. ليسوا سوى حمير. حتى الريح تتفاداهم عندما تتقاطع طريقها مع

طريقهم، فتُغيِّر وجهتها وتخنق نفسها بيديها.

الغريب في الأمر أن كراهيتها لأهل "خوف" لا تمنعها عن عشرتهم.

منذ فترةٍ وأمينة ترزح تحت الطلبات؛ فالذين يستشيرونها يجيئون من كل صوبٍ، حتى من الدَوَّارات المجاورة، ولا يجرؤ أحدٌ على أن يجادلها في نبوءاتها؛ فحتى مُحا الذي تنبأتْ له بالغنى والنجاح، والذي أفلس للتوِّ بسبب الديون التي تراكمت عليه، يُصدِّق كل ما تقول.

كان لنبأ إقفال الكازينو وَقْعُ الصاعقة على رؤوس المقامرين؛ فأين سيتسنّى لهم قضاءُ أماسيهم الآن وقد ترك مُحا محلَّه خلسةً قبل أن يتوارى حاملاً معه الحصَّالة التي تحتوي على آخر مبلغٍ وضعه فيها المقامرون.

هل من أحد رأى زاهي وزاد وزين؟ تستوضح نور من جهتها.

لا تَقْدِرُ العتبةُ التي ألقت الأسماء الثلاثة منها أن تُجيب؛ فالعتبات لا تتكلم. العتبات صُنعتْ للعبور، وأقلُّها كلاماً عتبةُ نور، وليس البابُ أو المفتاحُ مَنْ سيذهب للبحث عن الصبية الثلاثة.

لقد رآهم شخصٌ ما لا يمكن الوثوق بأقواله، رآهم يفرون في اتجاه الصحراء، لكنْ مشياً إلى الوراء. ولماذا "مشياً إلى الوراء"؟ سأل القاضي المعروف بحسِّه العمليِّ مُتَحَرِّياً عن الأمر.

لأنهم يعكسون كل شيءٍ منذ ولادتهم. أمهم كانت تَحوك لهم كنزاتهم بالمقلوب لكي يلبسوها على وجهها. فزاهي وزاد وزين عُسْرٌ مزمنون في حين أنهم لم يُمسكوا في حياتهم قلماً واحداً، ولا ريشةً

واحدة. عُسْرُ اليدين والقدمين. القدم اليسرى في فردة الحذاء اليمنى، والقدم اليمنى في فردة الحذاء اليسرى، مثل ساعةٍ تَوقَّفتْ عند العاشرة وعشر دقائق، عندما يمشون.

عندما خُتِم بالشمع الأحمر على بيت مُحا، وبعد أن كانوا قد اعتزلوا الحياة العامة بلا ضرورةٍ، استعاد زاهي وزين وزاد وعيهم وتذكّروا أن لهم أُمّاً؛ فجاؤوها يسبقهم إليها البابُ الذي اقتلعوه أمام عيني العَدْلِ المُنَفِّذ المشغول بوضع قائمةٍ شاملة بممتلكات مُحا التي تَقَلَّصَ عددُها إلى أربعة حُصُرٍ وأربع صحافٍ. وليست نور بحاجةٍ لأن تَفتح لهم طالما أنهم يحملون الباب على أكتافهم. فَحَصَتْهم في ما كانوا ينظرون إليها، ثم شرعتْ في القفز حولهم بابتهاج الكلب الذي عثر على سيِّده. زاد وزاهي وزين يبدون سعداء بلقاء أمهم وإن كانت قد تغيرت كثيراً. فقد صارت أكثر امتلاءً، أكثر امتلاءً بشكلٍ واضحٍ، وغريبةَ الأطوار على وجه الخصوص. فهي تَحوك أشياءَ غريبةً تُسمِّيها كنزاتٍ في حين أن تلك الكنزات ليس لها فتحاتٌ للرأس. إنها كنزاتٌ بالرغم من ذلك، تؤكد نور التي عادت إلى الكلام في حضورهم، وليس في حضوركِ أنتِ؛ ذلك أنها تشتبه أكثر من ذي قبل في أنكِ تعمدين إلى إدخالها في الكتاب الذي تكتبينه، وتختنق كلما تصورت نفسها محبوسةً بين الصفحات.

وتعرفين أكثر من الجميع أنّ نوراً مصابةٌ برُهاب الأمكنة المغلقة. تتركينها لسعادتها، وتَتَقَصَّيْنَ أخبارها عن بُعد، عن طريق أمينة التي لا تفهم ولعها بثلاثة غَدَّارين يسكن في داخلِ كلٍّ منهم جاهل.

- هل تعرفين بمَ تناديهم الآن؟ سألَتْكِ وهي تُرغي غضباً.

ولا تنتظر جوابكِ، وتُسِرُّ لكِ أنها قلقةٌ بشأن نور التي تخلط بين البشر والنبات.

إنها تُكلِّمهم كما لو كانوا خُضراواتٍ، فهي تُسمِّي "زاهرَ" زهرةَ كوساها، و"زينَ" بندورة قلبها، و"زادً" حبقها المعبود.

هل كانت نور مصابةً بالجنون لمَّا التقيتِها وقت وصولكِ إلى "خوف"؟ سألتِ نفسك في الليل وقد استبدَّ بكِ الأرق الشديد. رَفْضُهَا الشكوى على مغتصِبها، وإصرارُها على أنّ الحكم الصادر عليها عادلٌ بحجة أنها استمتعت مع الغريب، ورأيُها أنّ من الطبيعي أن يستردَّ مُحا الباب منها لأنه هو مَنْ دفع ثمنه، هل كلُّ ذلك شجاعةٌ منها سببُها كبرياؤها العالية؟ أم تُراها بوادر الجنون؟

ها أنتِ ذي مزدانةٌ بصديقتين مخبولتين؛ وحدهما المخبولتين في الدَوَّار، مع فارق أن إحداهما تمارس جنونها على قمة نخلةٍ والأخرى تمارسه على الأرض.

لقد طرحتْ أمينة ونور جلديهما مستبدلتين بالقديمين آخرين جديدين، كالثعبان. فتَحَوَّلَتْ خادمةُ المركز إلى عَرَّافةٍ، وأصبحت الخاطئةُ أُمّاً مثاليةً لأطفالٍ ثلاثة، ورابعٍ عمَّا قريب. لقد ظهرتِ لهما عجيبةً عند وصولكِ إلى "خوفٍ"، وبدا لهما غريباً أن تقطعي هذا الكمَّ من البلدان من أجل أن تَنْسَيْ رجلاً وقطّاً. فهل تُقدِّرانك الآن أكثر وقد صرتِ مُعلِّمةً في قريةٍ للأميين؟ أميين قررتِ أن تُعلِّميهم الكتابة؛ أو كتابةَ أسمائهم على الأقلّ. وستُخصِّصين لذلك ما يلزم من

الوقت، إلى أن تحين ولادة نور. ولستِ في عجلةٍ من أمركِ، فأيامُكِ تفيض بالمشاغل، ولياليكِ مسكونةٌ بالأرق. تملئين حياتَكِ بفُتات حيوات الآخرين، فتنامين والدجاجات في نفس الوقت، وتستيقظين مع الديك؛ ديك "خوف" الوحيد الذي نجا من القِدر لأنه يعملُ منبِّهاً. لقد أضافت "خوف" إلى عمركِ ألف سنةٍ فصرتِ بعمر الصحراء والجبل. يتفاقم شعورُكِ بالوحدة عندما يهجم الليل بقسوةٍ على ما تُسمِّينه المدرسة، ويبقى مستودعاً رغم السَبُّورة السوداء المُعلَّقة على الجدار وقِطَع الطباشير المبعثرة على الحُصُرْ. أنتِ تجمعينها بعد أن يغادر الطلاب خشيةَ أن ترعاها الماعز.

الفصل السادس والعشرون

مُتَمَدِّدَةً تحت ملاءتك تُصغين إلى صرير الرمل على درفات الشباك. ولولا الحماية التي يُشَكِّلُها زجاجُ النوافذ لكانت الصحراء اقتحمت غرفتكِ وسريرك. بدا القمر من بين شفرتين من شفرات الدرفات الخشبية وكأنه يجلس على قمة النخلة محلَّ أمينة التي تنام في المخزن. إنه أضخم بكثيرٍ من الذي كنت تشاهدينه في باريس وكأنّ هناك قمرين؛ واحداً صغيراً ومسطّحاً للغرب وآخر كبيراً ومستديراً للشرق يتمرأى الجَمَّالون في صفحته متسائلين بقلقٍ عما إذا كان أقرباؤهم سيعرفونهم بعد شهور الغياب. القمر قرصٌ لذَرِّ البودرة على الوجه بحسب نور التي وصلت في حَمْلها إلى شهرها القمريِّ الثامن، والتي ازدادت جمالاً منذ أن عاد إليها أولادُها. ويؤكِّد الشيخ أن القمر نافذةُ سقيفة النبي محمد. قمرٌ لا يُضيء هذه الليلة إلا نفسه. فـ"خوفُ" غارقةٌ في الظلام، وما من ضوءٍ واحدٍ في النوافذ. تصاعدَ اللهب على حين فجأة فامتدَّ حتى طاول السماء، وملأ القرية دخاناً. لهبٌ تصحبه الشتائم والصراخ والصياح. ركض أهل "خوف" الذين اقتُلِعوا من نومهم اقتلاعاً يحملون الدلاء، ولكنّ نوراً تمنعهم من الاقتراب من

سياجها؛ فهي حرةٌ في أن تُحيل كل ما تملكه إلى رماد، حرةٌ في أن تعطي صندوقها للنار تلتهمه، وإطار نافذتيها وكُرسِيَّها وغطاءها الذي من وبر الجمال، وحتى قِدْرَها.

وما من أحد يجرؤ على الاقتراب منها. الجميع يعرف أنّ الشيطان يختبئ تحت جلد المجانين. وعندما لم يبقَ في متناول يدها شيءٌ تُغذِّي به الحريق تَحَرَّرَتْ نور من فستانها تاركةً إياه ينزلق من فوق رأسها، ورمتْ به لكي يحترق مع البقية. هي ذي عاريةٌ عبر اللهب، عاريةٌ بشكلٍ كامل. النساءُ يُتمتمن بالتعاويذ، والرجالُ يسترقون النظر، والأطفالُ يضحكون ببلاهةٍ فتطرحهم أرضاً الصفعاتُ التي تُوجّهها لهم أمهاتُهم. ويتفاقم العنفُ فيُمسك رجلٌ بخناق آخر لسببٍ لا أحد يعرفه، ويَعَضُّ حمارٌ معزاةً، وتلتهم معزاةٌ أيكةً، وتنبح الكلابُ على القمر الذي يستر وجهه بقطعةٍ من غمامٍ ليتجنَّبَ مرأى العارية؛ المرأة الحامل والعارية.

يطرقون عليكِ بابكِ، يدفعون بكِ إلى الخارج لأنهم يعرفون أنكِ وحدكِ القادرةُ على إعادتها إلى رُشدها. وما إن اجتزتِ سياج الصَبَّار حتى ارتمتْ نور على صدركِ وهي تنشج بعنف. ثم أشارت بحركة يائسةٍ من يدها إلى نبتاتها مُقْتَلَعَةً مُكوَّمةً في زاوية. قَتَلَهَا مُحا الذي عادَ من تيهانه. فحين لم يجد أولاده في البيت صبَّ غضبه على نبتات أمهم.

نور التي أذعنت لكل شيء، وحتى لفكرة أن تموت تحت حجارة أقربائها، لم تُطِقْ أن يُهاجم أَحدٌ كوساها وبندوراتها وباذنجاناتها. فالعيش من دونها فوق ما تحتمل.

الفصل السابع والعشرون

لم يعدْ مركز العاملين في حقل الإغاثة الإنسانية سوى ملجأً للفقراء وسَكَنٍ يحتلّه الذين ضلّوا الطريق، والمعوزون. وحين يجيء الليل تُبْسَطُ فيه على الأرض الفُرْشُ والحُصُرُ للتلاميذ الذين يتدفقون من الدَوّارات البعيدة، ولا يعودون إلى بيوتهم إلا في آخر الأسبوع. ينامون رأساً لقدمين مثل ملوك وملكات ورق اللعب، ويطبخون لأنفسهم؛ المقلاةُ في حالة توازنٍ فوق حجارةٍ ثلاثة، تعتلي ناراً غذاؤُها العيدان. وعندما يُطفأ المصباح ينام الجميع ما عدا نوراً وأمينة اللتين تتبادلان الحديث حتى الفجر أحياناً، وتتشاجران أيضاً عندما تنتهي المقارنة بين كونزاكيس والغريب صاحب سيارة "الجيب" لصالح أحدهما على حساب الآخر. أنتِ لا تنضمّين إليهما؛ أنتِ المنهكةُ من التدريس، حَسْبُكِ متابعةُ ثرثرتهما من خلال الجدار الفاصل. ولكي لا يكون هناك ما تغبطينهما عليه تتصورين نفسكِ، وقد عُدْتِ إلى باريس، أمام سور بنايتكِ، ثم الهاتف وهو يرنُّ ملحاحاً بعد أن فتحت الباب بمفتاحكْ. تعرفين الرجلَ من تَنَفُّسِه. وبعدها، "لقد وصلتُ"، يُوشوش بها على سماعة الهاتف. تدورين في حلقةٍ مفرغةٍ غير عارفةٍ كيف

تُجهِّزين نفسكِ للقائه فتبدئين بإزاحة الستائر لإضاءة الغرفة. لقد نبتت الأعشاب على قبر قطِّكِ كثيفةً أكثر منها في أيّ مكان آخر، حتى أنه انتصبت بينها زهرةٌ ذات بَتْلات خمس؛ حارسةٌ هشّةٌ، وشاهدةٌ زائلةٌ، تحت رحمة أدنى هَبَّةِ ريح: لا شيء إلاَّ ما هو بائد. أنتِ لا تنتظرين شيئاً من عودته، ولا تنتظرين شيئاً من نفسكِ. لقد نَبَتَ العشبُ على قلبيكما في نفس الوقت الذي نَبَتَ فيه على القبر الذي حفرتِهِ منذ ثمانية أشهر بيديكِ.

كان حُلْمَ يقظة، وتَهافتَ قبل أن يَتَّخذ شكلاً. تقبلين بهزيمتكِ، أما صديقتاك فتغرقان في الهُوام: نور تُحَدِّق طيلة ليالٍ بأكملها في طريق "خوف" على أمل أن تظهر سيارةُ "الجيب"، وأمينة تذهب كل مساءٍ إلى موقف الحافلة وهي على يقينٍ من أنّ عبده سيحمل لها رسالةً من كونزاكيس. كلُّ مَنْ يراها وهي تَعْبُرُ الدَّوَّار بخطىً واثقة يخالها ذاهبةً إلى موعدٍ تحرص على ألاَّ تتأخر عنه. كونزاكيس؛ القطرةُ التي فاض بها دماغُها الشبيهُ بدماغ عصفور. وهي تُجَنُّ كل يومٍ أكثر. فأمينة البسيطة، التي كانت تكتفي بقراءة الفنجان مقابل صحنٍ من الحساء أو حفنة من التمر، صارت تحسَبُ نفسها أُذُنَ الجانِّ القادمين من طبقات الكون العليا.

وهي تَدَّعي أنّ النبي قد ظهر لها. كان يجلس على سجادة طائرة عندما ناداها باسمها وكلَّفها بأن تقول للشيخ إنه بعد أن تَفَكَّرَ في مسألة نور أصدر حكمه ببراءتها. فلا رَجْمَ إذاً، وعودةٌ وشيكةٌ إلى بيت مُحا الذي لا بيت له منذ منعته من الدخول أختامُ الشمع الأحمر

التي وضعها عليه مأمورُ المحكمة. تغضب أمينة عندما يُقال لها إنها حلمتْ بالنبي والسجادة الطائرة وبالبقية، وتردُّ مدافعةً عن نفسها بأنها لا تحلم أبداً، فهي فقيرةٌ، وأفقر من أن تُطاول هذا الترف. يتهكّم سكان "خوف" عليها من وراء ظهرها، ووحدها الكلاب يبدو أنها تُقدِّرها، فهي تَشُمُّها باحترام ولا تَعَضُّها أبداً، والبعض منها يأتيها بعظامٍ قَرَضَ شيئاً منها؛ العظامِ التي فيها لبٌّ دون سواها.

عندما يُطفَأُ المصباح ينام الجميع ما عدا صديقتيْكِ. ونور لا تحتفظ بشيءٍ في ذاكرتها عن الليلة التي خرَّبتْ فيها كوخَها. عيناها وحدهما تتذكّران. فاللهب يتصاعد على شبكية عينيها عند كل رفرفةٍ لأهدابها. كان الفجر قد بدأ يبزغ خلف الجبل عندما عدْتِ بها معكِ إلى بيتكْ. وكانت امرأةٌ تحدوها الشفقة قد رمتْ لكِ بعباءةٍ تُغطيها بها، وبصقتْ أخرى في وجهها. وكانت هي ترتعش من الغضب الذي لم تُفرغه، ومن ذاك البرد الذي تتفرَّد به ليالي الصحراء، في حين تكون النهارات فيها حارقة. لقد بدتْ، ورأسُها تحت إبطكِ، أقصر من العادة؛ هذا إذا لم يكن الحزنُ هو ما قصَّر قامتها. وما كان أحدٌ ليلحظ وجودها لولا بطنُها البارز الذي تُهزهزه حركاتُ الجنين العنيفةُ؛ الجنينِ المسكونِ بغضب أُمِّه المستشيط.

نور؛ جَرَّةٌ من حليبٍ تَخَمَّرَ، نهرٌ من طينٍ خرج من قاعه، قِدْرٌ فاضت بما فيها. نور؛ عنكبوتٌ سوداء أتلفتْ شبكتها بعد أن أكملتْ نسجها.

الحجارة المُكَوَّمَةُ في الساحة هي وحدها القادرة على طرد الشيطان

الذي دخل في شِقِّها الذي فتحه الغريب، يقول الشيخ الذي يُنكر صحَّة الوثيقة التي وقَّعها المُلاَّ. إنها من تزوير الغريبة، و لم تلتق تلك بالرجل الفاضل أبداً. ولأن "خوف" بعيدةٌ عن المدينة، فإنه ليس في وسع أحدٍ أن يتحقق من شيء.

لا تولي نور اهتماماً بالشائعات؛ فهي قد تجرَّدتْ من كل شيءٍ خلا الطريق التي يتفحَّصها نظرُها ليلَ نهارْ. أتُراها تجيئها بصاحب سيارة "الجيب"؟ أم بالراجمين؟

تَعْبُرُ غيمةٌ سوداءُ عينيها اللتين تطوفان بالمكان المتفحم الذي يَحُدُّه سياجُ الصَبَّار. فتظنين أنكِ تُعزِّينها، وأنتِ تشرحين لها أن الريح ستتكفَّل بإعادة زرع باذنجانها وكوساها وبندوراتها وحبقها في مكانٍ آخر؛ تربةٍ أكثر رحمةً، بعيدةٍ عن الصحراء. لكنها تهزُّ رأسها.

- إنقاذُ الريحِ، قالتْ، أفضلُ من إنقاذ النبتات. فهي، وقد أُخذت غيلةً، ستحتقن بالضغينة إذا ما أُعيد زرعها.

تقولين لها إن لديها ما هو أفضل من حديقةٍ وكوخٍ طالما أنها ستُرزق بطفل.

- الأطفال مثل القمر، تردُّ عليكِ، يبدو جميلاً عندما نشاهده عن بعدٍ وحسبْ.

وتنصحينها بأن تكفَّ عن تَرَقُّب عودة الغريبِ فربما يكون قد عاد إلى بلده، فتُجيبكِ أنّ الرجل ليس شجرةً؛ فهو يمشي ويتنقل من مكان إلى آخر، وهو يوماً هنا و يوماً هناك، وحَسْبُها أن تنتظره. تُخبرينها أنَّ أولادها الثلاثة قرروا إعادة بناء كوخها الذي التهمته النيران، فتقول إنها مسرورةٌ لمعرفة أنّ زاهي وزاد وزين الذين لم يجيدوا يوماً تنضيد

الكلمات يعرفون اليوم كيف يُنَضِّدون الحجارة.

أمينة قلقةٌ على نور. وقناعتُها أنها لن تعيش بعد حديقتها؛ تشخيصٌ لا جدل فيه، بنبرة الطبيب الذي يُصيخ السمع لآخرِ رِجْفاتِ قلب امرئٍ في النزع الأخير. هل يُعقل أن تكون قد ورثت عن طالب الطبِّ كونزاكيس لغته العلمية؟ وهي أعلنت أمس عن هزة أرضية ستحدث وشيكاً. "زلزال"، قالت قبل أن تُكمل أن سَبَبَهُ تَصادُمُ صفيحتين هيكليتين ستُحدثان صدعاً ضخماً في القشرة الأرضية، وسيتبعه طوفان. كانت تُلقي بدون توقفٍ، وعيناها تُحدِّقان في الفراغ. أمينة عرافةٌ كشفَ الألمُ لها حُجُبَ الغيبِ.

الفصل الثامن والعشرون

زاهي وزين وزاد، الذين يختفون في الصباح، يعودون في المساء وقد تَصلَّبتْ أيديهم لكثرة ما عجنوا الطين بالقَشِّ ليجعلوا منه عجينةً ملساء صالحةً لبناء بيتهم من جديد.

صوت أعمال البناء يصل مُخَفَّفاً إلى أُذُنَي أمهم. فلا يرفُّ لها جفنٌ لصوت احتكاك الرفوش بالأرضِ، أو تسوية ألواح الباب والنوافذ. فهي تُريد لاهتمامها أن ينصبَّ على الطريق، والطريق وحسبْ. إذ لا بُدَّ لسيارة "الجيب" أن تظهر بين لحظةٍ وأخرى، يقول لها حدْسُها بذلك. فقد رسمتْ يدٌ خَفِيَّةٌ سطراً يصلُ بين ذاك الجماع في هبوب "الخماسين" وبين ولادة الطفل المتوقَّعة بين يومٍ وآخر.

الخيال الأسود المتّجه نحوها خيالُ رجلٍ من أهل البلد. تتعرّف "نور" عليٍّ الشيخ من عمامته. كلما اقترب أكثر بدا لها أضخم وأقدر على أن يُغطّيَ الشمس ويُحَوِّل النهار إلى ليل. الخوف يشلُّ حركتها. ليس باستطاعتها الهرب. مساميرُ خفيةٌ تُثبِّتُها إلى حجر العتبة. يتظاهر أنه لا يراها ويتوجه بالكلام إلى الهواء والنخلة، ثم يستدير نحوها ويُعلن لها أن الحكم عليها لم يَجْرِ تعديلُه قطُّ، ولكنْ تأجّل تنفيذُه؛

وأنها ستُرجم كما هو مُقرَّر، لكنْ بعد ولادة الطفل، كما أضمر المُلاَّ في رسالته، وأنَّ عليها أن تكون مستعدةً للقاء بارئها.

هل أُصيب الشيخ بالخرف كي تصبح رسالة المُلاَّ حقيقةً بعد أن كانت بالأمس لا وجود لها.

لمَّا رآها لا تبدي أيَّ ردِّ فعلٍ، ولمّا كان مُتعباً بعد أن اجتاز الدَوَّار دون أن يتوقف للراحة، جلس القرفصاء عند جذع النخلة، مقابلها، وقد تحوَّلتْ إلى عمودٍ من حجر. تنسى نور أن تتنفس أو ترفَّ أجفانُها. أتُراها عائلة الخُطَّاف التي تُعشِّش في الشجرة جاءت تصطفُّ على نفس الغصن وتُطلق صيحات الغضب لتُخرجها من خَدَرِها؟ نهض الشيخ من مكانه وقد صرعه صُراخها ولَوَّثَه رَوْثُها، ولوَّح بعصاه في كلّ الاتجاهات استعداداً لضربها كيفما اتَّفق. ولما لم يستطع ذلك لفلف غضبه وأخفى ما صار إليه من حرجٍ بترتيل آيةٍ من القرآن الكريم يُفترض أن تُعيد إليه وقاره.

– "من يُضلِلِ الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون".

ولمّا لم يكن لقراءته للآية الكريمة أيُّ وقعٍ على نور أتبعها بآيةٍ أخرى، تلاها بصوتٍ راعدٍ يقوى على كسر زجاجِ النوافذ.

– "إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريبٍ فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً/ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إني تبتُ الآن..."

ثم طلب منها وهو يُحدِّق في عينيها أن تعترف بأنها أخذت نصيبها من المتعة عندما وطئها الغريبُ؛ أنها زَنَتْ، وأنها واعيةٌ بما كانت تفعل.

- اعترفي يا امرأة.

مسح الشيخُ العرقَ عن جبينه، وقد أتعبه الكلام في الفراغ أمام ميتة-حيَّة، ثم تلا لنفسه آيةً أخرى تتناسب أكثر مع الحالة:

- "واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهِدوا عليهن أربعةً منكم فإن شهدوا فأمسِكوهن في البيوت حتى يُتوفاهن الموتُ أو يجعل الله لهنَّ سبيلا."

ثم سَمَّى الشيخُ معتمداً على أصابعه ثلاثة شهود: زاهي وزاد وزين، ولمّا لم يجد الرابع شرع يبحث وعيناه تنظران في الفراغ.

لمّا رأى أمينة تظهر فجأةً خلف نور ذكر القطَّ الذي ما كانت "الخماسين" لتقتله لو لم تتوقف "نور" عن البحث عنه لتستلقي تحت الغريب.

- الحيوانات لا تُقبل شهادتُها، ردَّتْ عليه الأخيرةُ بسرعة.

- ولا شهادةُ الساحرات من جنسك، ردَّ عليها بشكل لاذع وسريع. مثْلُكِ في ذلك مثْلُ التي تُؤويكِ، أضاف وعيناه تبحثان عنكِ خلف نافذة مكتبكِ. أمرٌ مريبٌ أن تسافر امرأةٌ وحدها. وهي لا تنام وحدها إلا لكي يتسنّى لها أن تستقبل الشيطان في مضجعها. إنها تتظاهر بأنها تُعلِّم أولادنا القراءة والكتابة في حين أنها تُثيرهم ضدَّ ما أُعلِّمهم إياه. وحدها المدرسةُ القرآنيةُ قادرةٌ على أن تجعلهم أقلَّ جهلاً، أقلَّ لصوصيةً، وأقلَّ تَسَوُّلاً.

ما ظنَّه الشيخ تصفيقاً وتحيةً مُوجَّهةً له على خطابه الطويل جاء من قمة النخلة، من الخطاطيف التي لم تكن تُصغي إليه بل كانت تنتفض كلُّها بحركةٍ واحدةٍ استعداداً للطيران.

الفصل التاسع والعشرون

تُلامس بَلْجَةُ الفجر الأولى درفتَي شباكِكِ قادمةً من الصحراء، من الغيوم التي تُحلِّق فوقها، ومن الضباب الصباحيِّ الذي يزحف ببطنه على الأرض. فتستيقظين في فراشِكِ وقد حملكِ منامُكِ بعيداً، أمام بيتٍ من الطين وكنتِ واقفةً على كتلة من الثلج، تطرقين باباً لا يفتحه أحدٌ. فينصحكِ الصوتُ، صوتُ "زَنى"، بأن ترمي النافذة بحجرٍ، وأن تكسري زجاجها، لأنها الوسيلة الوحيدة لكي تستنفري سكان البيت.

– أيُّ حجرٍ؟ تسألين في غياب أدنى حصاة.

– حَجَرُ قلبي الذي تَجمَّدَ من البرد، قالتْ كما لو أن الأمر بديهيّ.

– ولكن أين أنتِ؟ سألتِها. وما سبب انقطاعكِ عن المدرسة؟ هل أنتِ مريضة؟

– وحده أبي مَنْ يحقُّ له أن يجيب عن هذه الأسئلة. لقد كان دوماً يتكلَّم عني، وليس موتي ما سيُغيِّر الأشياء.

حمداً لله، إنه ليس سوى حلم، قلت لنفسكِ وأنت تنهضين من السرير، ثم سارعتِ إلى الخروج من الغرفةِ فسوف ينقشع عنكِ

الكابوس في الهواء الطلق.

الفتاة التي وصلتْ أبكرَ من الآخرين تُحدِّق فيكِ من وراء أهدابها الطويلة الكثيفة؛ أهدابٍ كأنها ستارةٌ من الحرير الأسود. تسألينها أين يوجد بيت "زَنى" فتشير إليه بإصبعها: كوخٌ محاذٍ للمسجد لا يُميِّزه شيءٌ عن بقية الأكواخ.

تتبعين إرشاداتها رغم خوفكِ من مجابهة والد "زَنى" من جديد. الأرض البور، الأكواخ التي أتى الزمن على لونها، النساء الجالسات القرفصاء أمام النار يُحملقن فيكِ من فوق قدورهنّ. أيُّ ريحٍ دفعتْ بالغريبة إلى حارتهنَّ الأكثر بؤساً بين حارات "خوف"؟

صوتُ عارضة حديديةٍ يَردُّ على قبضتَيْكِ اللتين تطرقان الباب.

يأمركِ الصوتُ من خلف الباب المُوارب أن تُوَلِّي الأدبار؛ فلا أحد يرغب في رؤيتكِ. لكنكِ تُلحِّين. إنَّ عليكِ أن تُعطي "زَنى" كتاباً.

– لا فائدة من كتابِكْ. ابنتي لا تعرف القراءة.

جوابٌ لاذعٌ كالصفعة أحسستِ بحرقتها على صفحة خدِّك. أُغلِق الباب بعنف. كان للعارضة التي تعود إلى مكانها وَقْعُ الحجر وهو يُطبق على القبر.

لو لم تستنفري بسبب الصراخ القادم من الحارة نفسها في المساء نفسه لكنتِ عُدتِ في اليوم التالي. لم تكوني وحدكِ الراكضةَ في اتجاه البيت الملاصق للمسجد. كان الدَّوَّار كلُّه يُهرَع إلى هناك. وكنتم جميعكم تسألون أنفسكم نفس السؤال عندما صرختْ أم "زَنى":

– تُريد أن تقتلني بعد أن قتلتَ ابنتكَ؟

تهمةٌ مُلقىً بها إلى الليل، إلى الريح التي كانت تدور على البيوت

بيتاً بيتاً، حرصاً على استنفار كل سكان الدَوَّار.

– ذَبَحَها. ألقى بها مثل كلبةٍ في البئر من غير كفنٍ ولا "فاتحة".

لا شيء يَقْدِرُ أن يوقفها الآن بعد أن تَكَلَّمَتْ.

– وقَتَلَ في الوقت نفسه الجنين الذي زرعه في أحشائها.

السَقَّاءُ الذي كُلِّف باستخرج الجثة من البئر وجد هيكلاً عظمياً مجرَّداً كلياً من اللحم. وكان يصدر عن عظام "زَنى" وهي تصطدم بعضُها ببعض صوتُ أجراس صغيرة.

عندما عدتُ إلى المركز بكَيتِ الفتاةَ وشغفَها بالقراءة والكتابة. لو لم يعتدِ عليها أبوها لكانت نجحت في تَعَلُّمِهما. وما عادت فرضية الغريبَ الذي يسوق سيارة "الجيب" لتقنع أحداً. لقد قتلها، ولكن الشيخ لن يَجُرَّه إلى العدالة، ولن يفعل القاضي ذلك، فحياة ابنته ملكٌ له، وهو حرٌّ في انتزاعها منها.

الفصل الثلاثون

نور على الباب، واثقةٌ من أنكِ لست نائمةً. لقد طرد النعاسَ من عينيها اكتشافُ جثة "زَنى" التي لم يكن أحدٌ قد لحظ اختفاءها. هي تخشى على نفسها من نفس المصير، ولا تعرف ما الذي يُمكنها أن تفعله لكي تستبق سكين الذين سيذبحونها. مصباحُها المرفوع عالياً يُضيء الرف حيث تصطفُّ كتبُكِ وتلك التي تركها أولئك الذين سبقوكِ في المركز. نظرتُها ملؤها التقزز والاشمئزاز، فهي لا تفهم لماذا تحتفظين بالكتب القديمة إلى هذا الحدِّ؛ كمثْلِ مَنْ يحتفظ بثيابٍ بالية. غير أن الخريطة الجغرافية تُثير اهتمامها على ما يبدو.

تسألكِ عمّا تُمثِّله، فتشرحين لها أنَّ الأمر يتعلَّق ببُلدان، أنَّ الغابات يُلوِّنها الأخضرُ، والجبالَ الرماديُّ، والصحراءَ اللونُ الأغمرُ، والبحرَ الأزرقُ. تُريد منكِ أن تُحدِّدي لها موقع "خوف"، وتُصاب بالخيبة وهي تراها قد اختُزلت إلى نقطة؛ مجرد نقطةٍ لأربعين بيتاً وحانوتِ عطّارٍ ومسجدٍ ومعملٍ للآجر.

- والسدّ؟

تُرينَها النهر.

- أُريد السدَّ، تقول بإلحاح.

- مستحيلٌ طالما أنهم لم ينتهوا من بنائه.

تسألكِ، وهي تضع يديها على ركبيها مُتحدِّيةً، لماذا تقولين "هم" في حين تعرفين أنه هو وحده الذي يبني السدّ.

الخريطة كاذبةٌ في رأي نور. وليست قصاصةُ الورق ما سيؤثر في رأيها؛ إذ كيف لها أن تقتنع بأن المسافة بين "خوف" والجسر لا يتجاوز عرضُها الإصبع.

وسواءٌ كان ذلك كذباً من الخريطة أو لا فإنها تنوي الذهاب إلى هناك، وسيُسَرُّ الرجلُ صاحبُ سيارة "الجيب" بلقائها.

تُذكِّرينها بأنّ الرجل صاحب سيارة "الجيب" قد غادر البلد، وأن أعمال البناء قد تَوقَّفتْ بسبب الافتقار إلى التمويل، وأنه سيكون من الصعب عليها، هي الحامل، أن تقطع خمسة عشر كيلومتراً على الأقدام.

تُواجهكِ بشحوب وجهها الذي بدا منكمشاً، وقد لزمتْ هي الصمت على حين فجأة. ولا تُصدِّقين إلا بشكلٍ جزئيٍّ قرارها بالالتحاق بالرجل الذي حملتْ منه. فالقَتَلَةُ لا يتمادون إلى هذا الحدّ.

يُصْفَق بابٌ، وتبتعد خطواتٌ في الظلام، فتظنين أن الخيال الذي يبتعد ظلُّ نخلةْ.

لا قدرة لديكِ على التفكير من شدّة ما تشعرين به من تعبٍ، فتحشرين نفسكِ في الملاءات، وتستغرقين في النوم. تحلمين بأنكِ تزوجتِ شقيق عبده. شابٌّ ذو مستقبلٍ واعدٍ، يقول عنه مَنْ حولكِ

بإعجاب شديد. إنه يمتهن الذبح. ويعمل خطيبُكِ لحساب نفسه، لا يتبع أحداً سوى سكّينه، سكّينٍ حادّةٍ وطويلة؛ في حين أنّ عبده ليس مالكاً لحافلته. و"جَبَّارٌ"، هذا هو اسمه، مُتعلّمٌ، قضى سنةً كاملةً في المدرسة القرآنية. وبإمكانه أن يتقدَّم لشغل وظيفة مُؤذِّنٍ لأن صوته بعيد الصدى. ذَبَّاحٌ ومُؤذِّنٌ، وظيفتان بدلاً من واحدة.

الحفل يسير هادئاً. لم يطلب أحدٌ رأيكِ في شيء. ترغبين في الفرارِ ولكن العجائز اللواتي يطلقنَ زغاريدهن في عنان السماء يُحطن بكِ، والشيخُ لا يفارقكِ نظرُهُ لحظةً واحدة. فهو لا يخدع نفسه بشأنكِ، وقد وافق من غير قناعة على أن تدخلي الإسلام على يديه. وسيكون اسمُكِ "نوراً" بدءاً من هذا اليوم. هذا ما أعلنه لكِ قبل أن يُمزِّق جواز سفركِ، ويتفتّت اسمُكِ الفرنسيُّ المُسجَّلُ عليه.

سيكون اسمُكِ "نوراً".

الكلُّ يحتشد حولكِ. واضعاتُ الحِنَّاء يُعدن تلوين الرسوم على كفَّيْكِ، تغيب الخصلة المتمردة بسرعةٍ تحت الحجاب الذي يُخفيكِ من رأسكِ حتى أخمص قدميك. تفوح منكِ روائح ماء الورد والياسمين والمسك والقرنفل. الوجوه تُشعُّ بالسعادة. أنتِ وحدكِ الساخطة. ترغبين في المغادرة، لكنكِ لا تعرفين أي طريقٍ تسلكين. فالخريطة الجغرافية المُعلَّقة فوق رفِّكِ تجاوزها الزمنُ، و"خوفُ" فَصَلها تَصَدُّعُ الأرض عن بقية العالم. وفضلاً عن ذلك فإنَّ رسائلكِ إلى العاملين في الشأن الإنساني التي تطلبين فيها كتباً ودفاترَ وأقلاماً لم يتمّ إرسالها. هذا إلى أنه ما من رسائل يُبْعَث بها إلى هذا البلد الذي ما زال الغرب يظن أنه في حالة حرب، في حين أن النزاع فيه يعود إلى عشراتٍ من

السنين مضتْ، وأن جفافاً أكثر فتكاً من كل المعارك يعيث فيه فساداً منذ سنوات عديدة.

تنفَّسْتِ الصعداء لما استيقظتِ. فقد وضعتْ حدّاً لكابوسكِ ضراوةُ الريح وهي تسعى لاقتلاع درفات نافذتِك. ليس اسمُكِ "نوراً"، ولم يحتجز أحدٌ جواز سفرِكِ. أنتِ حرةٌ في العودة إلى بلدكِ، في استعادة شقتكِ وحديقتكِ الصغيرةِ وعملكِ غير الثابت، في أن يكون لكِ قطٌّ جديد. وما الذي يحول بينكِ وبين أن يكون لكِ أيضاً حبيبٌ جديد؟

"ولكنْ ماذا سيحدث لنور؟" تسمعين تمتمات نفسكِ.

حملتْ إليكِ أمينة مخاوفها مع قهوة الصباح، وهي في هذا اليوم مُرَّةٌ مثل مشروبها وأشدُّ سواداً من قراءتها الفنجان.

إنها ترى نوراً تتسلق جبلاً، ثم تسقط في شقٍّ تنتزع نفسها منه بجهدٍ جهيدٍ، ثم تُواجه ثعباناً، ثم نهراً يفيض، تَعْبُرُه مُتعلِّقةً بغصن شجرةٍ مكسورٍ قبل أن تجد نفسها وقد أُلقي بها على الضفة الأخرى مقابل بيتٍ مغلق، فتصرخ، وما من مجيب، وتطرق الباب بكلتي قبضتيها، وما من أحدٍ يفتح الباب. فتجلس القرفصاء وقد نازعها الطلقُ وأنهكها ما بذلته من جهدٍ، وتلد طفلاً ميتاً.

- فنجانُكِ، أيتها الغريبة، يفيض بالدموع.

إنه الختام يجيء بلهجة آسفة.

أمينة التي يُفترض منها أن تُساعدكِ في عملكِ لم تجتزْ يوماً عتبة قاعة الدرس. الأطفال يمتصون الهواء الذي تتنفسه، ويملؤون رأسها صخباً، ويطردون الأرواح الخَيِّرة التي تتولى حمايتها وتُملي عليها رؤاها. في

مواجهة أطفال "خوف" تصير أمينة بخواء حَبَّة جوزٍ نسيها الصيف.

هل يمكنها أن تكونَ على حقٍّ يا تُرى؟

يومٌ ولا أشدَّ من خيبتِه.

تشرحين لهم أنّ الأرض كرويةٌ، وأنها تدور في الفضاء. لا يُخالفونكِ القول، ولكنهم يُوجِّهون نظركِ إلى أنها وإن كانت كرويةً، فهي تبقى رغم ذلك مسطحةً؛ مسطحةً كالصحن. وأن النجوم والشمس موجودةٌ في الأعلى، ولا شيء في الأسفل، وإلا لوقعت البيوتُ في الوديان والحقولُ في الأنهار، ولكان البشرُ يدورون على أنفسهم كالدَّوّامات بدل أن يمشوا على أقدامهم.

– الكرة الأرضية مثبتةٌ على سطح الأرض.

تعتمدين على الخريطة لتُريهم القارات الخمس: أوروبا حيث كنتِ تعيشين، آسيا التي يعيشون فيها، ثم باريس التي غادرتِها لتجيئي إلى "خوف". "أَعَلَى ظهر حمار؟" يسألونكِ بصوتٍ واحدٍ، لأنّ الطائرات حكرٌ على المقاتلين. إنَّهم يعرفونها. كانت تبدو لهم من أسفلٍ شبيهةً بالنسور. كانت تُحلِّق فوق الصحراء في طريقها لقصف المجاهدين المتواجدين في الجبال.

– هل هناك صحراء في باريس؟ يسأل الأكثرُ فطنةً.

– هل يوجد مسجدٌ هناك؟

– هل يُعلن قمرُ باريس عن قدوم شهر رمضان؟ يسأل أحد الذين بهم مسٌّ من القلق.

تُجيبين عن سؤال الذي يصرخ بصوتٍ أعلى من الآخرين.

من المؤكد أن الناس يحتفلون بشهر رمضان في باريس، ويحتفلون بعيد الميلاد أيضاً، وتتزين الشوارع بالأكاليل والمصابيح، وينتظر الأطفال "بابا نويل"، فهو يحمل الهدايا لجميع الناس، حتى الأشرار منهم.

"بابا نويل" الذي رسمتِه على السَبُّورة لا يثير الحماس مع أنكِ رسمتِ شاربيه بإتقان، ولحيته كذلك.

"بابا نويل" الذي لديكِ، أيتها المُعَلِّمة، لا يختلف عن الشيخ في شيء.

يرتفع صوتٌ حَيِيٌّ من قاع الصف يسأل عما إذا كان لدى "بابا نويل" هو الآخر أربعُ زوجاتٍ وكثيرٌ من الأطفال، وهل يأكل الخروف المحشوَّ والدجاج عند كل وجبة.

السؤال أزاحته ضحكةٌ ساخرةٌ تطلع من قميصٍ قطنيٍّ بالحجم الطبيعي ل"ابن لادنٍ" ساخر متهكِّمْ.

حَدْسُه يقول له إنّ "بابا نويل" ليس أكثر أهميةً ولا احتراماً من وزير النهي عن المنكر، أو من المُلاَّ حامي حمى الفضيلة. إنه اختراع الغرب لكي يبرهن على أن عجائزهم هناك يأكلون حتى الشبع.

سؤالٌ أخيرٌ؛ سؤالٌ يُربكُكِ.

– هل يحتفل الأطفال في باريس برأس السنة، ينادون القمر بأعلى صوتهم؟

لا تعرفين بمَ تُجيبين. تُوفِّر لكِ حلكةُ السماء المفاجئةُ المبرِّرَ لكي تَحُثِّي الأطفال على العودة إلى بيوتهم قبل أن ينزل المطر. وكانوا لا ينتظرون سوى هذه الإشارة لكي يغادروا الصف. أدركتِ، وأنتِ

تشاهدين "رحيم" يُفرج ساقيه ليمتطي حماره، أنه الوحيد القادر على أن يُزوِّدكِ بأخبار الرجل صاحب سيارة "الجيب". هل عاد من السفر؟ وهل استؤنفتْ أعمالُ البناء؟ ونور التي كانت تُريد ملاقاته، هل التقى بها رحيم في طريقه؟ فالمرأة الحامل لا يمكن أن تمرَّ دون أن يلحظها أحد.

تتلكّئين على العتبة بعد أن غاب الأطفال عن ناظريكِ، مبتهجةً بالمشهد الذي يتبدَّى لكِ. الأرض التي كانت عند قدومكِ مُشقَّقةً من فرط الجفاف يُغطِّيها النبتُ الغزير الآن، وقد حلَّ الأخضر بتلاوينه كلِّها محلَّ الأصفر والأمغر والكلسيّ: لون القمح الذي يتمايل مع الريح أخضرُ ذهبيٌّ، ولون البرسيم الذي يزحف ببطنه على الأرض أخضرُ غامق، أما الذُرة المزروعة على مشارف الصحراء فتتقلَّب ما بين الأخضر والرمادي.

لن تجوع "خوفُ" بعد اليوم، ولن يُصيبها العطش، فقد ذابت الثلوج وملأت الأمطارُ الآبارَ، وشربت الحقولُ، وتَشرَّبَ الماءُ إلى الطبقات التحتية، ويكفيه الحَفْرُ لكي يتدفق.

تُفكِّرين في نورٍ التي غادرت منذ يومين، في فراشها الذي بقي في المخزن خاوياً، في أولادها الذين يُعيدون بناء كوخها منذ فترةٍ غير قصيرة دون أن يتبين المرء منه شيئاً ملموساً.

لم تُصدِّقيها عندما أخْبَرَتْك بأنها ستُغادر؛ فالحامل لا تستطيع أن تتسلَّق جبلاً أو تَعْبُرَ نهراً. ومِثْلُها في ذلك مِثْلُ القِطَّة، تنسى الذَكَرَ وتُركِّز على الثمرة التي تنمو في أحشائها.

أمينة تُلوِّح لك بكلتي ذراعيها مشيرةً إلى أنّ لديها خبرَيْن تُريد أن تعلن لكِ عنهما؛ خبراً جيِّداً وآخرَ سيِّئاً. أما الجيِّد فخبر الصندوق الذي سوف تتسلّمينه خلال النهار. لقد جاء من باريس، ولكِ أن تُخمِّني أنه يحتوي على الكتب واللوازم المدرسية التي طلبتِها من "النجدة الكاثوليكية". وأما السيِّءُ فبخصوص نورٍ؛ إنها مفقودة. ومَنْ يدري ما إذا كانت قد عادت إلى مُحا الذي يحتجزها في انتظار أن تلفظ فرخها ليُغرقه كما كان يفعل بالقطط التي كانت تُؤويها.

أنتِ لا تُصدِّقين إلاّ نصف ما تقوله أمينة. إنها، كما تعرفين، مثْلُ أحلامكِ، لا يمكن الوثوقُ بها. فتَصَدُّعُ الأرض الذي قطع "خوف" عن بقية البلد كان في منامكِ، وساعي البريد لايزال في الخدمة لأنه سيُسلِّمك طرداً بريديًّاً. وتبقى نور. هل يمكن أن تكون قد عادت إلى بيت مُحا؟ إن ذلك أشبه بأن يُلقي المرء بنفسه بين فكّي الذئب، أو يُسْلِمَ نفسه مُقيَّد اليدين والرجلين لجلاّده. القلق يدفع بكِ إلى الشارع. تستجوبين المارّة، ثم التاجريْن الاثنين. يتذكّر العطّارُ الذي لا يبيع إلا الشموع، والحبال الرفيعة وفَتّاحات العلب، أنه لمحها ماشيةً، غير أنه لا يحدّد الاتجاه الذي كانت تسير فيه. أما الحلاق، وهو من الإسلاميين الأوائل، فهو يمتنع عن النظر إلى النساء. وحدها جليلة العجوز تقول إنها شاهدتها. لقد كانت تتجه إلى كوخها. فهي لم يَعُدْ لديها مبرِّرٌ للعيش عند الآخرين بعد أن أصلح أبناؤها واجهة الكوخ، ورقّعوا الثقوب التي فيه.

زاهي وزاد وزين الذين يتظاهرون بالعمل لم يلتقوا أمهم منذ يومين. والشيء الذي يسمونه أعمال بناءٍ يتقدَّم بخطىً أشبه ما تكون

بخطى سلحفاة. فالمرء يشاهد هؤلاء البَنَّائين على الأسطح؛ يَتشمَّسون هناك بدل أن يكونوا في الشارع.

لو أنها عادت إلى بيتها لكانوا لاحظوا وجودها، يعترض اللحامُ، وهو شخصٌ نَمَّامٌ، فالأم تُرى بالعين المجرَّدة حتى ولو كانت أشرعتْ وَرْدَتَها لغريبْ.

تعتريكِ الدهشةُ في اليوم التالي عندما يُخبركِ رحيم أنه شاهد امرأةً تجرُّ خطاها جَرَّاً على المرتقى المُؤدِّي إلى الجسر.

- هل كانت حاملاً؟

يتردد رحيم في الجزم بالأمر، وقد اعتراه الحرجُ، ثم ينتهي إلى القول إنها كانت مُدَوَّرَةً، مُدَوَّرَةً من كل الجهات، وإنه لم ينظر تحت الفستان.

- كما لو كانت ستكشف له عن عُشِّها، قالت جليلة ساخرةً وهي تُصوِّب إصبعاً بذيئاً إلى ما بين فخذيها.

أعادَتْك حركتُها إلى مشهدٍ غريب. فقد شاهدتِ نوراً ليلة اختفائها وهي تُعِدُّ عصيدة سُكَّرٍ على السَخَّان. هل كانت رائحةُ السُكَّرِ المحروق غيرُ الشهيَّةِ رائحةَ "تَحْلِيةٍ"؟

- شهوةُ امرأةٍ حامل؟

هزَّتْ رأسها في الاتجاهين؛ "نعم"، قَطَعَتْها ب"لا". غير أنها لم تأخذ في الحسبان ريبة أمينة التي شرحتْ لكِ أنّ ما تعتقدين أنه سُكَّرٌ محروقٌ هو عجينةٌ لإزالة الشعر. كانت نور تُولِم نفسها لرجلٍ، تُعِدُّ نفسها لكي يطأها.

لقد رأيتِها، وقد جاء الليل، وهي تتفحص الجبل لعلمها بأن الجسر ينتصب خلف الصخور.

إنّ نوراً قد أولت ثقتها لحَدْسها، ولخريطتكِ الجغرافية. وهي لو كانت تعرف أنّ رحيم يسكن غير بعيد عن موقع أعمال البناء لكانت استوضحتْ منه؛ إلاَّ أن نوراً لم تُصادفْ التلميذ وحماره قطّ. فهي، منذ أن أُبعدتْ عن حياة الدَوَّار، لم تُخالط أحداً سواكِ، و لم تتحدث إلا إليكِ وإلى أمينة. فالنساء اللواتي كنَّ يأتينها ببقايا وجباتهنَّ مع غسيلهنَّ الوسخ لم يكنَّ يتوجَّهنَ إليها بالكلام. كنَّ يضعنَ صُرَرَهُنَّ أسفل سياج الصَبَّار، ويَسْتَعِدْنَها في المساء من نفس المكان؛ الصحنَ ملحوساً، والغسيلَ نظيفاً. فنور، كما يعرف الجميع، ليس لها أصدقاء. أما القلّة التي أشفقتْ عليها عندما أُدينت، فقد تَضَخَّمَ بها عددُ أعدائها منذ اليوم الذي أحرقتْ فيه كوخها.

نور معْزاةٌ كسرتْ رَسَنَها ليتسَنَّى لها أن تتسكَّع ناحية الجبل، وترى ما إذا كانت الأعشابُ أشدَّ خضرةً على السفح الآخر.

الفصل الواحد والثلاثون

تسير نور دون أن يفارق نظرُها قمة الجبل، دليلُها إلى الغريب الخطُّ الخفيُّ الذي رسمته رابطاً بين شَبَكِيَّةِ عينيها، والقُنَّة التي يُغطيها الثلج. وحده الغريبُ مَنْ يعرف كيف سيحميها من الشيخ الذي يريد لها الموت. وهي، من دون البقعة البيضاء، كانت ستهيم على وجهها حتى آخر الأزمنة، وكانت ستدور حول نفسها كالأرض، من دون أن تعرف إلى أين تمضي. ضرباتُ الجنين المتكررةُ بين جنبيها رسالةٌ. إنه يوافقها على قرارها بالابتعاد عن "خوف" حيث لا حياة ممكنةً لكليهما. والجنين يُشجِّعها على الهرب، ويَحُثُّها على المُضِيِّ قُدُماً، حتى حين تعجز قدماها عن حَمْلها. تتسلق نور المنحدر على أربع، وتتعلق بنتوءات الصخر وخصلات الوَزّال، وتفعل كلَّ ما من شأنه أن يحول بينها وبين العودة إلى الوراء. يخلط عُقابٌ بينها وبين مِعْزاة، ويهوي عليها مباشرةً. فتنتظر مغمضة العينين، مصعوقةً عاجزةً عن الهرب، تُرعبها ضربةُ المنقار التي ستُمزِّق عنقها من الخلف وتُدمي رأسها من الأعلى، فالعُقاب لن يتخلى عنها إلا بعد أن ينزع لحمها عن عظمها. أتُراها رائحةُ المرأة ما نَفَّرَهُ منها؟ لقد ابتعد ظلُّ الجناحين

العملاقين، ثم اختفى يصحبه زعاقٌ طويلْ. تستأنف نور تَسَلُّقَ الجبل، وقد عزمتْ على أن تصل إلى السهل قبل أن يحلَّ المساءُ، وتخرج الأفاعي من جحورها والذئابُ، ومعها ما معها من الغُرَيْر والقيُّوط. ومضتْ تُضاعف من سرعتها رغم صفير الريح حول رأسها، يتهيأ لها أنها ستُسكتها إذا ما قامت بسدٍّ أذنيها بكلتا يديها. وهي لا تُركِّز تفكيرها على شيءٍ سوى الطريق التي تقود إلى والد جنينها، والجنين الذي اعتراه هياجٌ شديدٌ منذ أن صارت قمةُ الجبل في متناول النظر.

تتطلب منها الخطواتُ الثلاثُ الأخيرةُ جهداً يفوق طاقة البشر. وتتمكّن، بعد أن تعلَّقتْ بصخرة، من أن ترفع نفسها إلى أعلى المنحدر، ثم تستلقي هناك بكل طولها، وتُمدِّد جسمها لتُهدِّئ من تَشَنُّج ساقيها، جاهزةً لقضاءِ يومها هناك لولا الثلج المتجمِّد الذي يُحرق جلدة ظهرها. كان يتهيأ لها من أسفل المكان أنه سيكون بمقدورها أن تلمس السماء بسَبَّابتها إذا ما جازفت بالصعود إلى هذه القمة، وهي تكتشف الآن أن سَبَّابتها لا تزال على نفس المسافة من السماء.

تُجبرها الشمسُ التي تُسرع في المغيب على النهوض، فتنظر إلى الوراء لتتأكد من أنَّه ما من أحدٍ يتبعها، ثم تبدأ هبوط السفح الآخر. ساقاها المُنهَكتان لا تستطيعان الخطو بنفس الإيقاع. وهي واعيةٌ أنها لم تَعُدْ تسيطر على شيءٍ، فتترك نفسها لوزنها يحملها، عارفةً أن أدنى خطوةٍ تقوم بها خطأً ستهوي بها على الصخور الحادَّة، ورأسُها إلى أسفلٍ؛ وأنها ستموت مُهَشَّمة الرقبة كالماعز التي يعثرون عليها متيبسةً على سفح الجبل، وعيونُها التي انطفأ بريقها لا تزال تُحَدِّق في القمة.

تصل نور إلى الوادي دون أن تبذل أدنى جهد. وتسمع، وقد هدأت الريحُ، خليطاً من صيحاتٍ جهيرةٍ، وأخرى حادَّةٍ، وثالثةٍ خشنةٍ؛ فالليل يقترب ويوقظ الضفادعَ من سُباتها، وبناتِ آوى والخنازيرَ البرِّيَةْ. وهي تحرمُ نفسها من أدنى قسطٍ من الراحة، وتستأنف السير يحدوها إلى ذلك الجنين الذي يتقلَّبُ بين جنبيها مثل كُريَّة مجنونةْ. إن ما تبصره من بين غصنين نجمة. وستليها عما قريبٍ نجمةٌ أخرى، ثم أخرياتٌ كثرٌ تضيءُ كأنما لتكون دليلها كلما تقدمتْ بها الطريق.

هي تُولي النجومَ ثقتها، وإن كانت لا تعرف أسماءها أو اتجاهها. وتسير بالجنين الذي تَحوَّلَ إلى كتلةٍ حجريةٍ في أسفل سافل بطنها وهي تَسْند ردفيها بيديها الاثنتين. في البعيد شجرةٌ تبدو كأنما تُلوِّح لها بغصنها الوحيد. تتنفَّس الصعداء عندما تبلغها، ثم تتكئ بظهرها على جذعها لتغرق في نومٍ دامسْ. ولن تستطيع قوَّةٌ في العالم أن توقظها. هل حلمت بالخراف تتشممها، بالكلب ينبح، بالراعي العجوز الذي انحنى عليها وقرأ، وهو يرى اختلاجات بطنها، تعويذةً، قبل أن يُسْلم أمرها للخالق والطبيعة اللذين بيدهما وحدهما خلاصُ حَمْلها. ثم ابتعد، ويده اليسرى تضرب كتفه اليمنى، واليمنى تضرب اليسرى، يلفُّه صوتُ أجراسٍ صغيرةٍ، عارفاً أنه لن يستطيع أن يساعدها في شيء.

وحدها نور تسمع صراخ نفسها. فالجبل الذي تَقلَّص إلى بقعة داكنة لم يُحِسَّ بشيء. الزلزال بين ردفيها. وهي واثقةٌ من أن صرخاتها تهزُّ الهواء والعشب القصير والغصن الوحيد الذي يتدلَّى فوق رأسها. انتشر الدم والمخاط حولها. ولما ظهر رأسُ الوليد بين فخذيها شدَّته إلى الخارج، إلى الحياة، وسحبته من مصرانه اللحميِّ، ثم قطعت الحبل

السرِّيَ بأسنانها، ورفعت الوليد، فتأكدت من أنه لا نقصان فيه، فمدَّدته على صدرها ونظرتْ إليه مليّاً. وليدُها طفلةٌ، طفلةٌ شقراء في حين أن إخوتها الثلاثة سمرٌ؛ سمرٌ مِثْلُ رغيف خبزٍ مشويٍّ بين حجرين، أو مِثْلُ واجهة كوخها التي أحرقتها بيديها.

في ذلك المساء، عندما أغلقتِ مصراعَيْ نافذتكِ تَحسُّباً لليل شاهدتِ صورة طفلٍ على صفحة القمر.

الفصل الثاني والثلاثون

طنين الشائعات، وهي تُنذِرُ بالخطر، يملأ "خوف". إنها تتسلل من تحت الأبواب وتظهر من خلال النوافذ على حين فجأةٍ، ومن ثقوب الأرض تخرج، من صدوع الجدران، ومن الشقوق في لحاء الشجر. حتى الأذان الذي يعلو به صوتُ المُؤذِّن المبحوحُ بسبب التيارات الهوائية يحملِ الشائعات. شائعاتٌ قادمةٌ من المدينة، أسرعُ من حافلة عبده، وأطولُ من الطريق التي تصل بينها وبين الصحراء؛ تُرعب الأطفال ويبيضُّ لها شعر آبائهم. إنها الثورة تُدمدم في الساحل حيث السكان جياع، وهم يطالبون بالخبز والكباب. لقد أخذ العاملون في حقل الإغاثة الإنسانية "البركةَ" معهم عندما رحلوا. وكمِثْلِ سربٍ هائلٍ من الجراد زرعوا الفقر وراءهم. وقد داهم المتظاهرون المخابز ومحلات الجزَّارين، ولمّا لم يجدوا فيها ما يسدُّون به رمقهم عكسوا غضبهم على الأُسود الحجرية التي تجاوز عمرُها آلاف السنين تربض على بسطة دَرَجِ الحاكم فهشَّموا قوائمها بالمطارق. ولقِيَت الكتبُ، التي صارت على حين فجأةٍ مثاراً للريبة، نفس المصير، إذ إنهم أضرموا النار في المكتبات العامة وفي حوانيت الورَّاقين؛ لأنه

لا فائدة للعلم عندما يتكشَّف أنه عاجزٌ عن حلِّ المشاكل الحياتية. آلافٌ من الكتب تَفحَّمتْ، وتَدَفَّأ المتظاهرون بنيرانها دون أن تعتريهم الشفقة على المخطوطات القديمة وهي تُخشخش من الألم. جولاتُ الخَيَّالةِ الهمجية وهي تجوب الأحياء السكنية كانت أصواتُها تصل إلى "خوفٍ"؛ أصواتُ حوافر خيلٍ وصراخٌ لا يتوقف إلا مع طلوع الفجر. كانوا يلاحقون الشيطان صديق الأغنياءِ المقيم عندهم. فهو يختبئ في خزائنهم الحديدية، يأكل في صحونهم، ويقود سياراتهم، وتحبل منه النساء.

صعد أحد المتهورين، الذي تهيّأ له أنه شاهده في شكل غيمةٍ، إلى الجبل على ظهر حصانه ليشقَّه في مكانه إلى نصفين؛ ولمّا كان يبتعد كلما اقترب منه فقد عكس غضبَه على الأرض فحفر فيها حفرةً، ثم حفر في الحفرة حفرةً، ونادى الشيطان آمراً إياه بالخروج منها ليتواجها مواجهة الرجال، وتكون الغلبة للأفضل. أمورٌ كثيرةٌ تُروى في "خوف"؛ بالقدر الذي تسمح به الألسن. مات الإله، يؤكّد أحدهم. بل هو الشيطان، يرُدُّ آخر. أو كلاهما ربما، نظراً للقلاقل التي اجتاحت المدينة، يقول ثالثٌ للفصل بينهما. وقَبِل المُلاَّ حامي حمى الفضيلة الذي نُحِّي من منصبه قرار التنحية بهدوء، فسلَّم على آل النبي ونفخ على كتفيه، اليمنى فاليسرى، قبل أن يعود إلى البيت مشياً على الأقدام. أما وزير النهي عن المنكر المعروف بفظاظته فقد رتَّل سلسلةً من الشتائم، ثم بصق على الموجودين قبل أن يُخلي المكان حاملاً معه أريكته.

سارع الناسكُ الذي أُلزِم باستلام السلطة إلى تعيين وزيرٍ أول

أَسبَغ عليه لقباً لم يكن معروفاً حتى ذلك اليوم؛ لقبَ وزير التمييز بين الخير والشر. فأصدر الوزيرُ القويُّ بسلطته، ورغبةً منه في تصحيح الأوضاع، مرسوماً كل ستين دقيقةً بالتحديد، يُدوِّنُه على الفور موظفون جهلةٌ، لكنْ قادرون على التمييز بين الخير والشر، بين المؤمن والهرطقيِّ، الطاهر والنجس، الصحيح والخطأ.

المرسوم الأول: يتمُّ الفصل بشكلٍ كاملٍ بين الرجال والنساء، حتى في المقابر. يُدْفن الرجالُ على اليمين والنساءُ على اليسار، وتُعطى الأرقامُ المفردةُ للأُوَلِ والمزدوجة للأُخَرِ؛ فيُجمع بين الأموات وفقاً للجنس، لا العائلة.

المرسوم الثاني: يتمُّ تغيير المفردات المتداولة. واكتسبت الأفكار والأشياء من يومها أسماءَ جديدةً تمحو كل أثرٍ للماضي. ونتج عن ذلك هَرْجٌ ومَرْج؛ فقد كان يصدف أن يُطْلَقَ اسمان على شيءٍ واحدٍ مما يتسبب في البلبلة وعدم التفاهم بين أفراد الأسرة الواحدة، كما يتسبب في الشجارات التي تنفجر عنيفةً كالعواصف.

مرسومٌ ثالثٌ أعلن عن نهاية العالم؛ ولا أقلَّ من ذلك.

وسواءٌ كانت هذه المراسيم حقيقيةً أم كانت من اختراع أذهان أهل "خوف" المهتاجة، والذين ما فتئوا يحملون الضغينة لسكان المدينة؛ فإنها لم تُلْهِهِمْ قَطُّ عن الفكرة المتسلِّطة عليهم: أَنْ تُرْجَمَ نور. فالحجارة المُكَوَّمَةُ في الساحة تنتظرها منذ ثمانية أشهر.

"إنها لم تخطئ إلا بقدر ربع دورة الساعة"؛ وذلك بحسب مالك الساعة الوحيدة في "خوف".

"يجب ألا يتجاوز عقابُها محتوى صحفة بول"، قالت الدايةُ التي

تُجيد الحديث إلى الأعشاب التي تلتقطها من الجبل.

"الغريبة هي التي يجب أن تُرجَم -أعلنَ القاضي- فنور ما كانت لتجرؤ على الهرب لولا مساندتُها".

"أمينة هي المذنبة الوحيدة. إنها ساحرةٌ شريرةٌ لا تتنبأ إلا بالسوء لأهل "خوفٍ""، ختم الشيخ.

آخرُ إجراءٍ، وهو ليس بالمرسوم ولا بالشائعة، جاء على لسان الحلاق: "مَنْ يقبضْ على نور يربحْ ديكاً".

"ماذا يستطيع الديك أن يفعل من دون دجاجة"، زعقتْ جليلة بصوتها البغيض. "الدجاجات والنسوة وحدهنَّ مَنْ يَبِضْنَ، أما الديكة والرجال فلا يجيدون إلا التَبَجُّح. إنهن يفعلن ذلك في بيوتهن، وفي الأقنان، وحتى في ظلِ شجرةٍ عندما يفاجئهن المخاض"، أضافت جليلة دون أن تُحدِّد ما إذا كان الأمر يخصُّ الدجاجات أم النساء.

في هذه الأثناء كانت نور التي تضمُّ وليدتها إلى صدرها تنظر لأول مرةٍ إلى الشجرة التي تجلس تحتها. شجرةٌ شعثاءُ، ورقُها القليل لا يمكن أن يَقِيَ من شيء. وسوف تبحث في مكانٍ آخر عن سقفٍ تحتمي تحته. فإلى أين الذهابُ؟ وأيةَ وجهةٍ تختار، والوجهاتُ كلُّها تتشابه؟ يجذبها خرير الماء إلى خلف تلَّة. فتتجه إلى هناك وقد قررتْ أن تُوليه ثقتها. فالماء يعني نهراً، والنهر يُبشِّر بالسدِّ، قالت لنفسها، وقلبُها يُعتصَر حتى الاختناق. وهي التي اعتادت على الجدول النحيل الذي ينساب بمحاذاة شجرتها الصَبَّار، تعتريها الدهشةُ لمرأى هذا القَدْر من الماء مرةً واحدة. هل هو نهرٌ حقّاً؟ لم تكن تتصوره بهذا العرض ولا بهذا

الصخب. وتُصاب بالقلق وقد أصبحت الآن قريبةً إلى هذا الحدِّ من هدفها. فربما يكون الرجلُ الذي زرع وليدتها في أحشائها من صُنْع خيالها.

لقد كان يقيناً طوال الفترة التي كانت فيها حاملاً، أما الآن، وقد لفظ بطنُها الطفلة، فتعتريها الشكوك.

يتراءى لها وجهُ الرجل الذي مارست معه الحُبَّ تحت مخالب "الخماسين" يُخفيه الضباب، مشعشعاً بما فقدته من دم أثناء الولادة. دمٌ معروفٌ من رائحته المسيخة المُقزِّزة، تَحَوَّل على أماكن من ثوبها إلى قشورٍ بدأتْ تتشقق مثل طين جدران "خوف"، وجدرانها هي من قبل. لقد فارقها دمُها؛ دمُها وبيتُها في نفس الوقت.

تسير نور تقودها حاسةُ الشمِّ مثل القطط، ولا تتوقف إلا لتُرضع الطفلة. لقد كانت تجلس على حجر والشفتان الصغيرتان تعصران ثديها عندما ظهر لها السدُّ؛ قريباً بعيداً في آنٍ واحدٍ، يخطو فوق النهر الذي يُرغي تحت قدميه.

الضفتان لا تقدران أن تحصرا المياه الغاضبة التي كانت تتدفق من جميع الجهات. تقترب نور منها بخُطىً صامتة والطفلةُ متكورةٌ بين ذراعيها؛ تقترب كما من حيوانٍ ضارٍ متوثِّبٍ لمهاجمتها. الزبَدُ والبخار يمحوان تقاطيع الرجال الذين يجهدون في العمل في الموقع، وهديرُ الموج يطغى على الأوامر الصادرة عن الشخص المشرف على العمل، فلا تُسمع. تتعرف عليه بالرغم من خوذته. لقد كذبوا عليها عندما قالوا لها إنه عاد إلى بلده، وإن العمل في الحظيرة قد توقف بسبب الافتقار إلى التمويل. هو ذا يُهرول من مجموعةٍ إلى أخرى، يُلوِّح

بيديه، ويهدر بالأوامر بهذه اللغة التي لا تعرف منها كلمةً واحدة. وهو أضخم مما هو عليه في ذاكرتها، وأكبر سنّاً مما هو في رغباتها، وهو من عِرقٍ آخر قبل كل شيء.

لقد ألقَتْ بنفسها في فَخّ. وليس للمهانة التي تشعر بها أيةُ أهمية. فالنتيجة تتجاوز آمالها. إن كتلة اللحم المختلجة، المُعلَّقةَ على صدرها، ليست لأحد سواها، ولن تتقاسمها مع أحد طالما أنه ما من أحد يَدَّعي أُبُوَّتَهُ لها، ولَن يُسجِّلها أحدٌ في أية دارٍ من دُورِ بلدية. لن تكونَ ابنتُها مواطنةً لأي بلدٍ، ومن ثَمَّ فلن تخضعَ لأي حكمٍ من الأحكام.

أضاءت شمسٌ سخيَّةٌ فجأةً الرجال الذين كانوا يشتغلون على الضفة الأخرى مُبرزةً جذوعهم العارية؛ جذوعٌ نحاسية اللون، وشعرٌ كثيفٌ أسود على عكس الخيال الشاحب الذي التقفه الغبار. وليس على نور إلا أن تمشي على المياه الصافية الضحلة لتلمسه بأناملها. ولكن قوةً خارجةً عن إرادتها تمنعها من ذلك؛ فهي تُفضِّل أن تُحدِّق في أغصان الأَسَل التي تتمايل مع الريح، فظلُّها المنعكس في الماء يشبه حياتها الصافية الموحِلة في نفس الوقت. لقد قطعت هذا الطريق الطويل لتلتقي رجلاً، وها هي ذي تقرر الآن، وقد أصبح في متناول يدها، ألا تقترب منه.

ضمَّت ابنتَها إليها بقوةٍ أكثر، وهي تُدير ظهرها لموقع العمل، لشدة خشيتها عليها من أن تنزلقَ من قلبها.

الفصل الثالث والثلاثون

قلَّ طالبو الدرس مع الأيام؛ فالأطفال في المدرسة يشعرون بالضجر، والتركيز مستحيلٌ عندما يزعق صوتان في نفس الوقت؛ صوتُكِ وصوتُ المُؤذِّن، بلغتين مختلفتين. هو يُناديهم للصلاة في حين تُردِّدين أنتِ معهم حروف الأبجدية. وأطفالُ "خوف" لا يُحبُّون المدرسة؛ إنهم يُفضِّلون على الجمع والطرح ركوبَ الحمار أو ازدرادَ بيضةٍ من قَنِّ الدجاج. فسيقانهم خُلقت للركض، ورؤوسهم الصغيرة التي لا تتسع لأبجديتهم لا يُمكنها أن تحتوي أبجديتين. الأكثر فطنةً من بينهم وقع على حيلة؛ تعريبِ الكلمات الفرنسية، وهكذا تصبح النحلةُ "عبايه"، واللمبةُ "لامبا"، والطاولةُ "تابله"، والجرةُ "جاره". وليس مهماً أن تحافظ الدلالةُ على ذاتها، إذ على الفرنسية أن تتحرك، أن تكون أقلَّ تصلُّباً، وأن تعود أكثر مرونة. تُقرِّينَ ما يفعلونه، فلا تصفين أحداً بالجاهل، ولا تُصحِّحين أي خطأً لكي لا تجرحي كبرياءهم، ولكنكِ تغضبين عندما يُسَمُّون الأرنب ("لابان") "لبناً"، والحمارَ ("آن") "عيناً"، والحشيشَ ("لارْبْ") "حرباً".

تُواصلين التدريس رغم الجوِّ العدائيِّ ورغم الشكوك التي تحوم حولكِ بخصوص نور وكيف ساعدتِها على الهرب عارفةً أن شفاعتكِ لها عند الوزير حامي الفضيلة لن تنقذها إلى النهاية من الرجم، وعارضتِ الشريعة التي تحكم بأن تنتهي حياةُ الزانية تحت وابلٍ من الحجارة.

يستبدُّ بكِ الإحباطُ في نهاية اليوم؛ فلا أنتِ راضيةٌ عنهم، هم الذين لا يبذلون أدنى جهد، ولا أنتِ راضيةٌ عن نفسكِ، أنتِ التي عجزتِ عن أن تغرسي في رؤوسهم مفردات لغتكْ. والطردُ البريديُّ الذي وصل هذا الصباح خيبةٌ أخرى. حسناً؛ الأقلام والدفاتر والمساطر، وحتى خريطةُ فرنسا الجغرافيةُ، كلُّ ذلك مقبولٌ، وإن كان من الأفضل لهم أن تُعلِّميهم خريطة بلدهم الذي يُختزل في أذهانهم في "خوف"؛ في صحرائها وجبلها.

ولكنْ ماذا ستفعلين بالأناجيل، هديَّةِ إحدى المنظمات الكاثوليكية التي تسعى إلى فعل الخير؟ ذراعاكِ تبقيان متدليتين في مواجهة المصلوب الذي يبسط ذراعيه على مدى الأغلفة الثلاثين. ولِمَنْ ستُعطينها بما أنه لا يُفترض فيكِ أن تُدخليهم إلى هذا الدين، وإنما أن تُعلِّميهم الكتابة والجمع والطرح والضرب؟

ليس لديكِ أيةُ رغبةٍ في أن تلعبي معهم دور المُبشِّرين، ولا أن تجعليهم يكتشفون وجود نبيٍّ آخر أهمَّ من نَبيِّهم، وابن الإله، في حين أن الراسخ في رؤوسهم هو أن محمداً رسوله الأوحد، والوحيد المُؤهَّل لأن يتكلم باسم الله. تُخرجين ما وصلكِ من الحاوية ثم تُعيدينه إليها، وتقولين في نفسكِ "سأفعل ذلك في

الغد"، في حين أن الغد ليس سوى ارتياب.

مستقبلُكِ في الدَوَّار مرهونٌ بنور التي تلهو خفيفةً بين المروج والهضاب، مديرةً ظهرها للسدِّ وللذي يقوم ببنائه. خفيفةٌ هي لأنها حرةٌ في أمرها، ولأن الطفلة التي كانت ثقيلة الوزن بين جنبيها أصبحت الآن على ظهرها بوزن الريشة. حرةٌ لأول مرةٍ في حياتها، كما هو بَيِّنٌ من مشيتها، ومن جسدها الذي تميل به إلى الأمام عند كل خطوةٍ كأنَّ الريح تشاركها الاحتفال؛ الريحَ التي أصبحت حليفتها، هي التي هيَّأت لها هذا المنحنى من النهر، حيث الماء يتحرك بلا انتظامٍ كما لو أنه في طستٍ كبير. نزعتْ نور عنها ثيابها، ثم غطست فيه مع وليدتها، غير آبهةٍ بخيط الدم الذي يصبغ الماء باللون الأحمر. نزيفٌ سوف يتبعها حيثما ذهبتْ، غير أنه لن يثيرَ مخاوفها أبداً؛ فهو دمُها السيِّئُ، أسودُ من الآلام التي حبستها، يُفارقها ليحلَّ محلَّه دمٌ جديدٌ بلون الياقوت.

الأعشاب الطويلة تُحيط بها مشكِّلةً سياجاً يحميها وطفلتها، فتشعر نور بأنه لم يَعُدْ هناك من خطرٍ عليها، وأنها على بُعْدِ ألف ميلٍ من "خوف"، ومن الشيخ والقاضي، ومن مُحا الذي سلبها بابها وشبّاكيها بعد أن أخذ منها أولادها. وهي ترى، بعد تفكيرٍ، أنها أحسنتْ صنعاً بإتلاف كل شيءٍ خلفها، والانتقام لطماطمها وباذنجانها وكوساها ونبتة الحبق المُفضَّلة لديها والتي كان لها مكانٌ مُميَّز في قلبها؛ مكانٌ بأهمية الذي كان يحتلُّه قطٌّ ضاع في ليلةٍ من ليالي "الخماسين"، وكان يُمكنها أن تعثر عليه لو لم يظهر فجأةً غريبٌ

في طريقها ويغرسْ رغبته في أحشائها.

تشعر نور بأنها في كوكبٍ آخر، حتى النبتُ فيه يختلف عن الذي في "خوف". فما من نباتاتٍ مفيدة يتوزَّعها العدسُ والذرةُ، وإنما أعشابٌ عطرةٌ وأشجارٌ مثمرةٌ، ويكفي المرءَ أن يرفع ذراعه ليقطف من ثمارها ويروي عطشه. الجبلُ الذي بعلوِّ سورٍ حجزها عن نخيل "خوف" المحدودب، وبيوتِها التي من دون نوافذ، ومقبرتها المتوارية في الرمال، وأمواتها المحبطين. إن نَفَسَهُم الأسْودَ هو ما يُجفِّف الآبار، وتَنَفُّسَهم هو ما يُشقِّق الأرض ويجعل البشر قُساة القلوب. أمواتُ "خوف" وحدهم المسؤولون عن الجفاف والمجاعة وعن العطش، والعجوز جليلة التي لا تُحبُّ أحداً لأنها لا يُحبُّها أحدٌ ليست على خطأ عندما تتهمهم بأنهم هم مَنْ يمتصون مياه الخزانات ويلتهمون من جذورها النباتات التي يزرعها البشر.

"خوفُ" في ذكرياتها تبدو أكثر كآبةً مما هي عليه في الواقع؛ فلا أزهار فيها سوى أزهار الخشخاش؛ عشبة الشيطان. وهو بعد أن يُقطف ويُجفَّف على الأسطح ثم يُدَقّ يتحوَّلُ إلى مُخَدِّرٍ يُزَوِّدُ بالأحلام يتناوله حتى الأطفال حديثو الولادة. فمقدار نَفَّةٍ منه في حليبهم تُوقف البكاء، وتُغرق في السُّبات.

الفصل الرابع والثلاثون

الصحراءُ أشبه ما تكون بحديقةٍ رحبة. طلعت آلافُ الأزهار في ليلةٍ واحدةٍ، وستبقى ثلاثة أيام أو ثلاثة أسابيع لا أكثر، يقول العارفون. أغلقتِ بابكِ ثانيةً بعد أن اطمأننتِ على مصير نورٍ التي أسلمتْ نفسها للبرِّيَّة. وكنتِ قد أطفأتِ للتوِّ مصباحك حين خطَّ البرقُ السماءَ وصَبَّت الأيادي الخفيةُ الدلاء على أسطح "خوفٍ" ودروبها التي تحولتْ إلى أنهارٍ من الوحل. ناديتِ أمينة لتستمعي إلى صوتكِ أنتِ، لتُحطِّمي الصمت، ولكنّ جليلة العجوز هي التي جاءت، وكأنما كانت تنام تحت نافذتكِ. جليلة متشائمة. فالطوفان قادمٌ لا محالة، ولا شيء يمكن أن يوقف المطر ما دامت نور على قيد الحياة. فالزانيات يجلبن الكوارث. لقد أشرعتْ فَرجها للغريب، فانفتحت فُرجةٌ في السماء؛ ويجب أن تموت. دفعتِ بها خارجاً وأغلقتِ الباب من جديد. جاءت الهدأةُ مع الصباح ووقعِ حوافر تعرفينها جيداً منذ أن بدأ رحيم يتردّد على مدرستكْ. تَحَدَّى رحيم الجوَّ العاصف ليحمل إليكِ خبراً مبهجاً. عاد المهندس، عاد ومعه آلياتٌ جديدةٌ وكثيرٌ من المال، وسيشتغل الدَوَّار بأكمله عنده. تكتسي نظرة رحيمٍ بالأسى عند مرأى الأناجيل التي تَلَقَّيْتِها أمس؛ فهذه ليست المرة

الأولى التي يُشاهد فيها صورة المسيح مصلوباً. لقد سمع من قبل عن عذابات "عيسى" ابن "السّت مريم" الذي صلبه اليهود؟

تُذكِّرينه بأن المسيح نفسه كان يهودياً.

يغوص برأسه في الصندوق. يطلب منكِ نسخةً يُهديها للمهندس. تستجيبين، ولكنْ شرط أن يُسلِّمه معها رسالة منكِ.

- لأنكِ تعرفينه؟ يسأل بلهجةٍ كلُّها دهشة.

- ليس أكثر مما تعرف أنت السيِّد "المسيح". ولكن هذا الرجل يعرف لا شكَّ أين توجد نور. لقد اختفتْ منذ يومين.

- تتحدثين عن المرأة التي ستُرْجَم؟ تقولين إنها خرجتْ وحدها في دروب الله؟ مصير المرأة التي لا يرافقها أبٌ أو زوجٌ أو أخٌ هو بئس المصير؛ فهي عُرضةٌ للذئاب والقتلة. هي شبيهةٌ بمِعْزاةٍ غير مربوطةٍ إلى وَتِدْ. فالنساء، يقول أبي، خُلقنَ للعيش بين الجدران.

تنتشر رائحة الدخان في حلقكِ كما لو أنّ رحيم أشعله ناراً. ويُدرك رحيم أنه أزعجكِ فيُمسك بمكنسةٍ ويشرع في تكنيس الأرض التي ليست بحاجةٍ إلى ذلك، وقد حكَم على نفسه بالصمت؛ فتغتنمين الفرصة لتكتبي رسالتكِ إلى الذي يُسمِّيه "سِيدي المدير".

"سيِّدي"، تكتبين على الورقة البيضاء.

"اغفروا لي تَدَخُّلي في حياتكم الخاصة، ولكنّ مشكلةً بالغة الخطورة تدفعني إلى أن أفعل. لقد اختفت امرأةٌ من الدَوّار منذ ثلاثة أيام. ولقد عرفتموها منذ ثمانية أشهر عندما كانت تبحث عن قِطٍّ هارب؛ فقد تقاطع طريقا كما أثناء عاصفةٍ من عواصف "الخماسين" لم تنسوها ربما،

ومارستما الحُبَّ معاً، إذا تجرَّأْتُ على استخدام الكلمة. إن أطفالها وشوا بها إلى الشيخ، وهي متّهمةٌ بالزنا، وستُرجم بمجرد ولادة الطفل الذي تحمله. هذا الطفل طفلكم. وهي، لقناعتها الساذجة بأنكم لم تنسوها، ذهبتْ للبحث عنكم، وكلُّها ثقةٌ بأنكم سوف تُوفِّرون لها الحماية.

هل وصلتْ إلى عندكم؟ وفي هذه الحالة، هلاَّ تفضلتم بإعلامي بذلك عن طريق حامل هذه الرسالة؟"

الساعةُ الآن الثانيةَ عشرة. لم يأتِ إلى المدرسة طفلٌ واحدٌ من الدَوَّار، ولا من دَوَّارٍ غيره. أما رحيم الذي تَلَقَّفَهُ المنعطفُ فقد خَلَّف وراءه آثار حوافر حماره، وقلقكِ على نور.

يعرف سكان "خوف" أنّ قريتهم سيُغرقها السدُّ في يوم من الأيام. وربما يكون أهل الدَوَّار قد انتقلوا بسبب ذلك إلى بلادٍ أكثر رحمةً مغتنمين فرصة نومكِ ليهربوا بأولادهم ودواجنهم، وقد حشروا الكلّ في نفس الصُرَّة.

مرأى السماء على مقربةٍ شديدة من الأرض كأنها على وشك أن تسحقكِ يدفع بكِ باتجاه الساحة والأكواخ القليلة التي تُستعمل فيها كحوانيت. تذرعين الشارع جاهزةً لأن تقرعي الأبواب كلَّها بحثاً عن تلاميذك، إلاَّ أنه لا صوت يتسرَّب من المساكن المعتمة التي لا يأتيها الضوء إلا من كُوىً ضيقةٍ في السقف. وحده المسجدُ يعجُّ بالحياة. أصواتُ الأطفال تُردِّد بلا كللٍ نفس الجملة: لا إله إلا الله.

نفسُ الجملة إلى يوم الدين، تجفُّ بها حلوقُهم. أصواتٌ فَتِيَّةٌ يَعقبها صوتُ شيخٍ، ولفظُه المُتهدِّجُ مثلُ ضوءِ شمعةٍ يتذبذب تحت سياط الريح.

إنها حياة الدَّوَّار مختزلةٌ في إنشاد رتيب. وفي التماعة تفهمين سبب غياب تلاميذكِ. لقد أقنعهم الشيخ أنّ التعليم الصحيح الوحيد هو الذي يُوفِّره لهم "الكتاب".

تتوقفين بعد الكوخ الأخير. قدماكِ قدما امرأةٍ غريبةٍ لم تطأا حقلاً قطُّ؛ عَدِّ عن الصحراء. الطبيعة تبدو لكِ مزروعةً بالفخاخ. فمثيلاتُ نورٍ وأمينة ينتمين إلى جنسٍ آخر غير جنسك. إنهن من جنس النبات والمعدن. لَهُنَّ نفسُ تركيب الرملِ، وتركيب لحاء الشجر. أنتِ في طرف القرية. الهواء يَعْبَقُ برائحة الثعالب، بشَعر الماعز وقد بلَّله المطرُ، ورائحة الذُرَة اللاذعة التي نبتتْ بعد ثلاث سنوات من الغياب. صفيرُ الأوراق الحريريِّ يعطي الانطباع بأنّ "خوفَ" لا يسكنها سوى الماء والريح. وفجأةً يُصدي في السماء صوتُ المؤذِّن متوعِّداً النساء اللواتي يخرجن عن طاعة أزواجهن.

المؤذِّنُ يستهدفكما؛ أنتِ ونور.

تتساءلين، وقد تَسَمَّرتِ على الأرض، عمَّا إذا كان عليكِ الرحيلُ، أو البقاءُ لمعرفة نهاية النهاية. ولا تعرفين أيَّ قرارٍ تتخذين، فتُقرِّرين أن تُحدِّثي أمينة بالأمر رغم أنها تتجنَّبُكِ منذ حينٍ، فهي لم تَعُدْ تطرق بابكِ أو تُخبركِ برؤاها وهلوساتها. وأنتِ عادةً ما تعرفين مكانها، في الليل، من أصوات الطناجر وهي تنقلها من مكانٍ إلى مكان، ومن شتائمها عندما ترفض النارُ أن تشتعل. هل الريحُ أم أمينةُ مَنْ ينفخ في ثقوب الجدران؟هي مَنْ يَسعلُ، مَنْ ترك الماء يجري عارفةً أنّ الخزان فارغٌ، وأنْ ما من أحدٍ في الدَّوَّار سيُهرع لمساعدة امرأتين وحيدتين؟ سيُنزلون بكما العقاب، ويتركونكما تموتان من العطش، لأنكما ساعدتما نوراً على الهرب من الفتوى.

الفصل الخامس والثلاثون

سيارةُ "الجيب" الموحلةُ التي تُفرمل قسراً أمام الباب خرجتْ مباشرةً من حكاية نور. فالرجل ذو الرِّجْلَين الطويلتين الرشيقتين الذي ينتزع نفسه منها يشبه رعاة البقر في "تكساس" المُتعوِّدين على عرض براعتهم في ركوب الخيل الجامحة أكثرَ مما يشبه مهندساً تَخرَّجَ من "المدرسة العليا للجسور والطرقات": قُبَّعَتُهُ وجَزْمَتُه من النوع الذي يلبسونه في "هيوستن"، وعيناه بلون السماء الرمادية. سَبَّابتُه تُشير لكِ أن اقتربي. وينفخ هو صدرَه، ثم، ودون أن يُعَرِّف بنفسه أو يُلقيَ التحيةَ، يَمُدُّ لكِ باشمئزازٍ، كمَنْ يَمُدُّ جيفةً لفأرٍ، الرسالةَ التي عهدتِ بها إلى رحيم.

– تُرى هل هذه الأشياء الغريبة من عندكِ؟ أكيدٌ أنها من عندك، يجيب متهكِّماً قبل أن يبصق على الأرض. أنتِ الوحيدة التي تكتبين الفرنسية في هذا البلد القميء.

نظرتُه تتفحصكِ من رأسكِ حتى أخمص قدميكِ. شفتاه الممتلئتان ترسمان ابتسامةً ساخرةً، ثم يشرع في القهقهة عالياً.

– ما الذي تتقوّلين على وجه التحديد؟ أني غَرَّرْتُ بامرأةٍ ساذجةٍ؛

أنّ الشيخ والقاضي وكلَّ ما هبَّ ودبَّ، كلَّ أولئك، سيقومون برجمها بسببي؟ نسيجٌ من الأكاذيب هذه الورقة! الحَرِيُّ بشيخكِ والقاضي أن يشكراني. امرأةٌ بنُحولها كان يمكن لريح "الخماسين" أن تُهشِّمها على جدار. مومسٌ دنيئةٌ؛ دنيئةٌ أن تَدَّعي البحث عن قطٍّ في حين أنها كانت تبحث عن رجلٍ يركبها. سيكون ذلك درساً لي في الشفقة على مثيلاتها من العاهرات. ما كان عَلَيَّ أن أوصلها إلى بيتها...

- ... بعد اغتصابها، تُكملين بنفس اللهجة قبل أن تُوضِّحي: كلمةُ اغتصاب من عندي، فنور تقول إنكَ أحْبَبْتَها.

- معاذ اللهِ. أنتِ تنسين أني رجلٌ محترمٌ، ومتزوجٌ من امرأةٍ حقيقيةٍ لا من مجرد أنثى. ينكح المرءُ معْزاةً في هذه الحالة!

لا يترك لكِ وقتاً لأية ردَّة فعلْ. ينطلق بسيارته بعد أن يرمي لك بمئة درهم، موضِّحاً أن التي تحمينها لن تنال درهماً إضافياً واحداً. دواليب سيارة "الجيب" ترسم أخاديد في دماغكِ، وفي وحل الطريق. ورغم ذلك، فإنكِ لا تبرحين مكانك. مُسمَّرةٌ أنتِ تحت الرذاذ، تَلوين يديكِ، غير عارفة بما عليكِ أن تفعلي. وحده وابلٌ من المطرِ أو طوفانٌ مثلُ الذي تنبأتْ به العجوزُ جليلة يَقْدِرُ أن يغسلكِ من الخِزيِّ الذي صبَّه السيِّدُ المهندسُ في أذنيكِ.

خطواتٌ خلف ظهركِ تقترب منك، ولا قدرة لديكِ على الاستدارة، وما من تلميذ تنتظرينه، أو وليٍّ أمر. صوتُ جليلة يُلامس عمودكِ الفقريِّ، فيوقف شَعره كما تفعل العنكبوت، ثم يعلو كتفَكِ، ويمسح صفحة خدِّكْ. يتهيّأ لها أنها تُطمئنُكِ على مصير نورٍ وهي تُخبركِ أن هناك مَنْ شاهدها وهي تجري بمحاذاة النهر وتُغنِّي بأعلى

صوتها كالمجنونة. كانت تحمل وليداً على ظهرها، وتنبعث منها رائحة الدم النتنة. نور شبيهةٌ بأيّة قطّة بعد الوضع.

تنصحكِ جليلة بالعودة إلى بلدكِ الآن وقد أصبحتْ نور في مأمنٍ مما كان يتهدّدها، وبعد أن ابتعدت أمينة عنكِ.

اتركيهما لمصيرهما، ولْتعودا كما كانتا قبل مجيئكِ، "حُرْمَتان" شبيهتان بالماعز. وستعرفان كيف تتدبران أمر نفسيهما من دونكِ. نور وأمينة وجهان لقمرٍ واحد، منذورتان للموت في خسوفٍ واحد، وساقان في سروالٍ واحدْ. ارحلي مرفوعة الرأس ما دام لديكِ وقتٌ، فبعد ذلك لن يكون أمامكِ سوى الهرب وما ينهال عليكِ من حجارةٍ كوّموها لنور.

الفصل السادس والثلاثون

تَعبرين كل صباح الشارع الوحيد في الدَوَّار بحثاً عن تلاميذكِ عارفةً أنهم لن يعودوا إلى المدرسة. وتسيرين تنظرين أمامكِ، لا إلى العابرين أو النساء الجالسات على عتبات بيوتهن؛ فالنظر إلى هؤلاء تَدَخُّلٌ في حياتهم الخاصة وإهانةٌ لهم. ما كنتِ لتخرجي عن هذه القاعدة لولا الطفلة التي وقعتْ أرضاً مفترشةً طريقَكِ. تُساعدينها على النهوض، تَمسحين الدم عن ركبتها الجريحة، وهي جاهزةٌ الآن لأن تُواصل طريقها، ولكنّ ذراعيها الصغيرتين المرفوعتين باتجاهكِ تتوسلان إليكِ أن احمليها. فتتوجهين، والجسدُ الصغيرُ على يديكِ، نحو أول بابٍ حيث امرأةٌ تجلس القرفصاء في ظلِّ سياج الصبَّار الشبيه بسياج نورٍ، تنحني على قِدْرٍ يتصاعد منها الدخانُ، وتغلي غسيلها. مَنْ يُشاهدها من الخلف يخالها امرأةً من أهل البلد. وَقْعُ خطاكِ وبكاءُ الطفلة يجعلانها تلتفت، فينكشف خمارُها، وهو يسقط على مؤخرة عنقها، عن شَعرٍ متوهج بلون شَعْر الطفلة الذهبي. تُصاب المرأةُ بالهلع، وهي تتصور الأسوأ، فتصرخ ثلاثاً "ماي غود" (يا إلهي)، وتنتزع الطفلةَ من بين ذراعيكِ، ثم تشكركِ بالإنجليزية قائلةً: "ثانك يو ميس".

حدثتكِ نور قبل اختفائها عن المرأة الإيرلندية التي دفعها الحُبُّ إلى اعتناق الإسلام. فهي قد وقعتْ في حُبِّ السائس الذي كان يعتني بحصانها، وأمضتْ لذلك ثلاثة أشهرٍ في مزرعةٍ للخيول كانت في عهدته، لتتخلَّص من بحث أبيها عنها. وهو عالمُ آثارٍ راح إلى الصحراء بحثاً عن عظام الأموات: كنوزٌ كان يُرقِّمُها بعنايةٍ فائقةٍ، ثم يُرسلها إلى قسم الآثار في اليونسكو.

كان من عادة الأب أن يحفر فيما ابنته ذاتُ الأربعة عشر ربيعاً على ظهر حصانها تعدو حول الدَوَّار. وكان شَعْرُها والريح تُطيِّره يتباين مع بَوْصِ حصانها الأسود كدُبُرِ الشيطان. كنتِ تنتظرين البقيةَ لكنّ نوراً، التي لم تكن على عجلةٍ من أمرها، تَحَوَّلَتْ بالحديث إلى نفسها، فقالت إنها لم تشعر أبداً بالغيرة من الإيرلندية التي كان الكبارُ والصغارُ يلتفتون لمشاهدتها. وأنها، وهي الغنية بما تملكه من اسمٍ معْزاةٍ، ليست مدعاةً للشفقة، في حين أن الفتاة المسكينة فَقَدَت اسمَها. فهي، بعد أن كانت سُمّيت "كريستن"، صار اسمُها "عائشة" في اليوم الذي تزوجتْ فيه من السائس. لقد كان سكان "خوف" يتظاهرون بالبحث عنها، في حين أنهم يعرفون مكانها. وقد عاد الأب الذي أصابه اليأس إلى بلده بعد أن اقتنع بأن حيواناً ضارياً قد التهم ابنته.

فكَّ رحيلُه عُقدةَ الألسن. وخرجتْ كريستن من مخبئها، وأنجبتْ لسائسها ثلاثة أطفال. الثلاثةُ شُقْرٌ على حُمْرةٍ، وعلى كلٍّ منهم بُقَعٌ من الشمس على البشرة بعدد نجوم السماء. ولم تُوضع للكذبة نهايةٌ أبداً. فعالمُ الآثار ما يزال يبكي ابنته، وسكانُ "خوفٍ" الذين يخشون من سفير "إيرلندة" أن يقتصَّ منهم ما يزالون ينفون، ويتجنبون مخالطة

"عائشة–كريستن" التي ينظرون إليها في عداد الأموات. سعيدةٌ؟ تَعسَةٌ؟ لا أحد يعرف. لم تتعلم لغتنا قَطُّ، ولا تتكلم إلا مع أطفالها، باللغة الإنجليزية، وتكتفي بأن تهزَّ رأسها أو تُحرِّكه لتُبَيِّن لزوجها ما تريد.

ها أنت ذي وجهاً لوجه معها في كوخها الذي يُشبه كل الأكواخ. المقالي المُعَلَّقَةُ على الحائط تلمع بشكلٍ متقطع. أمامكِ توجد صورتان، واحدةٌ لامرأة شابَّة، نسخةٌ عن "عائشة–كريستن"، والأخرى لرجلٍ ذي شَعْرٍ أبيض. ولَما رأتْكِ تقفين قَدَّمَتْ لكِ كرسياً، وشكرتْكِ من جديد. كان ل"ثانك يو ميس" وقعٌ غريبٌ عبر دخان الموقد، والفُرْشِ المطويِّة في إحدى الزوايا، والآية القرآنية التي رسمتها يدُ خَطَّاط ماهرٍ وقد عُلِّقَتْ في خطاف. تَوقَّفَ نظرُكِ عند صندوق، فسارعتْ تشرح لكِ أنه يحتوي على كل ما تركه أبوها وراءه؛ ثمرةُ سنةٍ من التنقيب.

– لم يحمل معه شيئاً، قالت بصوتٍ بطيءٍ. لم يكن يريد أن يحتفظ بشيءٍ من البلد الذي أخذ منه ابنته.

– هل كان ثمة ما يحول دون الكتابة إليه؟ اقترحتِ في عجبٍ من جرأتكِ.

جوابُها يصفق مثل السوط في الهواء:

– ما كان سيعرفني. كريستن لم تَعُدْ كريستن. إن لها وجه عائشة.

ينتظركِ الليلُ في الخارج، وضبابٌ من الحشرات التي تحبسك داخل حلقتها. تطردينها بيديكِ الاثنتين، وتبتعدين مُصمِّمَةً على ألا تُعاودي الزيارة مرَّةً أخرى.

الفصل السابع والثلاثون

المطر الذي احتبس سنواتٍ عدَّةً يرفض أن يُبارح الدَوَّار. تستيقظين على صوته وهو يهطل فتفتحين الباب كما في كل صباحٍ، عارفةً بأنه ما من أحدٍ سيجيء. لا أحد سوى الشخص الجالس علَى الصندوق غير آبهٍ بالمطر على ما يبدو. فهو بلا حراكٍ تحت وابل المطر، لا يُحاول أن يحتمي منه، ولا يرفُّ له جفن. الوجه الذي يرشح ماءً ويتطلع إليك هو وجه الإيرلندية. إصبعها تشير إلى الصندوق الذي شاهدته عندها بالأمس، وهي تُريد منك أن تُعيديه إلى صاحبه. اسمُه وعنوانُه ورقمُ هاتفه، كلُّ ذلك مُسجَّلٌ على الغطاء. فما السبيل يا تُرى لإفهامها أنكِ غير مُؤهَّلَة قانونياً لنقل ما أسفر عنه التنقيب من آثارٍ دون موافقة السلطات؟ إنها ترفض الخوض في هذا الموضوع. فأنتِ صديقتها الوحيدة في البلدِ؛ أنتِ التي حملتِ ابنتها ودخلتِ بيتها. ثم تُحدِّثُكِ، بصوتٍ أجشَّ تتدافع الكلمات فيه متسارعةً، عن شعورها بالذنب لأنها احتفظت بكل ذلك من دون حَقٍّ. إنها تتعذب لهذا السبب، وزوجها يتعذب هو الآخر بالقَدْرِ ذاته. فالأموات الذين انتُزعتْ منهم عظامهم، الأمواتُ القدامى، يمنعونهما من النوم، ويجلبون لهما

النحس. فـ"سعيد" لم يتقدّم أبداً في وظيفته، وأطفالُهما مرضى على الدوام، وركبةُ الطفلة تَقَيَّحَتْ في حين أنها نَظَّفَتْهَا جيِّداً بالكحول.

– أمواتُ الصحراء لا يُريدوننا هنا، قالتْ بانفعالٍ شديد.

وهذه الجملةَ التي تؤثر فيكِ بشكلٍ بالغ:

– يبدو أنّ حزن أبي لا نهاية له. معَ أنني كنت أعتقد أني قد دفعتُ ثمن فعلتي، فلم أعاود ركوب الخيل أبداً.

"عائشة–كريستن" لا تترك لكِ الوقت لأيِّ ردٍّ فعلٍ إذ تبتعد منتصبة القامة مثل شجرة الطقسوس فيما المطر يُسلِّط سياطه عليها من كل الجهات.

الفصل الثامن والثلاثون

جليلة تُفاجئ على الدوام؛ فمنذ يومين كانت نور وأمينة مشمولتين منها بنفس الاحتقار، واليوم هي لا يَهُمُّها مصيرُ الأولى، وتَنْصَبُّ كلُّ مخاوفها على الثانية.

من الطبيعي أن تكون في ضياع، تشرح لكِ وكلُّها شفقة. لقد وُلدت البنت المسكينة في الجهة السيِّئة من النهار، بين شمس وقمر، عند الغسق، في الساعة التي تُجاحِف القططُ فيها الحيطانَ لئلا تَعْثَرَ قوائمُها في ظلِّها.

- كان من الأفضل لها لو أني أحتفظتُ بها في بطني ساعةً أخرى.

- لأنها ابنتكِ؟

الدهشة دفعتكِ إلى الصراخ.

- لقد كانت كذلك قبل مجيئكِ. ثم تَمَلَّكها الخجلُ من أُمِّها العجوز منذ أن صارت تكنس تحت قدميك. فالسلام ممنوعٌ عليَّ. وهي تأمر بأن أختفي من المكان حين تجيء إليه. وأمينة ستعود من جديد ابنة جليلة عندما تَغربين أنتِ عن المكان وتَقضي نور تحت الحجارة. فطالما لم يتُمَّ العثور على الآثمة فإن غضبهم سيَنْصَبُّ على ابنتي، وتلك الحجارة لا بدَّ من الاستفادة منها.

أكَّدتْ لكِ، وهي ترى امتقاع وجهكِ، أنّ حظكِ في الرَّجم ضئيلٌ لسببٍ بسيطٍ هو أنهم لا يعرفون ما سيفعلون بجثمانكْ. فلا مكان للهراطقة في مقبرة "خوفٍ"، والـ"تُربات" في "خوف" حكْرٌ على المؤمنين.

جليلة تنفخ في النار وتطفئها في آنٍ، فهي تُرعبكِ في الوقت نفسه الذي تتظاهر فيه بطمأنتكْ.

– لن يلمسوا من غريبة مثلكِ شعرةً واحدةً، ولكنهم سيُذلُّونَكِ ويطردونَكِ من الدَوّار ضرباً بالعصيِّ مثل كلبة.

تسألك، وهي تنتقل من الشيء إلى نقيضه، عن امرأة سعيد، وماذا كانت تريدُ منكِ هذا الصباح، وعن الصندوق، وماذا يحتوي. ثم تضيق ذرعاً بصمتكْ. إنها متأكدةٌ من أن الإيرلندية تُريد الهرب من "خوفٍ"، ومن زوجها وأولادها. فهي ما إن ترسل ملابسها عن طريقكِ حتى تهرب دون أن يُحسَّ أحدٌ بذلك، وتعود إلى بلدها، وتأكل حتى الشبع.

هذه المرأة هي الشيطان ذاته، تقولين في نفسكِ وقد استبدَّ بكِ الذعر. وتُغمضين عينيكِ كي لا تُشاهديها، فيصلكِ صوتُها من بعيدٍ وهي تنصحك بأن تُتخَمي بكاءً كي تستعيدي صوتَكِ، وأن تأكلي كي تتغلّبي على هشاشتِكِ، فعظامُكِ أشبهُ بعظام دجاجة، بل إنه لَيُمْكنُ أن تُلقي بكِ على الأرَض نفخةٌ من هواء. نور وأمينة أنهكتاك، وستعتني بك جليلة. فجليلة ليس لديها ما تلوم نفسها عليه. جليلة لم تَعْتَدِ عليكِ بالضرب. جليلة لم تبصق في وجهكِ. لقد وَجَّهَتْ إليكِ كلماتٍ لا يتجاوز حجمُها حجمَ حُبيبات البَرَدْ، وعليكِ ألا تلومي إلا نفسكِ إذا ما كنت تقعين مغشيّاً عليكِ لأقل تنغيص. إنها مشكلتكِ إذا كنتِ قد بلعتِ لسانكِ، ومشكلتكِ إذا كنتِ متعجرفة.

الفصل التاسع والثلاثون

لما رحلتْ نور ببطنها الآثم تَحَوَّل حقدُ سكان "خوف" إليّ. فأمينة، لا غيرها، هي البذرة السيئة. أمينة التي تُشوِّه العقول، وتُلقي بالسحر في الجهاتِ الأربع، في حين أن الجهات عشرٌ، بعدد أصابع اليدين. وأمينة التي تصنع الطَلاسم في حين أنني ليس لديّ حبلٌ رقيقٌ أَعقدُها به، ولا مقصٌّ أقطع به الخيطان التي تربطها. حين اختبأتْ نور في جوف الجبل ارتدَّ خلفها الرملُ ليخفي آثار خطاها. وسكان "خوف"، الذين كانوا يرصدون أدنى تَنَقُّلاتها خلف سياجها، يبحثون عنها الآن، في حين أنها أفلتتْ من بين أيديهم. البعض يُشاهدها وهي تُلوِّح بيديها بين أعذاق نخلة، والبعضُ يسمعها تتبادل الحديث مع عندليب القاضي في قفصه؛ ويُشاهد البعضُ الآخرُ صورتَها في الماء في حين أن الماء هجر "خوف". هي تهزأ بهم من على عرشها وقد تَنَكَّرتْ في زيٍّ سحابة، فتمدُّ لسانها ولا يَقْدِرُ أحدٌ أن يصل إليها ليبصِّقها دماً. لا أحد يملكُ سلّماً طويلاً بما يكفي لتسَلُّق السماء.

منذ أن اختفت نور ركَّز المؤذِّن خطابه على الساحرة. "كذب المنجِّمون"، يقول "الكتاب"، في حينِ أني أبعدُ ما أكون عن

المُنجِّمات، وأكتفي بقراءة الفنجان مثلما يقرأ الآخرون الصُّحُف. لقد خطر ببالي أمس عند أذان النهار الأخير أن أرفع صوتيَ أعلى منه، وأقول له إنه كذاب. فاغتنمتُ الفرصة عند حلول الظلام لأتّهمه بالتعدي على ممتلكات الشيخ، الوحيد المُؤهَّل لتلاوة الآيات، وأنّ من الأفضل له أن يلتزم ب"اللهُ أكبرُ" التي يُتعتع بها صوتُه الحادُّ الذي يُكَثِّر من حِدَّته الهواء.

طالما أن عنق نور بعيدةٌ عن متناول أيديهم فإنهم سيهجمون على عنقي. مع أن استنطاق القهوة ليس إثماً؛ فهو تسليةٌ للنساء، ومصدرُ رزقٍ لي منذ أن رحل العاملون في حقل الإغاثة الإنسانية، وتَحَوَّلَ المركزُ إلى مدرسة للجهلة. إني أقرأ الفنجان بأسرع مما يقرأون الأبجدية. فأقلُّ تَرَدُّدٍ مني يُعتبر أمراً يُحرجني الإفصاحُ عنه مثل وفاةٍ أو خبرٍ سيِّءْ. ولأنهم يدفعون لي من مالهم لكي أُزَوِّدهم بالأمل، فإني أتنبأ بالغنى للفقير، وبالزواج للنساء الوحيدات، وبالتَرَمُّل سريعاً للواتي يضربهن أزواجُهن. ولا أنبس ببنت شفةٍ إلا لكي أبعث فيهم السرور. غيرِ أنه يستحيل إقناعُ المُؤذِّن بحسن نواياي. فهو، من أعلى مئذنته، يُبَكِّتُ الساحرات خمس مرات في اليوم؛ "كذب المنجِّمون". كلماتٌ هي مع ذلك حِكْرٌ على الشيخ الذي لا يضع له حدّاً.

"كذب المنجِّمون"؛ فتنتفض لصوته شمسُ الصباح الوَسْنى، وشمسُ الظهيرة الحادَّة مثل السيف، وشمسُ المساء التي تُحتضر. صوتٌ ملؤه الكراهية يُشير، دون أن يُسمِّيَهم، إلى الذين يُضلِّلون البشر بنبوءاتهم الكاذبة.

"... وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً" (سورة النساء، الآية ١٥٠).

والمُؤذِّن يستهدف في الوقت نفسه المُنجِّمين وأمينة التي تقرأ الفنجان مقابل حفنةٍ من التمر أو صحنٍ من الحساء. صوته يلاحقني حتى عندما أكون في المستودع. كان عليَّ أن آخذ حذري يوم فاجأتُ نوراً وهي تنتف شَعر بطنها؛ فهذا النوع من العناية بالبَشَرَة تُخَصُّ به العرائس الشابات لا النساء الحوامل؛ تلكم القِرَبُ المليئةُ دماً جاهزاً للانبجاس عند كل شعرةٍ تُقتلع.

من المستحيل أن تطلبي من الغريبة أن تحميكِ، فذهنُها مشغولٌ بتحويل المخبولين الصغار إلى بحارٍ من العلم والمعرفة. إنها متعلِّقةٌ بهم في حين أنّ من الأفضل لها أن تُعلِّقهم على جذع نخلةٍ؛ أن تربطهم إليها كما يربط رحيم حماره، أن تُعطيهم خبزاً لا طباشيرَ وألواحاً من الـ"أردواز".

"كذب المُنجِّمون". إن المُؤذِّن يريد موتي، وكومةُ الحجارة التي جُمعت لنور سينتهي بها الأمر إلى أن تنقضَّ على رأسي. صوتُ نَعَّارةٍ، ومنشارٍ صدئٍ، ودولابٍ غارقٍ في الوحل. لم أُصْغِ أمس سوى لغريزتي عندما تَسَلَّقْتُ إلى أعلى النخلة. كان ذلك مأثُرَةً حقيقية. ثلاثُ حركاتٍ في زمنين، وها أنا ذي جاثمةٌ على نفس العلوِّ الذي هو عليه، أصرخ فيه أن انزلْ إلى الأرض الصلبة لتنازلني، أنا التي ليس لي ما ألوم نفسي عليه. أتعرفون ماذا فعل؟ الجبانُ، تظاهَرَ بأنه لم يسمع شيئاً، وأدار وجهه الشبيه بوجه الغراب ورائحةَ فمه النتنةَ باتجاه الجبل كأنما يتّهم الصخور بالكذب.

بعد أن تسلَّقْتُ النخلة بخفَّةٍ ومهارةٍ مثل معزقةٍ آليّةٍ أو قاطف التمرِ ونزلتُ من أعلاها لم أَعُدْ نفس المرأة. فأمينة الخاضعة تَحَوَّلَتْ

إلى حانقة، ومجنونة بحسب أقوال الذين رأوني أعدو هائمةً على وجهي خشيةً أن ألامس أمثالي من البشر. كانت سنابل القمح اليابسة تنتصب في طريقي تصرخ بي "كذب المنجّمون"، وتتمتم الأشواك نفس الجملة، حتى الأعشابُ القصيرةُ الشاحبةُ، ورغبةً منها في ألا تتشبّه بغيرها، كانت تعوي "أحرقوا الساحرة، ماذا تنتظرون لكي تُحرقوها؟". وأدَلَتْ ضفدعةٌ بدلوها أيضاً، وهي الوحيدة التي نجتْ من الجفاف، فقد ظنّت نفسها مجبرةً على أن تُضيف هي الأخرى لْمستها، فكانت، لعجزها عن التلفظ بشيءٍ، تكتفي بأن تفتح فاها ثم تُغلقه دون أن يصدر عنها أيُّ صوتْ. واصلتُ العَدْوَ خشية أن تلحق بي الأصوات إن أنا توقفتُ؛ العَدْوَ ليلاً نهاراً، أسرَع من الأشجار والأشواك والأعشاب والضفدعة، بحثاً عن ذاتي، يُصيبني النحولُ بشكلٍ لافت، وأُصبح شفافةً أكثر فأكثر، شبيهةً بزجاج نافذة لا يمكن لأحدٍ أن يُمسك بي لأني لا أُرى، وبفضل ذلك فإنه لا يمكنً العثور عليّ. أما الغريبة فما عليها إلا أن تتدبر أمرها في مواجهة حشد العُتاة الذين سيُفتّشون مدرستها بحثاً عني.

أمرٌ أخيرٌ؛ العذاباتُ التي يسومونني إياها، منذ رحيل العاملين في حقل الإغاثة الإنسانية، لها ثمن. فالله الذي يرفع الظلم عن عباده ويُعوِّضُ المظلوم سيجعل مني وَلِيّةً من أوليائه. سأكون بعظَمة "السّت زينب". لديَّ بئرٌ أكبرُ من بئرها بمرتين، ولديَّ الماءُ الغزير. وسيشرب منه أهلُ "خوف" زحفاً على ركبهم، وفي طليعتهم المؤذّن، ثم يشكرونني وجباهُهم تلمس الأرض مراتٍ ثلاثاً متتالياتٍ إلى أن يعجزوا عن التمييز بين رؤوسهم والأقدام.

الفصل الأربعون

تركَكِ رحيلُ أمينة من بعد نور وحيدةً تُواجهين الأربعين قنديلاً التي تُضيء في نفس الوقت فور انتهاء الصلاة الخامسة؛ وحيدةً بشكلٍ لا مثيل له. ومع ذلك فأنتِ تُفضِّلين أن تكونا على مبعدةٍ من "خوفٍ" وشيخِها. فأمينة، كما تعرفينها، لن تُحسن الدفاع عن نفسها. ستهرب الكلمات الكفيلة بإثبات براءتها بعيداً عن لسانها المؤَهَّل أكثرَ لإطلاق النبوءات عندما لا يُطلق الشتائم. وهي ما إن تُلْوَى رقبتُها كالخروف تحت سِكّين الجَزّار حتى تستسلم للأمر دونما اعتراض. فبعد أن اختفت نور حيث لا يدري أحدٌ، ستحلُّ هي محلَّها حتى وإن كانت لم تقترف أدنى عملية زنى. لقد استأذَنَتْكِ ليلة اختفاء نور أن تنام في غرفتكِ على الأرض عند حافّة سريرك. لم ترفضي، فأنتما صديقتا نورٍ الوحيدتان، وبينكما يربط الخوف؛ نفسُ الخوف عليها. لقد كانت، وهي متكوِّرَةٌ على نفسها على الأرض العارية، تنتفض لكل صوتٍ وفي كل مرةٍ تضرب الريحُ بقبضتها على النوافذ. ثم دفع الفجرُ بها على الدروب في اتجاه الحقول، وسط النبات الذي تَكاثَفَ منذ المطر الأخير. كانت ذاهبةً للحاق بنور، تُقاسمها مصيرها، وإن لم يكن لديها على نفسها

أيُّ مأخذ. فنور هي التي كانت تلهث تحت رجلٍ، وهي التي صعقتها اللذةُ، أما أمينة فإنها لم تكن تشعر بشيءٍ عندما كان غونزاكيس يُحكِّكُ بها جسده. لقد كانت تستسلم لما يفعله بها، تقدِّم له خدمة لا أكثر.

هي ذي، وقد أصبحت في مأمنٍ من الخطر، لا تزال تلتقط أصوات الدَوَّار، وصوتَ المُؤذِّن الحاقد وهو يلقي بتُهَمِه عليها دون أن يُسمِّيها أبداً. لقد وجدتْ نفسها، بعد أن عبرت السهل، في مواجهة الصحراء التي تخاف من عُريها لأن أدنى خيالٍ فيها يبين للعيان. فسارت منحنيةً حتى الأرضِ، لا بل وكانت قد زحفت لو أن الرمل كان أقلَّ رطوبة.

بلغت الجبلَ وهي تُطلق تنهيدة ارتياح. كانت تعرفه عن بُعْد، أما عن قُرْبٍ فلم يحصل ذلك أبداً. الرغبة في الالتحاق بنورٍ زَوَّدَتْهَا بجناحين، فجعلتْ تقفز من صخرةٍ إلى أخرى، تُعرِّض نفسها للمخاطر، تتعلق بكلِ ما يقع في متناول يديها لترفع نفسها إلى القمة فيما تتمتم شفتاها المُزْرَقَّتان من الجهد: "سوف ألتقي نورَ ثانية". الصريرُ الصادر عن الحصى جعلها تنبطح أرضاً. هناك مَنْ يُلاحقها.

تزحف أمينة على طولها باتجاه أحد الشقوق، تلتفُّ على نفسها كرةً من الرعب والعَرَقْ؛ فالأفعى التي تنتصب على ذَنَبِها وجهاً لوجه متأهِّبَةٌ للهجوم. تَجَمَّدَتْ من الخوف لا تفعل شيئاً للإفلات منها فيما عيناها تهذيان، تَحسُبان المربعات السوداء على البطن الرمادي. هل الخوفُ معدٍ؟ فالحيَّة، بعد أن شرعتْ في الهجوم، انزلقتْ على الأرض ثم اختفتْ في شقٍّ في الصخر.

عادت ساقا أمينة إلى المشي بأعجوبة. "سوف ألتقي نورَ"، تقول

أمينة بصوتٍ عالٍ هذه المرة ليسمعها الجبلُ الذي سوف ينقل ذلك على شكل صدىً لأهل "خوف". تنتشي أمينة لسماع صوتها وهو يرتدُّ إلى أذنيها فتصرخ من جديد؛ أمينةُ ليست ساحرة. أمينةُ فتاةٌ طيبة. فالأرواح الخيِّرة هي مَنْ يُملي عليها رؤاها، لا الأرواحُ الشريرة. أمينةُ لم تُؤذِ أحداً أبداً. إنها مسالمةٌ، وضائعةٌ قليلاً كما تقول أمُّها المتسوِّلة.

يتهيأ لأمينة أنها تصرخ، يتهيأ لها أنها تتكلم، في حين أن الكلمات لا تصل إلى فَمِها. فكلٌّ ما ينبعث من شفتيها بخارٌ أبيضُ سببُه البردُ الذي اجتاح هذه القمم.

تُكملُ السير رغم صفير الريح في أذنيها. ريحٌ جَزْعى عندما تُشرف على هاوية، صرصرٌ عندما تَعثَرُ أقدامُها في الأشواك، خرساءُ عندما تُلامس عُقاباً. لا تمنح أمينةُ لنفسها أدنى فرصةٍ للاستراحة، إذ يجب أن تلقى نوراً قبل الليل، وقبل السدِّ، وقبل عودة المهندس من موقع العمل. إنه لقادرٌ على أن يُغلق الباب في وجهها، وأن يمنع نوراً من أن تَرُدَّ على نداءاتها. وقد يقتلها ليتخلَّص من وجودها، ثم يصبُّها في كتلةٍ من الإسمنت، ولا يُبقي لها من أثر. فالإفرنجيون، والكلُّ يعرف ذلك، أُناسٌ بلا شفقةٍ على عكس المسلمين الذين لديهم خوفٌ من الله مغروزٌ في القلوب.

ما إن وطئتْ قدماها القمة حتى أيقنت أمينة أنها في مأمنٍ من الخطر. العالم المحيط بها جافٌّ يصدر عنه صريرٌ من كل الجهات. فضاءٌ أبيضُ بلون العظام لم تُدنِّسْ بياضَه يدُ بشرْ. وتشتهي أمينةُ أن تُطيل المكوث فيه، لكن الواجب يُناديها إلى أسفل، من جهتَي الخطِّ الأخضر الذي يتعرج بين سياجين من الأشجار على إحدى ضفَّتَي النهر الذي ينبغي على ناظريها ألا يبتعدا عنه إذا كانت تريد أن تلقى

نور. والنزول، بالمقارنة مع الصعود، وهي تعرف ذلك، لن يكون سوى لعب أطفالٍ، فسوف تُسْلم نفسها لوزنها يحملها، وستجد نفسها في الوادي دون أن تكون قد بذلت أقلَّ جهد. المهم أن تصل قبل الليل، وقبل إغلاق موقع العمل.

الفصل الواحد والأربعون

جمعت الصلاةُ الأخيرةُ لهذا اليوم رجالَ "خوف" في الساحة، وقد قرَّرُوا أن يُقيموا الحدّ. سُلطتُهم على المحكّ، وسيَّانِ أقاموه على نور أو على أمينة، فكلُّ "حرمة" تغادر الدَوّار دون إذن رجلٍ تفي بالغرض المطلوب. أحاطوا بالجبل وقد تَحَوَّلُوا إلى صيادين، سبروا كل تجاويفه، دخلوا كلَّ كهوفه، وصرخوا في كلِّ صِدْعٍ فيه. فلما لم يُجِبْ نداءاتهم إلا الصدى مسحوا العرق عن جباههم، ثم نظروا حولهم. الجبلُ الذي كان يبدو لهم رمادياً من بعيدٍ، أبيضُ تحت جزماتهم. أبيضُ وسريعُ التفتت مثل الطباشير والملحِ. أتُراهم صادقين، أولئك الذين يُؤكِّدون أن الصحراء كانت بحراً في الأصل، وأنها حين غطَّتْها رمالُ "الخماسين" حلَّت الجِمالُ فيها محلَّ الأسماك والقوافلُ محلَّ السفن؟ لقد أسلمت الشمسُ، حين شربتْ آخر قطرة ماء، أرضاً صمّاء للريح الثرثارة التي محت التلالَ لتُجمِّعها في كتلةٍ واحدةٍ، في جبلٍ يبدو رمادياً لِمَنْ يُشاهده من الدَوّار، وأبيضَ تحت الجِزماتِ؛ أبيضَ إلى الحدِّ الذي نسوا معه ما أتوا لأجله، ونسوا المرأة التي يريدون القبض عليها سيَّان كان اسمُها نوراً أو كان أمينة. سُلطتُهم على المحكّ. فما الذي سيَحلُّ

بهم إذا ما شرعتْ زوجاتُهم أو بناتُهم أو أمهاتُهم يبحثن عن المتعة عند غيرهم، وشرع الغرباءُ يمتطون نساءهم من دون واقٍ مثل أفراسٍ من غير سروج أو رَسَنْ؟

الصوتُ هو ما يُنبِّه أمينة للخطر. وهو لا يصدر هذه المرة عن إحدى الزواحف، وإنما عن كائنٍ بشريٍّ، عن رجلٍ يقول نَفَسُهُ المُتَهَدِّج إنه كان يعدو، وإنه بذل الكثيرَ من الجهد لكي يصِلَ إليها. تمتنع عن الحركة، وتُغمض عينيها. هو لن يَسْتَدِلَّ عليها إذا كانت هي لا تراه. يُحلِّق سروالٌ فوق رأسها في قفزة، ويبتعد ثم يعود باتجاه الشقِّ الذي انزلقتْ فيه لتُفلت من الرجل. تُفتش جمرتان المخبأ الصغير. يتبع ذلك صيحةُ انتصارٍ، ثم ضحكةٌ؛ ضحكةُ الضَبُع أمام جيفة. تنطلق صيحةٌ تحشد وتُؤلِّب الصيادين المنتشرين على سفحَي الجبل، وآذانُهم بالمرصاد في انتظار أن يتجمعوا ويُقيموا عليها الحدّ. تندسُّ العِصيُّ في الصِدْع، تضرب على غير هدىً من دون معرفة ما إذا كانت الفريسةُ حيواناً أو امرأة. ولمّا كانت الضربات قد قضت على كل إمكانيةٍ لديها للدفاع عن نفسها فقد اقتلعوها شدّاً من شَعْرها، ثم أجهزوا عليها ضرباً بالجزمات. أمينة لا تستحق سوى أقدامهم، فأيديهم ترفض لمس الجسد المرذول الذي كاد أن يُفلت منهم. الوجهُ مُدَمّى، التقاطيعُ مُشَوَّهَةٌ بسبب الجروح، ومع ذلك فهي لا تزال تتنفس. أهي نورُ التي قبضوا عليها أم هي أمينة؟ هم لا يستطيعون أن يجزموا، فالليل هبط أبكرَ من المعتاد والجبلُ غارقٌ في الظلام. وسيعرفون ذلك عندما يصلون إلى "خوف"، في الساحة، حيث ينتظرهم الشيخ والقاضي، وكلُّ سكان الدَوّار.

جسدُ أمينة الذي تجرُّه قبضةٌ من حديد يقفز من صخرة إلى صخرة، ويُعطيها الانطباع بالطيران عندما يشتدُّ الألم بها إلى الحدِّ الذي لا تعود تشعر به، فتظن أمينة نفسها طائر خَطّاف.

الأرضُ البطحاءُ بعد التضاريس الوعرة. السهلُ يُشفق على عظامها؛ فأمينة تُحسُّه شبيهاً بلحاف من حرير، وتترك نفسها تتزحلق ميتةً حيَّةً في آن واحد. هل هي في ساحة "خوف"؟ لا شيء يقول ذلك؛ مع أنّ أُذُنَيْها تلتقطان حتى آخر ترنيم لقولة "الله أكبرُ" التي يهتف بها الحشد. "الله أكبرُ" عذبةٌ على قلبها، عذبةٌ ولذيذةٌ مثل صوت الشيخ الذي يستقبلها بهذه الكلمات:

- سنجعل منكِ شهيدةً يا نورُ الآنَ، وقد دفعتِ ثمن خطيئتك. وسنحتفي بكِ عند كل غروب شمس، بعد الأذان الأخير، بعد أن يسكت صوتُ المُؤذِّن. وتقدر الحجارةُ التي في الساحة أن تتفرق الآن بعد أن استردَّتْ "خوفُ" كرامتها. الله العليُّ العظيمُ قد قَبِلَ توبتَك.

- لقد تمَّ كلُّ شيءٍ حسب الأصول، استرسلَ القاضي. فقد استمعنا إلى أربع شهادات على الزنا كما تقتضي الشريعة، إنها شهادات الأولاد الثلاثة للتائبة وشهادةُ رابعٍ نُبقيه سرّاً في الوقت الحاضر.

أمينة، التي كان موتُها يتزايد في كلِّ خطوة يخطوها أولئك الذين جَرُّوها، ماتت هذه المرة بشكلٍ نهائيّ. صحيحٌ أن عينَيْها بقيتا مفتوحتين غير أنهما ليس فيهما أحد. إنهما خاويتان. دموعها التي لا لون لها ليست دموعاً حقيقية. لقد ماتت مثل شجرة تَمَّ قطعُها شيئاً فشيئاً بالمنشار، تنقلب ببطءٍ عند كل تمزيقٍ للحائها قبل أن تَهوي مُحدِثَةً ضجَّةً شديدة.

الفصل الثاني والأربعون

تدفع بكِ الصيحاتُ والزغاريدُ إلى الساحة، فتستوقفكِ جليلةُ في منتصف الطريق تنصحكِ بأن تغادري "خوف" قبل أن تداهمكِ الأحداث.

– لكي لا يكون مصيرُكِ نفس مصير الأخرى.

دون أن تُحدِّد اسم هذه الأخرى.

وتُجيب بسؤالٍ آخر عن سؤالكِ عما إذا كان الأمر يتعلّق بنور أو بأمينة:

– كيف لي أن أعرف ذلك؟ كل الأموات يتشابهون. أهل "خوف" جاهزون لأن يقتلوكِ من دون بَيِّنَةٍ ولا شهود فور انتهائهم من دفنها. اهربي طالما أنهم مشغولون الآن. إنهم لم يقبلوا بكِ أبداً، وأبداً لم يُحبُّوكِ، ويرتابون في أمركِ كباراً وصغاراً. فأنتِ تتكلمين لغتين في حين أنّ لكِ فماً واحداً؛ العربيةَ لكي تُداهنيهم، والفرنسيةَ لكي تُخفي عنهم حقيقة ما تُفكّرين فيه. لولا تَدَخُّلُكِ لكانت نورُ ترقد منذ شهور في الزاوية من المقبرة حيث تُدفن المرجومات، ولكانت أمينة تُواصل قراءة الفنجان مقابل صحنٍ من الحساء. لقد شحنتِ رأسيهما بالأوهام، فأدخلتِ في روع الأولى أن من حقها أن تُحبّ، وفي روع الثانية أن بوسعها أن تتنبأ بالغيب، فتهيَّأ لهما أنهما امرأتان في حين أنهما أُنثيان، أُختان للأبقار

التي تَنتُجُ، والأفراس الولودة، والدجاجات التي تبيض.

- ارحلي، ولْتنقطعْ أخبارُكِ عنا. صديقتاكِ الوحيدتان ماتتا واحدتُهما في الأخرى، إذ لا حياة لأمينة من غير نور، ولا حياة لنور من غير أمينة، فقد كانتا مثل أصابع اليد الواحدة.

ثُمَّ، ولكي تجمع بين الكلام والحركة، جعلتْ سَبَّابتها فوق وسطاها: عُسْلُوجَي كرمةٍ يابسيْن تحت جلد أشبه ما يكون بالرقّ.

محا الليلُ كل ما في متناوله، فغابت الطاولة والفراش عن ناظريكِ، ولكنكِ لا تُشعلين الضوء. فمنذ هذا المساء وكلُّ الأشياء تبعث على الخوف. ظلُّ النخلة على الرمال يرسم عنكبوتاً عملاقة، ويُعيدكِ صوتُ المزراب إلى الزغاريد الوحشية، والألسنِ وهي تَطرقُ الأحناكَ بجنون؛ فالمزراب يُدمدم ساخطاً مطالباً بالانتقام. ثلاثُ ضربات على زجاج النافذة تبعث فيكِ الأمل المُحال، فتتأهبين بسرعةٍ لفتح الباب لأمينة أو لنور أو ربما لكلتيهما اللتين لا تزالان على قيد الحياة رغم ما يُقال، ورغم الحشد المحيط بالتي تُنازع في الساحة.

ليست التي تأمركِ بالالتحاق بها سوى "عائشة-كريستن". وجهُها شاحبٌ يضيئه فانوسُها الموضوع بجانب قدميها. إنّ عبده قد أوقف حافلته في أسفل الدَوَّار كي لا يَستدلَّ عليكما أحدْ. "لقد تَحسَّب لكل شيءٍ حتى لا يفطن أحدٌ لرحيلكِ"، كرَّرتْ للمرة الثالثة.

ترفضين أن ترحلي دون أن تَرَيْ ثانيةً نوراً وأمينة. إذ ماذا سيكون مصيرُهما من دونكِ؟ تأمركِ يدُها الموضوعةُ على فمها بالصمت. فجدران "خوف" النفوذة تلتقط أدنى كلمة، وعليكِ أن تحذري من الجميع، ومن القاضي في المقام الأوّل، فهو مُصابٌ بالأرق، ويذرع

الدَوّار جيئةً وذهاباً حتى طلوع الفجر، وأن تحذري من جليلة التي تنام مستندةً بظهرها على أيِّ جدار. "لن يسمح عبده بقتلكِ"، تمتمتْ بصوتٍ مبحوحٍ من شدة الخوف في حين أن هذا الاحتمال لم يخطر ببالك قطّ. سيحبسونكِ، ويستعملونكِ كعملةٍ يُبادلونها بالأَرُزِّ والطحين والمُعلَّبات، أما فرنسا فستطالب بكِ شكليّاً وحسب.

ستكونين رهينةً لديهم، وتدفعين ثمن رحيل زملائكِ عن "خوف" دون أن يقوموا بزيارة القاضي كما لو أنهم يغادرون حظيرة خنازير. اهربي ما دامت ساقاكِ قادرتين على حَمْلكِ، وما دام عبده يشعر أنه مسؤولٌ عنكِ.

– ولكنْ ماذا سيحدث لتلاميذي؟

تنفجر "عائشة–كريستن" بالضحك عالياً.

الوديعون سيُصبحون مجاهدين، والعنيفون إرهابيين، أما أولئك الذين يعرفون كيف يُثيرون حماس الجماهير بخطبهم فسيُصبحون أئمةً.

– ومع مَنْ أتركُ المفتاح لأمينة التي ربما تعود؟

– لا فرصة لديها لاستعماله بعد أن أوسعوها ضرباً، قالتْ بصوتٍ خافتْ.

– تُريدين أن تقولي إن المُسَجّاة في الساحة ليست نور؟

تُجيب "عائشة–كريستن" بيدٍ تضرب الهواء وراء كتفها، فهي تُفضِّل ألا تعرف. وها أنتِ ذي تحزمين ملابسكِ في حقيبتكِ الصغيرة، استعداداً للهرب.

"كريستن" التي تبتعد بعد أن تركتكِ في عهدة عبده عادت من جديدٍ "عائشةَ" تحت الحجاب الذي يَلُفُّها من رأسها حتى أخمص قدميها.

تسيرين في إثره، فيما يُضيء فانوسُه النخيلَ الأشعثَ وكأنه المكانسُ منتصبةً على مقابضها. لقد تحوَّل الصخبُ في الساحة إلى صمت. هل اجتمعوا في مكانٍ آخر يا تُرى، بين أربعة جدرانٍ، لكي يتداولوا في أمرِكْ؟ عبده لا يستسيغ هذا الصمت. وعبده يدفعكِ إلى أن تَغُذّي السير. تدوسان على أرضٍ حمراء. الترابُ على مشارف الصحراء يبدو كأنما اختلط بالدم. وبعدَ أن أُغلِق بابُ الحافلة انطلق عبده بهدوء. أنتِ الراكبُ الوحيدُ في حافلته. تتجاذبان أطراف الحديث فيما أنت جالسةٌ على المقعد الخلفيِّ، يفصل بينكما خمسةَ عشرَ مقعداً فارغاً. الأسئلة التي تتبادلانها لا تتَّفق دائماً مع الأجوبة. وعلى كلٍّ فإن الأمر ليس بذي بال. تشعرين بالأمان إلى جانبه. فالزواج الذي لم تُكملاه أبداً بالدُخْلَة ما زال يربط بينكما. تتناقشان مثل زوجين قديمين؛ مثل صديقين؛ مثل شريكين في السرَّاء والضرَّاء.

– إلى أين أنتَ آخذٌ بي يا عبده؟

– حيث للرجال في قلوبهم رحمةٌ وللأشجار ظلٌّ.

– وهل من سبيلٍ لمعرفة ما صارت إليه نورَ؟

– المرضعاتُ يحميهن جوعُ أطفالهن.

– لأنها وَلَدَتْ؟

– وحدها الحجارةُ لا تلد. وحدها الحجارةُ لا تنزف. إنّ خيط الدم المُتَّجِهَ من السدِّ إلى الطريق المُسَفْلتة هو لأنثى وَضَعَتْ.

– لِمَ لا نذهب إلى السدّ؟

هزَّ عبده رأسه.

– الدم يسير مع مَنْ ينزفه مثلما يسير الماءُ مع الجدول، قالْ. وحدها

الأشجارُ لا تسير، فهي تقضي حياتها، حياةَ الشجر، في نفس المكان، مُوَجِّهةً وجهها الوُجْهةَ نفسَها.

– نور حيّةٌ إذاً؟

– بقدْر ما نحن أحياءٌ، أنا وأنت.

– ومَنْ تكون المرأة التي عادوا بها من الجبل؟

– أمينة في ثوبٍ من أثواب نور. ولا أحد يدري لماذا استعارته منها. هل كانت تُريد أن تموت مكانها؟ الله وحده مَنْ يعلم.

يستدير عبده نحوكِ بالرغم من العتمة التي تحول بينه وبين رؤيتكِ.

– كم من طفلٍ وضعتِ أيتها الغريبة؟

– كان لي قِطٌّ، تمتمتِ في حرجٍ، وقد رحلْ.

– رحل مثلما فعل زوج نور؟ مَنْ يدري ما إذا كان هو الآخر سوف يفتح كازينو، ويجني المال الكثير...

يضحك عبده الكئيبُ بأعلى صوته، سعيداً باكتشافه. هل تُراه يعتقد أنه يواسيكِ وهو يُبشِّرُكِ بأنه سيأتي يومٌ يكون لكِ فيه أطفالٌ بعدد نجوم السماء؟

لقد أيقظ عبده دون أن يدري رغباتٍ عمرُها الكثير من السنين. فقد كنتِ تحلمين بأن يكون لكِ طفلٌ من حبيبكِ، وكان الأمل يخيب عند آخرِ كل شهر. أتُراه خيطُ الدم الذي كان يُلوِّث فخذيكِ كان ينبع من قلبكْ؟

لو أنه كان سعيداً معي لما تركني، تُكملين لنفسكِ في حين كان لعبده الذي واصل التفكير في القطِّ رأيٌ آخر. يُحذِّركِ عبده من القطط؛ فهي عَصِيَّة على كل تَوَقُّعٍ بخصوص سلوكها؛ ترحلُ، ولا تعود إلا لترحل

أبعد، وهي غير قادرة على الوفاء.

هديرُ المحرّك يوقظ القرى النائمة، وشمسُ الصباح تُسلّط بحدّة ضوءها على مَكَبّ النفايات؛ فجبلُ القمامة ينتظر الأطفال نَهّابي الفضلات. يحرص عبده على أن تكتشفي الأحياء الجانبية حيث يتجمّع أولئك الذين طردهم الجوعُ من المناطق الداخلية. فالعصافير تهجر الحقول غير المزروعة، في حين أن الأسماك لا تُغادر البحر. والطعامُ موجودٌ على الدوام في المناطق الساحلية، حتى تحت أسقف الصفيح المُتَغَضّن التي تمرُّ أمام ناظريك بغسيلها الرثّ. إنها مدينةٌ خارج المدينة تحيط بها وتخنقها، لم تتخيلي وجودها في رحلتكِ الأخيرة عندما كنتِ تعتقدين أنكِ أنقذتِ نوراً من الموت، في حين أنكِ لم تفعلي أكثر من أنّ أنكِ أرجأتِ مجيئه لكَي تتخلّي عنه لأمينة التي "وُلِدَتْ في الجهة السيئة من النهار بين شمسٍ وقمرٍ، في رُمْدَةِ النهار الشبيهة بحياتها"، كما قالت جليلة.

يُمكن للشيخ والقاضي أن يَنْعما بالنوم الآن وقد ماتت امرأةٌ في الساحة مقابل كومة الحجارة التي كدّسها سكانُ الدّوّار؛ فسُلطتُهم سوف تخرج من الأمر وقد تَعزَّزَتْ أكثر. إنّ "خوفَ" بعيدةٌ عن المدينة، وليس عليهم أن يخضعوا لقوانين جمهورية أَلْقَتْ بهم في غياهب النسيان. "خوفُ" تنتمي إلى الصحراء. همومُ سُكّانها تختلف عن هموم سُكان المدن الذين يتصارعون من أجل السلطة والمال، في حين أنهم يُصارعون الرمال التي تكتسح أكواخهم، و"الخماسينَ" التي تحبسهم فيها كالفئران، والجفافَ الذي تستوحِدُ بسببه الآبار. "خوفُ" تُفنِّدُ قوانين الجمهورية.

الفصل الثالث والأربعون

عندما وصلتِ "خوفَ" منذ أكثر من ثمانية أشهرٍ كان الألم يعتصر قلبكِ كلما وقع نظرُك على الأطفال وهم ينبشون الأرض بحثاً عن حبَّات قمح، وكان المُفتَرضُ من وجودكِ فيها أن تُساعدي السكان المنذورين للموت، فوجدتِ نفسكِ عالقةً في قساوة تقاليد قادمة من العصور الوسطى. حملتِ إليهم الثورة بدلاً من أن تحملي الطعام. وجرَّتْكِ نور إلى مأساتها قبل أن تَجُرَّ إليها أمينة. أما نجاتُكِ، فأنتِ مَدينةٌ بها للإيرلندية، ولكونهم يكرهون أن يستقبلوكِ في مقبرتهم، ثم لعبده الذي تُقلُّكِ الآن حافلتُه المتأرجحة تَأرجُحَ حياتِكْ.

شمسُ الصباح التي وصلتْ عنوةً تُضيء المرآة الخلفية وعينَي عبده المُحْمَرَّتَين من التعب.

– قلتَ إن نوراً نجتْ من الموت. مَنْ تكون إذاً مُسجَّاةُ الساحة؟

يقول عبده إنه لا يعرف اسمها، بل يعرف صرخاتها؛ الصرخاتِ الأعظمَ التي سمعها في حياته، وأنها لم تكن صرخات حيوانٍ ولا صرخات كائنٍ بشريٍّ، وإنما هي لكائنٍ بَيْنَ بَينْ. الوجهُ المُشَوَّهُ ليس لأحدٍ، وليس لنور بالتأكيد.

- هل تعرف أمينة؟

يُجيب عبده بهزَّةٍ من رأسه. إنه لا يعرف إلا الذين أَقَلَّتْهُمْ حافلتُه. أما المرأة فقد صارت شيئاً آخر بعد أن داسوها بالأقدام. لقد استمروا في دَوْسِها وهي ميتة. لم يَعُدْ هناك فمٌ ولا أنفٌ، وإنما عينان جاحظتان ما تزالان تُبصران.

وجهُ عبده يسيل بالدمع فيما تَعْبُر مركبتُه جسراً يُطلُّ على نهرٍ جافٍ.

المُسَجَّاة في ساحة "خوف"، التي لا اسم لها ولا وجه، ظلٌّ دامسٌ يعدو بين السيارات، يقفز من سطح إلى سطح، ثم يتخذ تقاطيع أمينة، فتشاهدين نفسكِ وأنتِ تلطمين صدرَكِ بقبضتيكِ كي لا تكون هي مَنْ داسوا، وتكون هي المُشوَّهة.

شوَّشَ اضطرابُك الرؤيةَ لديكِ، ومن الأفضل لكِ أن تعودي إلى بلدكْ؛ فسوف تُصابين بالجنون إذا ما بقيتِ على هَوَسكِ بهاتين المرأتين؛ تماماً مثلما أُصبْتِ به يوم قرَّرْتِ أن تلتحقي بالعاملين في حقل الإغاثة الإنسانية في حين لم يكن لديكِ ما يُهيِّئُكِ لمثل هذا العمل؛ يوم قرَّرْتِ لأن رجلاً وقِطّاً تركاكِ، الأول لكي يعود ثانيةً إلى زوجته، والثاني ليذهب إلى جنة القطط. لقد كنتِ، على ما يبدو، في حالةٍ من الاضطراب الشديد فآثرتِ البلد الأكثر بؤساً في العالم، والقريةَ التي قُذف بها على مشارف الصحراء حيث النخيل محدودبٌ كالجمال، والشيخُ طاغيةٌ ينشر الرعب. وكنتِ قد جعلتِ من القطِّ نقطة منفاكِ الجوهرية. فلو بقي على قيد الحياة لما كنتِ عرفتِ نوراً ولا أمينة ولا عبده، ولا كنتِ عرفتِ الشيخ الذي زوَّجكما مقابل مبلغٍ ضئيلٍ من

المال مدفوع نقداً، زواجَ مُتعة، الزواجَ الأكثر إهانةً من بين أنواع الزواج. زواجٌ من أبٍ لستة عشر طفلاً يَعْدُونَ حُفاةً في شوارع مدينةٍ دمَّرَتْها الحربُ والزلازل.

يحرص عبده على أن تُشاهدي الأحياءَ التي لم يتمّ إعادةُ بنائها أبداً حيث البناياتُ فيها منهارةٌ لم يرفعها أحدٌ من جديد، والأنقاضُ لم يَقُمْ بإزالتها أحدٌ، بل دُفع بها ببساطة إلى جانبَي الطريق ليتسنّى للسُيّاح الذين تمتلئ بهم سياراتُ الأجرة أن يتملّوا المشهد ويلتقطوا الصور.

عبده الذي يخال نفسه دليلاً سياحياً يُسمّي لكِ الشوارع والحوانيت المحيطة بها: صيدلية، مكتبة، سينما، مطعم، فندق. فهو يريد أن يشاركَكِ مشاهداته في حين أن أفكاركِ أنتِ في مكانٍ آخر. إنها تدور حول قتيلة الساحة. ماذا كانت تفعل في الجبل؟ ولماذا جَرَّها رجالُ "خوف" على المنحدر قبل أن يُجهزوا عليها بالركل والرفْس؟ "لقد نَفِدَ زيتُ قنديلها"، ذاك هو تفسير عبده. ثمّ، إذ أحسَّ بأنكِ لا تُصدِّقينه، أتاكِ بقولٍ مأثورٍ آخر: "لا تسقطُ شَعرةٌ واحدةٌ من رأسكِ إلا بإذن الخالق". إنه الاستسلام الأبديُّ للقدر. فتفورين في داخلكِ، وتسألين نفسكِ مَنْ يكون هذا الخالق الذي يُوزِّع زيته يميناً وشمالاً، كريماً إلى أبعد حدٍّ مع البعض، بخيلاً مع البعض الآخر. هل صوتُ عبده موصولٌ بالمُحَرِّكِ يا تُرى؟ لقد أُصيب بالصمت منذ أن أوقف مركبته. إن أمثال عبده لا يُفكرون، ولا يثورون على الأوضاع القائمة، ولا ينتمي إيمانُهم إلى مجال التجربة الروحية، بل هو استعادةٌ لمعتقداتٍ جاءت من أعماق السنين، لا يُفكِّرون في تعديلها، إما لفتورٍ في همتهم وإما بسبب الخمول. يداه اللتان تُفتِّشان في جيبه

تستخرجان صورةً يناولكِ إياها من فوق كتفه. صدرٌ تُطوِّقه جعبةُ خرطوش، وكلاشنيكوف يُهدِّد السماء: إنه عبده. لقد قاتل في الجبال، وصَوَّب على الطائرات التي كانت تَنْقَضُّ عليه مباشرةً. كانت قنابلها تُحرق البشر والشجر والصخور. وكان الرفاق يُدفنون ليلاً اللهمَّ إن لم يكونوا قد تَحَوَّلوا إلى أشلاء. كانوا يَدفنون أحياناً ذراعاً، أو ساقاً، أو إصبعاً، ثم يُقيمون الصلاة على الميت، إذ من المستحيل أن يتركوها للذئاب وللثلج.

تَنظرين إلى الصورة، ثم إلى البنايات التي قُطِّعَتْ أوصالُها، والطوابقِ الواقعة على الطوابق. لقد نَمَتِ النباتاتُ بكثافة داخل الغرف. وهنالك جيشٌ من القطط الجائعة والفئران الدسمة تُواصل الحرب التي تَوَقَّفَ عنها الرجال.

– سنبني من جديد، سنُولد من جديد، تمتمَ بين شاربيه.

تُعيدين إليه الصورةَ فيما ينتابُكِ أملٌ مُحالٌ في أن تولد أمينة من جديدٍ، هي أيضاً، في يومٍ من الأيام.

الفصل الرابع والأربعون

"بيتُ الأرملة واليتيم" يظهر فجأةً بعد المنعطف على شكل كتلةٍ سوداء. يفتح عبده باب الحافلة ويُساعدُكِ على النزول، ثم يبتسم لكِ كي يُهَدِّئَ من روعِكْ، ويرجع القهقرى عندما تَمُدِّين له قطعةً نقديةً أجْرَ رحلتكِ، وهو يهزُّ رأسه بالرفض، ثم يُدير لكِ الظهر. قدماهُ تدوسان ظلَّكَ على الأسفلت بنوع من الغضب. لقد عاملكِ كصديقةٍ فيما أنتِ تَصُدِّينه من موقعه كسائقِ حافلة. صمتُه صارخٌ. وهو إذْ لم يَعُدْ لديه ما يقوله لكِ يتركك لكي تدخلي وحدكِ إلى البناية. لقد عُدْتِ غريبةً بالنسبة إليه. "فكلُّ مَنْ لم يولد في هذا المكان غريبٌ عنا"، يقولُ مَثَلٌ من البلد. إنه يُماثل، ربما، بينكِ وبين "الروس" الذين دَمَّروا بلده. وحيدةٌ أنتِ في وسط الطريق، وحيدةٌ محوطةٌ بزمامير السيارات وصراخ الباعة وضجيج العربات، تَعبرين بصعوبة.

تُواري الأخواتُ الثلاثُ بأكفهنَّ ضحكاتِهنَّ التي انفجرتْ بالرغم منهن وهن يُشاهدْنَكِ تترددين في اجتياز العتبة.

– احزري مَنْ في انتظاركِ في الداخل؟ صرخنَ بصوتٍ واحدْ.

ولما رأين أنك لم تَحْزُرِي، ورغبةً منهن في مساعدتكِ، نصحتكِ

صُغراهُنَّ بأن تُعطي لسانَكِ لـ"الواوي"، أي للثعلب في الرواية المحلية.

- أُعطي لساني ل"الواوي"، ردَّدْتِ مستسلمةً فيما جَمَدَتْ عيناكِ في محجريهما.

نور، تتكئ على عُضادة الباب حاملةً رضيعاً على ردفها.

- كيف وصلتْ إلى هنا؟ سألتِ وقد انتابكِ دُوَارٌ شديدْ.

جاءتكِ أجوبةٌ ثلاثةٌ من الأخوات الثلاث اللواتي كن يتكلمن في نفس الوقت، وما عليكِ إلا أن تفرزي الصدق من الكذب.

- وصلتْ على الأقدامِ، ومشتْ طيلة أسبوعٍ كاملٍ، قالت إحداهن بأعلى صوتها.

- ليس صحيحاً. لو لم يُشفق عليها سائقُ عربةٍ لكانت ماتت هي وطفلتها. لقد نقلها بعربته مع أكياس العدس، قالت الثانية تُقاطعها.

- تخطئُ الاثنتان، أعلنتِ الكبرى. إنهما تقولان أيَّ شيء. نور بيننا بفضل عبده، فليُغدق الله عليه من نعمه. هذا الرجل يستحق الجنة بحُورها الأربعين التي وعد بها النبي.

والغريب في الأمر أنّ نوراً أقرَّت الروايات الثلاث. نورُ سائلٌ يأخذ شكل كلِّ حاويةٍ، عجينةٌ قابلةٌ للتشكيل، نورُ شبيهةٌ بنخيل "خوف" الجاهز لأن ينحني أمام أيِّ ريحٍ قادمةٍ من الصحراء.

وسِيَّانِ سافرتْ على الأقدامِ أو في عربةٍ تَجُرُّها الدوابُّ أو في حافلة نقلٍ، ما الأهمية في ذلك؟ المعجزةُ أنها هنا مع وليدها الذي تُعرِّفُكِ عليه. من دونكِ أنتِ أيتها الغريبة كان طُمِرَ هو وأمه تحت كومة

حجارة، تقول شفتاها، وتُناولكِ الوليد.

ثُمَّ:

– احتفظي بها إن كنتِ ترغبين في ذلك. إنها طفلةٌ، واسمُها "حبق".

هل تمزح يا تُرى؟

لكنها تُلحُّ، حتى أنها وضعت الطفلة بين ذراعيكِ.

هديَّةٌ سحريَّةٌ ومحرجةٌ في آنٍ واحد. تصاعدتْ إلى أنفكِ رائحةُ حليبٍ وزَغَبْ. ها أنتِ ذي أمٌّ دون أن تحبلي أو تلدي. تنتحبين دونما سببٍ، تُحيط بكِ النساءُ ذواتُ الأثداء المُترفَة، يُطوِّقْنَ كتفيكِ بأذرعهنَّ، يَفركن ظهركِ بأياديهن السمينة. يُخفِّفن عنكِ وهن يُلَفْلِفْنَكِ في دفء نسيجٍ من كلماتٍ حنونْ. تنورةٌ مُشَمَّرةٌ تمسح دموعكِ ومفرزات أنفكِ. يُبشِّرْنكِ بنهاية أحزان نور التي لم يَعُدْ لديها ما تخشاه، وقد تمَّ الانقلاب على وزير النهي عن المنكر، والاستغناءُ عنه، أو حتى تعليقُه على حبل المشنقة. ويَروين لكِ ما تعرفينه وتتظاهرين باكتشافه إرضاءً لهن. يتكلمن لمجرد الكلام، يتنقلن من موضوعٍ لآخر، إلا أنهن يَعُدْنَ دوماً إلى طفلة نور التي تتشبث بكِ. نفسُ وجهِ أُمِّها البارز التقاطيع، ونفسُ لون العيون الخضرِ، نفسُ البشرة الذهبية.

– أنتِ أُمُّها الثانية، يشرحن لكِ للمرة المئة. احتفظي بها بعض الوقت حتى تتعود عليكِ، الوقتَ الذي تقوم فيه نور بزيارةٍ سريعةٍ للدَوَّار كي تزرع ثانيةً ما اقتلعه مُحا. الحبق بالدرجة الأولى، والأزهار على وجه الخصوص؛ الأزهار التي لا تعبأ بالجفاف ولا بالقيظ أو البرد، كلُّ الأزهار التي خلقها الله. لمّا حان وقتُ الرضاع شرعتْ

"حبقُ" في تفتيش صِدَارتك بحثاً عن ثدي. يطلبن منك أن تتظاهري بالأمر. تضع يدٌ بسرعة رَضَّاعةً بين أصابعكْ. تُساعدكَ أخرى على الجلوس، تَسند ظهرَكِ إلى وسائد، تُبدِّل حذاءَكِ بنعالٍ مُريح. يُحَطْنَك كلُّهن بالعناية. هن سيقُمن بالشيء نفسه مع أيةَ امرأةٍ وَضَعَتْ حديثاً. يَحْشُوَنَّ فمكِ بقطعة من الراحة تنزع الحموضة عنٍ الحليب. كأسٌ من عصير البرتقال لكَي يتدفق. قطرتان من خلاصة ماء الزهر لإبعاد المغص، ولليل شايُ زهرة الخشخاش الذي يجود بالنعاس.

الفصل الخامس والأربعون

تستيقظين في عتمة الليل على بكاء طفلْ. إنه يجيء من الغرفة الداخلية حيث تنام نور ووليدتُها. أنتِ الوحيدةُ التي تهتمين، الوحيدةُ التي تنهضين. تَشُقِّين طريقكِ في الظلمة الدامسة بين الفُرْشِ الممدودة على الأرض مباشرةً، تتخطَّيْنَ الأجساد النائمة، تمشين على أجساد أخرى، ولكنْ لا أحد يشكو من الأمر. الرزمة الباكية تكاد تختنق. تأخذينها بين ذراعيكِ فتهدأ على الفور. تعرفين "حبق" من رائحتها، من لون عينيها الخضراوين، وهو كلُّ ما تستطيعين رؤيته في الظلام. تبحثين عن نور على غير هدىً. المرأة التي تَهُزِّينَها مستاءةٌ لأنكِ أيقظتها. تنصحكِ بصوتٍ ثقيلٍ أن تعودي إلى فراشكِ وأن تَكُفِّي عن البحث عن نور التي عادت إلى بيتها.

- بيتُها؟ أين ذلك؟

- في "خوف"، عند زوجها الذي سيُعيدها ثانيةً إلى بيته، سيِّدةً بين مثيلاتها من السيِّدات، وسيستعيد زاهي وزيد وزين أُمَّهُمْ، وتذهب إلى الغريبة ابنةُ الغريب. لقد كانت ترغب في أن تُودِّعَكِ، ولكنّ عبده كان يستعجلها لأن حافلته تنطلق دوماً في منتصف الليل. ولن يَتَمَنَّع

مُحا عن الزواج منها ثانيةً، هي التي لم تَعُدْ حاملاً الآن. وسيكون بمقدورها أن تعتني بحديقتها، فتزرع من جديد الحبق والطماطم، وتزرع الأزهار التي لا تخشى القيظ ولا تخشى البردً. هي ذي تنجح الآن في كل ما تفعله بعد أن نُفِّذت الفتوى في الأخرى. فقد كان يجب أن تموت امرأةٌ تحت الحجارة، ولا يَهُمُّ ما يكون اسمُها؛ فساحة "خوف" ارتوت بالدم، ولم تَعُد الحجارةُ بحاجة إلى أن تُبعثَر؛ فقد دفعت الثمنَ "حُرمةٌ" مكان أخرى، وليس في الأمرً ما يستحق النظر. الله غفورٌ رحيمٌ، ويعرف كيف يُجزل للمظلوم الثوابْ.

يُحكم على نور بالرجم حتى الموت بعد أن يُكتشف حملها من رجل غريب يعمل كمهندس في القرية الصحراويّة النائية، الخاضعة للأعراف والتقاليد البالية.

تنتصر «الغريبة»، التي جاءت إلى القرية ضمن حملة إغاثة، لقضيّة نور، وتنجح في إقناع الملا بتأجيل الرّجم ريثما تضع نور مولودها.

أمينة، خادمة الغريبة وصديقة نور المقرّبة، تسهم في المساعدة بعد أن تخلّى أبناء نور الثلاثة عنها، وغرق زوجها في السكر والضياع. ومن ثم تقتفي أمينة أثر نور كفراشةٍ تقتفي أثر ضوءٍ سيحرقها.

رواية تحكي حكاية المرأة في ظلّ أعراف تنتهك إنسانيتها وتدفعها للمغامرة بحياتها بحثاً عن أدنى حقّ من حقوقها في قرية يختصر اسمها الحكاية، إنّها قرية «خوف».

فينوس خوري – غاتّا شاعرة وروائية لبنانية.





ISBN 978-6-14425-735-7

